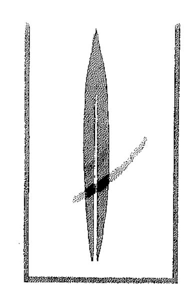
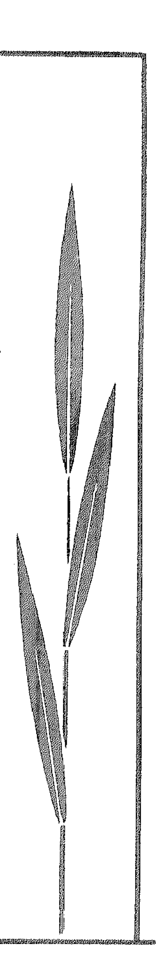
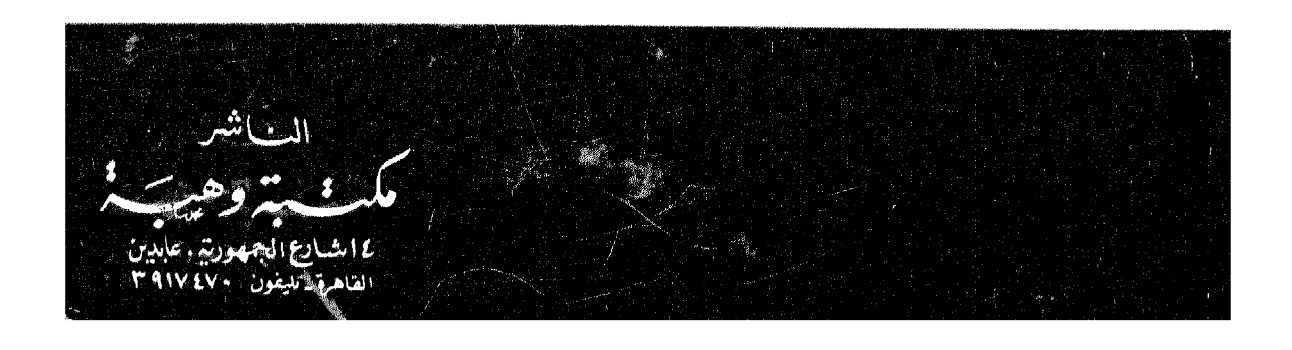


حتمية الحل الإسلامي
(٢)

دكتور يوسف القرضاوي



الحل الإسلامي
فريضة وضرورة



اهداءات ٢٠٠٠
الأستاذ / عاطف جلال
الإسكندرية

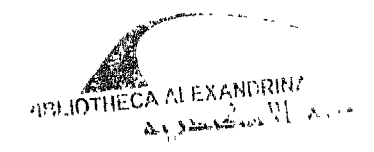
دكتور يوسف القرضاوى

حتمية الحل الإسلامى
(٢)

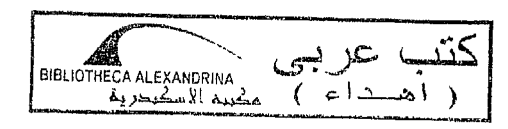


الحل الإسلامى فريضة وضرورة





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠



الطبعة الخامسة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمدك اللّهم ، وأصلى وأسلم على محمد عبدك ورسولك ، وعلى آله وصحبه ، ومَن سار على دربه .

وبعد ...

فهذا هو الجزء الثانى من سلسلة « حتمية الحل الإسلامى » التى وعدتُ بها القراء مع صدور الجزء الأول « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » منذ ثلاث سنوات . ثم تأخر ظهور هذا الجزء إلى اليوم ، لظروف شغلتنى عن إكماله .

والواقع أنى كتبتُ معظم فصول هذا الجزء منذ نحو عشر سنين ، ونشرت بعضها فى مجلة « الشهاب » البيروتية الغرّاء ، وبقى متوقفاً على الفصل الأخير منه ، الذى كتبتُ منه بعضاً وبقى بعض ، حتى شرح اللّه له صدرى أخيراً ، ويسّر لى كتابته فى وقت كنتُ أشد ما أكون فيه ازدحاماً بالعمل الرسمى . ولكن اللّه إذا ما أراد أمراً يسّر له أسبابه .

وفى هذا الجزء تناولتُ عدة فصول أو أبواب :

الأول منها : يتحدث عن ضرورة التغيير ، بعد أن تحقق فشل الحلين السابقين : الليبرالى والاشتراكى ، وثبت أن البديل الفذ هو الحل الإسلامى .

والثانى : يتحدث عن « معالم الحل الإسلامى » المنشود ، وخطوطه العريضة فى مختلف مجالات الحياة : الروحية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية .

والثالث : يتحدث عن شروط الحل الإسلامى التى يجب توافرها ، ليكون حلاً إسلامياً صحيحاً ، من ضرورة الدولة المسلمة ، والاستمداد من مصادر الإسلام وحدها ، والأخذ بالإسلام كله ، والإصرار على عنوان الإسلام ، واتخاذه غاية تُقصد لا وسيلة تُمتطى !

والرابع : يتحدث عن مكاسبنا من وراء الحل الإسلامى ، فبه نحقق وجودنا الإسلامى ، ونقيم التوازن فى حياتنا ، ونعالج مشكلاتنا من جذورها ، ونكوِّن الإنسان الصالح الذى هو أساس المجتمع الصالح ، ونجدِّد روح القوة فى أمتنا ، ونحفظ وحدتها والإخاء بين أبنائها ونجمع كلمة العرب والمسلمين حول راية الإسلام ، ونحقق الأصالة والاستقلال الفكرى والعقائدى لأمتنا .. إلخ .

والخامس : يتحدث عن السبيل إلى الحل الإسلامى ما هو ؟ وعرض تصورات فئات شتَّى لهذا السبيل ومناقشتها بالمنطق والدليل ، انتهاءً إلى الطريق الأمثل ، بل الفذ ، كما أراه ، وهو سبيل الحركة الإسلامية الشاملة الواعية : وأعنى بها العمل الإسلامى الجَماعى المنظم المخطط ، شارحاً بتركيز معانى الجَماعية والتنظيم والتخطيط ، ومبيناً عناصر النجاح اللازمة للحركة : من الجيل المسلم الذى تعمل على تكوينه ، إلى القاعدة الجماهيرية الإسلامية التى تساندها ، وتناصرها ، إلى التغلب على المعوِّقات من جهة الشعب ، أو من خارج الوطن ، أو من داخل الحركة ذاتها ، مفصِّلاً القول فى هذه المعوِّقات خاصة ، لأنها أشد خطراً .

ثم أشرت إلى الحركة الإسلامية بالأمس وما قدمته لمجتمعها وللإسلام والمسلمين ، منتهياً إلى الحركة الإسلامية المنشودة المرجوة لغد الأمة ، موضحاً أبرز ملامحها وقسماتها المعبرة عن وجهها ، المميزة لشخصيتها ، كما أتصورها .

وكان المقرر أن يكون فى هذا الكتاب فصل أو باب عن « خصائص الحل الإسلامى » والحق أن هذه الخصائص ليست إلا خصائص النظام الإسلامى ، وبعبارة أخرى : خصائص الإسلام ذاته . ومثل هذا الموضوع حرىٌ بأن يمتد فيه

الحديث طولاً وعمقاً ، وأن يُخصَّص له كتاب مستقل موضوعه « الخصائص العامة للإسلام » وهو ما أنوى إخراجه تحت هذا العنوان قريباً إن شاء اللّه .

وبهذا أرجو أن أكون قد وضَّحتُ ما ينبغى توضيحه فى هذا المقام ، غير زاعم لنفسى الكمال ، ولا مدع لها العصمة ، فما كان من صواب فبتوفيق اللّه ، وما كان من خطأ فمنى ومن الشيطان ، وأستغفر اللّه منه ، وأطالب الإخوة القرّاء أن يسددونى فيه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [1] ..

الدوحة فى ١٣٩٤/٥/٢٤ هـ (١٩٧٤/٦/١٤ م) .

يوسف القرضاوى

* * *

(١) هود : ٨٨



ضرورة التغيير ..
الحل الإسلامي هو البديل

الآن حصحص الحق ، ووضح الصبح لذى عينين .

لقد ثبت فشل الحلّين الدخيلين على بلادنا ، المستوردَين من عند غيرنا - وهما : الحل الليبرالي الديمقراطى ، والحل الاشتراكى الثورى - فى كل مجالات الحياة ، وكان إثم كل منهما أكبر من نفعه ، وفشله أضعاف نجاحه .

(أ) فشلٌ فى المجال الاقتصادى .

(ب) فشل فى مجال الحرية والطمأنينة للشعب .

(جـ) فشل فى المجال العسكرى .

(د) فشل فى المجال الروحى .

(هـ) فشل فى المجال الأخلاقى .

(و) فشل فى المجال العربى والإسلامى .

فماذا بعد ذلك كله ؟ وماذا تعنى إنجازات جزئية ومكاسب وقتية أمام الخسائر الكبرى والفشل العام ؟

وكل ما أخذته الأنظمة الثورية على مَن سبقوها من الحاكمين ، وقعت فيه وفيما هو شر منه ، وأضافت إلى آثام الأمس آثاماً أكبر وأخبث ، حتى أوشكت أن تصبح سيئات الماضين بجوارها حسنات .

ولا بأس أن أشير إلى مجالات الفشل المذكورة هنا ، مكتفياً بالتفصيل الذى

ذكرته فى الكتاب الأول « الحلول المستوردة » مركزاً على بعض النقاط التى تحتاج إلى توضيح أو تذكير وتوكيد .

● فشل فى المجال الاقتصادى :

لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية كلتاهما فى إقامة حياة اقتصادية سليمة متكاملة ، تتحقق فيها زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع ، حياة يتوافر فيها العمل الملائم لكل عاطل ، والأجر العادل لكل عامل ، والكفالة المعيشية لكل عاجز ، وتكافؤ الفرص لكل مواطن ، بحيث يجد كل المواطنين حاجاتهم الأساسية من الغذاء والكساء والمسكن والعلاج والتعليم دون عائق .

أجل .. فشلوا فى ذلك على رغم إكثار الأولين (الليبراليين) من القول بمحاربة « الأعداء الثلاثة » : الفقر والمرض والجهل !

وطنطنة الآخرين (الاشتراكيين) بمجتمع الكفاية والعدل ، المجتمع الذى ترفرف عليه الرفاهية !

ولكن لا هؤلاء ولا أولئك أطعموا الشعب من جوع ، أو أغنوه من فقر ، أو علّموه من جهل ، فلا زالت نسبة الأميين فى بلادنا أعلى من معظم بلاد العالَم .

هذا فى جانب العدل والتكافل الاجتماعى .

وفى الجانب الآخر .. جانب الكفاية وزيادة الإنتاج ، لم تزل بلادنا معتمدة أكبر الاعتماد على الاستيراد فى آلات الإنتاج ، ووسائل النقل ، ومعظم مصنوعات الحضارة ، ولم يستطع الليبراليون ولا الاشتراكيون إقامة تصنيع ثقيل - مدنى وحربى - يغنى الأمة عن الاستيراد ومدّ اليد إلى الأقوياء ، والتأرجح بين المعسكرات الدولية المتنافسة ، بُغية تأمين السلاح ، والدفاع عن الحمى .

حتى الزراعة التى كانت حرفة أجدادنا من آلاف السنين ، والتى اشتهرت بها بلادنا - حتى حاول الاستعماد فى وقت ما إفهامنا أننا لا نحسن غيرها

ولا نملك طاقات لشيء سواها – حتى هذه الزراعة لم نرق بها إلى المستوى اللازم لناَ ، واللائق بنا ، كماً ونوعاً ، وما زلنا نستورد القمح من خارج أرضنا وإلا هلكنا جوعاً . وهكذا نعتمد على غيرنا فى جلب الطعام الذى به عيشنا ، والسلاح الذى نصون به حياتنا !!

لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية فى الرقى بالمجتمع من التخلف إلى التقدم . لم تستطع هذه ولا تلك ، أن تنتقل بالمجتمع من الاعتماد على الغير إلى الاكتفاء بالذات ، ومن استيراد مصنوعات الحضارة إلى إنتاجها ، ومن شراء السلاح إلى صناعته ، ومن « رواية » العلم أو ترجمته إلى المشاركة فيه . هذا مع أن بعض العلم لا يسمح أهله بروايته أو ترجمته ، لأنه من الأسرار .

* *

● فشل فى مجال الحرية والطمأنينة للشعب :

وفشل الحلأن كلاهما فى تحقيق الأمن والطمأنينة والحرية الحقيقية للشعب ، التى تتمثل فى حرية الفرد فى أن يفكر وينقد ويبدى رأيه فيما يراه من عوج وفساد ، وفى أن يندد – مع غيره – بالظلم والطغيان ، دون أن يخشى على نفسه من كلاب الصيد التى تختطف الأحرار من بيوتهم ، ومن بين أهليهم وأبنائهم فى سواد الليل ، فتلقى بهم إلى ظلمات السجون والمعتقلات ، بلا محاكمة أصلاً ، أو بعد محاكمة صورية ، يُرتّب فيها الحكم قبل المحاكمات !

لقد لقى الأحرار من المواطنين السجن والاعتقال ، والاضطهاد والتعذيب فى كلاً العهدين : الديمقراطى والاشتراكى ، ولكن – والحق يقال – لا نسبة بين ما حدث فى العهد الأول والعهد الآخر ، لا فى الكم ولا فى الكيف . حتى إن الذين جرّبوا الاضطهاد فى العهدين ، يعتبرون أن المنافى والمعتقلات التى عانوها فى العهد السابق – وطالما شكوا من ظلمها وظلامها – كانت جنة فيحاء بالنسبة إلى معتقلات العهد الثانى وسجونه ومنافيه .

* *

● فشل فى المجال العسكرى :

لقد فشل الحلاّن - الليبرالى والاشتراكى - فى تحقيق نصر عسكرى فى قضية العرب والمسلمين الأولى : قضية فلسطين ، أولى القِبْلتَين ، وثالث الحرمين .. فشلت الديمقراطية فشلاً تجسَّد فى هزيمة الجيوش العربية فى سنة ١٩٤٨ ، وقيام دولة « إسرائيل » - المزعومة كما كنا نسميها لعدة سنوات - وتشريد مليون مواطن من شعب فلسطين ، وتحويلهم إلى لاجئين .

ثم بعد تسعة عشر عاماً ، وبعد تحوّل عدد غير هيِّن من الدول العربية إلى الاشتراكية الثورية . وبعد الإعداد والتجهيز للحرب ، وشراء السلاح بمئات الملايين من عَرَق الشعب ، واستقدام الخبراء ، وإطلاق الحناجر بالجعجعة والوعيد ، وبعد أن أصبح العسكريون هم القادة السياسيين أيضاً . فشلت الاشتراكية اليسارية فشلاً أنكى وأقسى من فشل سابقتها . فقد جاء بعد آمال عراض ، وأحلام عذاب ، وبعد تصريحات نارية ، وتهديدات عنترية [١] - ومعذرة لعنترة ! - وقد تجسم هذا الفشل فى هزيمة يونية (حزيران) سنة ١٩٦٧ ، ثم ضمت إلى هذا الفشل العسكرى كبيرتين من كبائر الخطايا :

أولاهما : أنها جعلت أكبر همها ، « إزالة آثار العدوان » وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى ٤ يونية ١٩٦٧ ، كأنما إسرائيل كلها ليست قائمة على أساس الاغتصاب والعدوان . وكأنما العدوان الجديد أضفى الشرعية على مكاسب العدوان القديم .

والثانية : بتبجحها العجيب ، حين اعتبرت ضياع الأرض ، وهوان العِرض ، وانهيار الجيوش .. كل ذلك لا يُعَد هزيمة يفرح بها العدو ، ويحزن لها الصديق ،

---

(١) جرينا على ما يقول كثير من الكتّاب ، وإن كنا نرى الأصوب ألا يقال « عنترية » بل « فرزدقية » إشارة إلى قول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع !!

أما عنتر فكان يقول ويفعل .

ما دامت الأنظمة الثورية باقية فى دست الحكم ! وفى الحديث : « إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

ولولا نفحات من رياح الجنة هبَّت فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ بفضل الصائمين القائمين من أبناء هذه الأمة وجنودها ، لبقى ذل الهزيمة المخزية وصمة عار فى جبين أمتنا إلى ما شاء الله !

* *

● فشل فى المجال الأخلاقى :

وفشل الحلأن – قبل ذلك كله – فى الحفاظ على أخلاق الأمة وفضائلها الأصيلة ، وقيمها الرفيعة . لم يستطيعا تخليص الأمة من الرذائل الموروثة من عهود الانحطاط ، ولا مطاردة الرذائل الدخيلة ، التى جلبها وراءه الغزو الاستعمارى .

ومن هنا انتشر الفساد ، وطغت الشهوات ، وطمّ سيل الميوعة والتهتك ، وفقد النساء – أو أكثرهن – الحياء ، وفقد الرجال – أو أكثرهم – الغيرة ، وأصبح الغيور المحافظ على دينه وعرضه وأسرته « رجعياً » متخلفاً يفكر بعقل قرون مضت ، وأصبح « الديوث » الذى لا يبالى مَن دخل على أهله تقدمياً متحرراً يستحق أن يعيش فى القرن العشرين .

ومن جانب آخر .. شاع العبث والمجون والاستهتار بالمصالح العامة ، والاستخفاف بحقوق الآخرين ، وحصر التفكير فى المنفعة الذاتية المادية العاجلة ، وانتشرت الرشوة والمحسوبية انتشار النار فى الهشيم ، وأصبحت الحكمة الشائعة على ألسنة الناس هى قول الشاعر :

إذا كنتَ فى حاجة مرسلاً ... وأنت بها كلف مغـــــرم

فأرسِل حكيماً ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم !

وبجوار ذلك كله سادت روح السلبية فى المواطنين وعدم المبالاة ، وترك

الأمور تجرى فى أعنتها ، غير عابئين بنتائجها أو مصايرها . وهذا شر ما تصاب به أمة ..

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً !

* *

● فشل فى المجال الروحى :

وكذلك فشل الحلأن – كلاهما – أن يمسكا على الأمة إيمانها الذي تعتز به ، وتعض عليه بالنواجذ ، وتعتبره أساس وجودها وبقائها : إيمانها بالله ، وإيمانها برسالاته ، وإيمانها بحسابه وجزائه فى الآخرة . فاهتزت القيَم الدينية فى أنفس كثير من الناس ، ووجد تيار الشك والإلحاد له أعواناً وصحفاً وأجهزة تنشر الضلال والفسوق والعصيان .

وكيف يستطيع الحلأن الدخيلان المستوردان أن يحفظا على الأمة إيمانها ، فضلاً عن تثبيته وتركيزه ومدّ شعاعه فى كل مجالات الحياة ؟

كيف وانتصار هذين الحلّين أنفسهما تحدٍّ لهذا الإيمان ، ومعارضة له ؟

إن هذين الحلّين إنما جاءا من الغرب الذى لم يعرف الإيمان بالله معرفة صحيحة قَط [١] ، ولهذا كانت الحضارة الغربية ذات فرعين : فرع ينكر وجود الله إنكاراً مباشراً ، ولا يرى أن الله خلق الإنسان ، بل الإنسان هو الذى خلق الله ، كما زعم بعض الفلاسفة الماديين ، وتبنى ذلك « كارل ماركس » وأقام على أساسه فلسفته المادية الجدلية ، ونظريته الاشتراكية العلمية .

والفرع الآخر .. لا ينكر الله فى صراحة وقطع ، ولكنه لا يعترف له بسلطان على عباده ، يأمر وينهى ، ويحكم ويشرِّع ، وبهذا لا يدع فى الحياة ولا فى

---

(١) لأن المسيحية التى وصلت إلى الغرب لم تكن مسيحية المسيح الأصيلة ، بل مسيحية الملك قسطنطين ومجمع نيقية وغيره ، ممن ألهوا المسيح وخرجوا بديانته عن التوحيد ، ملّة إبراهيم ، وتجاوزا به مكانه من العبودية لله .

المجتمع مجالاً لله سبحانه . وهذا ما عبَّر عنه « ليوبولد فايس » - أو « محمد أسد » - بقوله : « إن المدنية الغربية لا تجحد « الله » ألبتة ، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة « لله » فى نظامها الفكرى الحالى »[1] .

* *

● فشل فى المجال العربى والإسلامى :

وفشل الحل الليبرالى الديمقراطى ، والحل الاشتراكى الثورى ، كذلك فى تحقيق الوحدة والأخوة والتضامن الحقيقى بين أبناء البلد الواحد ، ولم نر إلا التطاحن الحزبى ، أو التشاحن الطبقى ، أو الصراع الفكرى ، أو التناحر السياسى ، أو التباغض الدينى ، أو التحاسد الشخصى ، أو كل ذلك وغير ذلك من ألوان التنافر والتجافى والصراع ، التى مزَّقت الوطن الواحد كل ممزق ، وجعلت بعض فئاته أعداءً لبعض ، ووسعت الفجوة بين الحكام والشعوب ، فأولئك فى واد ، وهؤلاء فى واد آخر .

وإذا كان هذا على مستوى البلد الواحد ، فكيف إذا نظرنا إلى العرب جميعاً باعتبارهم شعباً واحداً ، جمعت بين أبنائه وحدة الدين واللغة والثقافة والتاريخ ، فضلاً عن وحدة الأرض والمصالح ، والآلام والآمال ؟

وكيف إذا نظرنا إلى المسلمين جميعاً بوصفهم أمة واحدة ، جعلها الله وحدها هى الأمة الوَسط ، واعتبرها فى كتابه خير أمة أُخْرِجت للناس ، نهى أمة واحدة فى عقائدها وتصوراتها . واحدة فى شعائرها وعباداتها . واحدة فى مُثُلها وأخلاقها . واحدة فى آدابها وتقاليدها . واحدة فى مشاعرها وآمالها . واحدة فى تشريعها وتوجيهها . وأخيراً واحدة فى قيادتها السياسية الدينية ، الروحية الزمنية ، المتمثلة فى الخلافة الإسلامية الواجبة ؟

لقد فشل الحلأن فى ربط الأمة الإسلامية بعضها ببعض ، وتقريباً من الوحدة

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ - الطبعة السادسة .

الإسلامية المنشودة ، نتيجة حتمية لغلبة النزعات الوطنية أولاً . والقومية آخراً ، بحيث طغت هذه النزعات على الأخوة الإسلامية الجامعة . ثم نتيجة لاختلاف مذاهب السياسة والفكر التى يتبعها كل بلد ، من التبعية للغرب أو الشرق .

ولا غرو أن وجدنا القضايا الإسلامية المختلفة يتولاها كل بلد باعتبارها شيئاً يخصه وحده ، ولا يعنى سائر المسلمين ، وينظر إليها بقية المسلمين فى أنحاء الأرض ، وكأنه حدث فى بلد أجنبى ، أو فى بلاد واق الواق ، لا يهمُّهم ولا يشغلهم ، وهذا كله ثمرة لازمة للثقافة القومية العلمانية .

لقد ترتب على ذلك أن وجدنا بلداً مثل تركيا - أعنى حكوماته المتعاقبة منذ نصف قرن - تعترف بإسرائيل ، وتقيم معها علاقات ديبلوماسية واقتصادية وثقافية ، ضاربة عرض الحائط بمشاعر العرب ، وأخوة العرب ، وحقوق العرب ، وذلك لأن الذى يربط تركيا بالعرب هو الإسلام ، ولكن تركيا القومية و « الطورانية » العلمانية الحديثة - تركيا كمال أتاتورك - قطعت كل ما بينها وبين الإسلام ، فقطعت - بالتالى - ما بينها وبين العرب ، حتى حروف الكتابة العربية !!

وكان للعرب موقف مشابه من موقف تركيا ، وذلك فى النزاع الذى قام حول « قبرص » بين القبارصة الأتراك المسلمين ، والقبارصة اليونانيين المسيحيين ، فكان موقف العرب - إجمالاً - فى صف الأسقف « مكاريوس » وأتباعه ، إلى حدّ أن بعضهم زوّده بالسلاح ، ليقتل به المسلمين الذين حُوصِروا وقُتِلوا بالجوع والظمأ ، فضلاً عن الحديد والنار .

وقد زرتُ تركيا فى صيف سنة ١٩٦٧ ، فسألنى الكثيرون بعد محاضرة ألقيتها هناك : كيف وقفتم - معشر العرب - مع « مكاريوس » ضدّ إخوانكم المسلمين من الترك ؟

فقلت لهم : وكيف وقفتم - معشر الأتراك - مع إسرائيل فاعترفتم بها رسمياً ضدّ إخوانكم المسلمين من العرب ؟

قالوا : إنما هذا تصرف حكومات علمانية لا نرضى عن سياستها ، ولا نؤمن باتجاهها .

قلت : وهذا نفس الوضع عندنا . فأغلبية الشعوب العربية تؤمن بأخوة المسلمين وتضامنهم - على الأقل - ولكن حكومات قومية علمانية فرضتها أوضاع قاهرة ، هي التي وقفت هذا الموقف !

وفي مشكلة كشمير الإسلامية وقف العرب منها إما متفرجين - محايدين فيما زعموا - وإما ممالئين ظاهراً أو باطناً لسياسة الهند العدوانية ، لأنها الصديقة الاشتراكية ! وهذا برغم موقف باكستان المشرِّف من قضايا العرب باستمرار .

وفي الحرب التي قامت بين الهند وباكستان سنة ١٩٦٥ كان هذا هو موقف العرب أيضاً ، حتى قرأنا يومها أعجب بيان يصدره شيخ الأزهر - شيخ الإسلام في مصر - بيان يدعو البلدين المتقاتلين إلى وقف القتال ، لا إلى مساندة البلد المسلم المعتدَى عليه من الوثنية الحاقدة المتربصة . أو على الأقل السكوت والرضا بأضعف الإيمان .

ولهذا لم نعجب أن احتُلّ المسجد الأقصى ، ثم أُحْرِق فيما بعد ، ولم يتزلزل العالم الإسلامي لهذا الحادث الجلل ، ولم تتحول الثورات العاطفية التي حدثت حينذاك إلى عمل إيجابي . وذلك لتقطع الروابط الإسلامية ، وانطفاء جذوة الروح الإيمانية ، التي لم يفلح في إشعالها قرارات مؤتمر علماء المسلمين في مجمع بحوث الأزهر بمصر ، ولا نداءات مؤتمر رابطة العالَم الإسلامي بمكة . لأن المسلمين نائمون ، والنائم لا يسمع النداء . فلا بدّ من دعوة إيقاظ ، وحركة إحياء ، قبل إصدار النداءات والقرارات .

وما أقسى أن يعبِّر ماركسي شامت عن نتائج هذه النداءات بأنها أصداء بئر خاوية !

مَن المسئول ؟ إنه الأنظمة التى تحكم هذه البلاد ، والتيارات التى تسودها وتحركها . فقد أماتت فيها روح الإسلام ، وأحيت معانى الجاهلية !

* * *

● مآخذ « الميثاق » على الحكم الوطنى المصرى بعد ثورة ١٩١٩ :

لقد عاب « الميثاق » المصرى على الاتجاه الليبرالى - الذى ساد مصر بعد ثورة ١٩١٩ - أموراً ثلاثة كانت هى الأسباب الواضحة التى أدت إلى فشل « الثورة الوطنية » فى مصر فى تحقيق أهداف الشعب .

الأمر الأول - إهمال التغيير الاجتماعى :

إغفال القيادات الثورية والزعامات السياسية مطالب « التغيير الاجتماعى » نظراً لأن طبيعة « المرحلة التاريخية » جعلت من طبقة ملاّك الأرض أساساً للأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة .

ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالى هى قصارى الجهد فى ذلك الوقت ، فى حين أن الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنية أصلاً وأساساً كانت هى المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه من غير تأخر أو إبطاء .

الأمر الثانى - الغفلة عن رابطة العروبة :

إن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمدّ بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد « الشخصية المصرية » ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

« لقد فشلت هذه القيادات أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها - على اختلاف شعوبها - طبقاً لمخطط واحد .

« ومن هنا فإن قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ إسرائيل ، لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية ، وقاعدة لتهديدها .

« وبهذا الفشل ، فإن النضال العربى - فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة - حُرِم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القُوَى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال ، مفتتة الجهد » .

الأمر الثالث - الانخداع بالاستقلال الإسمى :

إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت .

« إن الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالاً . ومن ثَمَّ انتقل من السيف إلى الخديعة ، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقى ، وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط .

« إن الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال .

« وزادت المضاعفات خطورة بسبب « الحكم الذاتى » الذى منحه الاستعمار ، والذى أوقع الوطن - باسم الدستور - فى محنة الخلاف على الغنائم دون نصر .

« وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبى فى مصر ملهاة تشغل الناس ، وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لا نتيجة له » (١) .

* *

(١) الميثاق : الباب الثالث ص ٢٤ - ٢٧

• ثورة ١٩٥٢ لم تستفد من أخطاء ثورة ١٩١٩ :

هذه الأمور الثلاثة التى أخذها الميثاق المصرى الناصرى على ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعبارة أخرى : على الليبرالية الديمقراطية المصرية ، وأدّت إلى فشلها فى تحقيق آمال الشعب ومطالبه .

وهى مآخذ حقيقية وعيوب صادقة لا مجال لردّها وإنكارها .

ولكن هل استفادت ثورة ١٩٥٢ من ثورة ١٩١٩ ؟

وبعبارة أخرى : هل استفادت الاشتراكية الثورية المصرية - واليسار العربى بصفة عامة - من دروس الليبرالية العلمانية الوطنية وأخطائها ؟

إن الذى سجّله التاريخ عليها أنها لم تعتبر بمصير الثورة التى ورثتها ، والاتجاه الذى خلفته . ولم تنتفع بما أنكرته عليها من مآخذ ، وما خلفته من آثار ونتائج كان يؤمل أن تفتح أعينها على حقائق هامة ، أهمها : أن تكتشف نفسها ، وتعرف موقعها ، ولكنها لم تفعل .

لهذا فشلت الثورة الاشتراكية العربية ، كما فشلت الثورة الليبرالية الوطنية . ومن أبرز أسباب هذا الفشل ما نبينه فيما يلى :

• حقيقة التغيير الاجتماعى وكيف يتم :

١ - إن القيادات الثورية العربية - فى مصر خاصة وفى البلاد العربية عامة - لم تفهم حقيقة « التغيير الاجتماعى » الذى رفعوا شعاره ، والذى تتوق شعوب المنطقة إليه ، والذى أسهم « التيار الإسلامى » بدور رئيسى فى توعية الشعب بضرورته ، والالتفاف حول المطالبة به .

لقد تخيّلت هذه القيادات أن مجرد « إحلال طبقة محل طبقة » ، وأن مجرد إصدار قرارات بجملة من التأميمات والمصادرات ، يغيِّر « الواقع الاجتماعى » السيىء إلى واقع حسن .

لقد توهمت أن المشروعات المرتجلة ، والقرارات المستعجلة - والتى تعمل

أجهزة الإعلام الضخمة على تمجيدها وإحطاتها بهالة كبيرة من الدعاية لها - كفيلة بتغيير الأوضاع .

لقد أغفلت هذه القيادات الثورية العنصر الأخلاقى والروحى فى التغيير - إغفالاً يكاد يكون تاماً - مع أن كل ثورة اجتماعية لا تسبقها وتصاحبها ثورة روحية ، فكرية ، نفسية ، هى - بلا ريب - ثورة مآلها إلى الفشل والخيبة .

لقد بيَّن القرآن الكريم هذه السُنَّة الاجتماعية ، ووضعها فى صيغة قانون إلهى ثابت لا يتخلف ولا يحابى ولا يظلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [١] ..

ومن المقرر الذى لا خلاف عليه أن تغيير الأنفس ليس بالأمر الهين . إنه ليس تغيير مَلْبس أو زِىّ بآخر . إن معناه تغيير الإنسان ذاته من حال إلى حال . تغيير وجهته وأفكاره ومشاعره وأهدافه وطرائقه . وهذا هو « التغيير الثورى » الحقيقى . لأنه تغيير ينفذ إلى الروح والجوهر ، ولا يقف عند الغلاف والمظهر . مصداقاً لما قاله معلّم الإنسانية : « ألا إنَّ فى الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » [٢] .

هذا التغيير النفسى لا يتم إلا بوسيلة واحدة هى الإيمان [٣] ، الإيمان الذى صنع من قبائل العرب المتفرقة الممزقة من قبل خير أمة أُخْرِجت للناس ، وبعثهم فى أنحاء الأرض ينشرون الحق ، ويدعون إلى الخير ، ويُخرجون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وحده ، ومن ضِيق العيش إلى سعة الحياة ، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

الإيمان الذى غيَّر سَحَرة فرعون من أبناء مصر ، حين خالطت بشاشته قلوبهم ، فانقلبوا من أذناب مهرجين مأجورين يطلبون المال والزلفى بين يدى فرعون ،

---

(١) الرعد : ١١ (٢) متفق عليه .

(٣) راجع فصل « الإيمان والإصلاح » من كتابنا « الإيمان والحياة » .

إلى أحرار مؤمنين أقوياء ، يتحدون بإيمانهم جبروت فرعون ، وإرهاب زبانيته ، غير عابئين بوعيده وتهديده بالتقتيل والتصليب .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [(١)] ..

إن هؤلاء الأبطال نموذج لما يمكن أن يصنعه الإيمان بشعب كالشعب المصرى ، حين يدع سحر الفراعنة ، ويعرف الطريق إلى الله .

وليت هؤلاء الثوريين اقتصروا فقط على إغفال العنصر الروحى والأخلاقى ، بل طاردوه وحاربوا دعاته ، ونكلوا بهم شر تنكيل ، وشجعوا الجور والعبث ، وأطلقوا العنان للميوعة والتحلل ، واختلاط الشبان والشابات فى المعسكرات والرحلات وما شابهها .

كما أغفل هؤلاء عنصراً آخر يكمل العنصر السابق ، وإن شئت فقُلْ : هو شرط له ، ذلك هو عنصر « الحرية السياسية » فتوافر الحرية لأبناء المجتمع هو « المناخ » الضرورى ، والتربة اللازمة ، لكى يُخرج « التغيير الاجتماعى » نباته بإذن ربه طيباً مباركاً ، ولا يخرج خبيثاً نكداً .

ولكن القيادات الثورة أهملت الحرية ، بل أهدرت قيمتها ، بل عادتها وقاومتها بكل سبيل ، وحرمت أفضل العناصر الوطنية من الحرية : حرية التعبير والنقد والخطابة والكتابة والتجمع بحُجَّة كاذبة مضللة ، هى « حماية الثورة من أعداء الثورة » أو من « الثورة المضادة » . ولا أدرى ما الذى جعل الثورة الأولى حقاً ، والثورة الأخرى المضادة لها باطلاً ؟ أهو لمجرد السبق الزمنى كانت الأولى مشروعة ، والثانية عدواناً ؟ أم لأن هذه فى السُلطة فكل ما عارضها يفقد الصفة الشرعية ، ولا يستحق البقاء ؟!

وكان أعجب شعار رفعته القيادات الثورية أنه : « لا حرية لأعداء الحرية » فكل لسان حرّ يجب أن يُخرس ، وكل قلم حرّ يجب أن يُكسر ، وكل فكر حرّ يجب أن يُخنق ، لأن أصحاب هذه الألسنة والأقلام والأفكار « أعداء الحرية »

---

(١) طه : ٧٢

حرية السلطات الحاكمة فى أن تفعل بالشعب ما تشاء ، وتعبث بمصيره ومقدراته وحرماته كيف تشاء !

ثم إن التغيير الاجتماعى ما لم يستند إلى عقيدة - أيديولوچية أساسية - يؤمن بها الشعب - ويعمل بموجبها ، ويضحى فى سبيلها ، ويخضع لمقرراتها ، ويلتزم بحدودها ، يكون تغييراً غير هادف ، همه أن يزيل شيئاً بشيء ، أو يحل جديداً محل قديم ، أو يكون تغييراً هدفه الهدم لا البناء ، والمحو لا الإثبات .

ومن المؤسف أن القيادات الثورية أغفلت العقيدة أو « الأيديولوچية » الوحيدة التى لا تؤمن شعوبنا إلا بها ، ولا تتجمع إلا حول رايتها ، وهى « الإسلام » . وظلت فترة فى شبه فراغ فى تأرجح وتردد ، ثم حاولت أن تملأ هذا الفراغ عن طريق « التسول الفكرى » نتيجة لجهلها بتراثها وحضارتها ، وفقدانها الثقة بنفسها ودينها وتاريخها . ورغبتها فى إرضاء السادة أعداء الاتجاه إلى الإسلام . والشحاذة والتسوّل أيسر طريق للكسالى من العاطلين الذين يريدون الغِنَى بغير جهد ، واكتناز الثروة بغير عمل .

وقد عثر هؤلاء - فى أثناء تسكعهم فى شوارع الفكر الغربى ومنتدياته - على « الاشتراكية العلمية » فطاروا بها فرحاً ، وعادوا بها مبشّرين ومنذرين ، بعد أن طعّموها بخليط من الأفكار الليبرالية الغربية ، والأفكار الوطنية والقومية ، مع شئ من الأفكار الدينية ، المشوشة فى بعض الأحيان .

وكانت نتيجة ذلك هو الاضطراب والتخبط ، أو البَذر فى الهواء ، والبناء على كثيب من الرمل ، لا ثبات له ولا قرار ، هذا إن أمكن أن يقوم البناء .

كان نتيجة ذلك هو السير فى غير الاتجاه الصحيح . والسير فى غير الاتجاه الصحيح مهما اجتاز صاحبه من مفاوز ، وقطع من مسافات ، وبذل من جهد وعَرَق ، لا يُقرِّب من الهدف المنشود ، بل يُبعد عنه ، هذا إن افترضنا وجود هدف محدّد .

ومن ثَمَّ فشلت القيادات الثورية العربية فى تحقيق « التغيير الاجتماعى » الذى نادوا به ، لأنهم لم يفهموا حقيقته ، ولم يعرفوا شروطه ومناخه ، ولم

يسلكوا له سبيله . ولم يدركوا أساسه الذى يجب أن يقوم عليه البناء ، فتخبطوا وتعثروا وتناقضوا .

وانتهى تخبطهم إلى مطالبة بعض اليساريين العرب بتغيير كل شىء : القيَم والأخلاق ، والمفاهيم والعقائد ، وبهذا انتهى مفهوم « التغيير » إلى « الهدم المطلق » . إلى ريح عقيم ، ما تَذَر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

* *

● الصلة العميقة الأصيلة بين العروبة والإسلام :

وإذا كان « الميثاق » المصرى قد عاب على القيادات الحاكمة بعد ثورة ١٩١٩ عجزها عن تحديد « الشخصية المصرية » وعن فهم الصلة التاريخية بين الوطنية المصرية والقومية العربية . فلم تتعلم من التاريخ ، ولا من عدوّها الذى يعامل الأمة العربية كلها طبقاً لمخطط واحد . فنحن نعيب على القيادات العربية الحاكمة بعد ثورة ١٩٥٢ - وما تبعها من ثورات - أنها عجزت عجزاً بيِّناً عن تحديد « الشخصية العربية » ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أيضاً الصلة العميقة بين العروبة والإسلام ، وبين الشعب العربى والأمة الإسلامية .

إن ارتباط الشخصية العربية بالإسلام ارتباط عضوى لا ريب فيه . فالإسلام هو صانع تاريخ العرب وأمجادهم وثقافتهم ومُثُلهم وحضارتهم ، ومخلّد لغتهم ، ورافع ذكرهم فى العالمين عامة ، وفى الشعوب الإسلامية خاصة .

إن الذى جعل من العرب أمة رائدة ، ووضع فى أيديهم القيادة ، وجمعهم من شتات العصبية ، وحررهم من جهالة الأمية ، وضلال الوثنية ، وقذارة الجاهلية ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . هو الإسلام الذى بعث الله به رسوله الخاتم ، وأنزل به كتابه الخالد : ﴿ هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ [١] ..

---

(١) الجمعة : ٢

وهم فى خلال أربعة عشر قرناً لم يحرزوا تقدماً ، أو يحققوا نصراً إلا بالإسلام . كما أن ارتباط الشعب العربى بالأمة الإسلامية الكبرى هو ارتباط قائم دائم لا يجادل فيه إلا مكابر ، لأنه يقوم على أساس من وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، ووحدة الأهداف ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصالح ، وهذه الوحدات كلها هى التى صنعت وحدة الأفكار والمشاعر والآلام والآمال ، وولّدت الشعور القوى لدى العرب والمسلمين كافة ، بأنهم « أمة واحدة » أمة القرآن ، أمة محمد ﷺ .

وارتباط العرب بإخوانهم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها هو ارتباط الجزء بالكل . وليس هو أى جزء من كل ، فإن مكان العرب فى الجسم الإسلامى مكان الرأس أو القلب .

فقد شاء اللّه أن ينزل كتابه العظيم بلسان عربى مبين ، وأن يبعث رسوله الكريم من أمة العرب ، وأن يجعل بيته العتيق فى أرض العرب ، وأن يجعل حَمَلة رسالة الإسلام الأوّلين إلى العالمين من رجال العرب . وهذا كله بوأ العرب مكان الزعامة فى المسلمين ، وجعلهم ينظرون إلى العرب باعتبارهم أبناء الصحابة ، وعصبة الإسلام ، وأولى الناس بوراثته ، وحمل دعوته إلى العالم كله .

بَيْدَ أن القيادات الثورية العربية جهلت هذا كله ، أو تجاهلته ، فنادت بـ « قومية عربية » مغلقة ، ولم تستطع أن تمد بصرها عبر الخليج العربى لتتصل بأكثر من ستمائة مليون مسلم - عرَّب الإسلام عقولهم وعواطفهم - يمثلون خُمس العالَم ، ويملكون من القُوَى المادية والبَشرية ما يجعل منهم « كتلة ثالثة » تستطيع أن تغيِّر ميزان القُوَى العالمية ، كما يملكون من « القِيَم » الثقافية والحضارية ما يجعل منهم رسل الهداية للدنيا ، وسفينة الإنقاذ للبَشرية الموشكة على الغرق .



● مقومات القوة لدى العالَم الإسلامى :

وهذه بعض مقومات القوة التى يملكها العالَم الإسلامى ، أنقلها من دراسة للبحاثة الباكستانى الأستاذ تودرسُ نظير أحمد خان :

أولاً – الوضع الاستراتيچى للعالَم الإسلامى :

إن البلاد الإسلامية تشكل العمود الفقرى للكرة الأرضية ، فهى تمتد فعلاً كسلسلة طويلة متصلة الحلقات فى سائر المنطقة الواقعة بين أندونيسيا ومراكش ، وتشرف على مواقع استراتيچية هامة ، وهى فى وضعها هذا تشغل مركزاً بالغ الأهمية فى الشئون الدولية .

ثانياً – وضع المسلمون من الناحية العددية عامل رئيسى له أهميته الخاصة :

هناك نحو ستمائة وخمسين مليوناً (١) من المسلمين منتشرون حالياً فى كافة بقاع الأرض . دانيها وقاصيها ، وإنك لتجد مسلماً واحداً بين كل خمسة أشخاص من البَشر . وإذا ما أُحسن تنظيم هذه القوة العددية ، وأمكن تعبئتها تعبئة ملائمة فإنها تشكل ضمانة فعلية لمستقبل أوضاع المسلمين فى كافة الشئون العالمية .

ثالثاً – ما يشغل المسلمون من مركز هام فى دنيا السياسة أيضاً :

هناك حوالى ست وثلاثين دولة إسلامية (٢) من أصل المائة والثلاث عشرة دولة التى تشكل منظمة الأمم المتحدة ، فإذا ما اتخذت هذه الدول مظهراً مشتركاً ، ووحَّدت صفوفها أمكنها أن تثبت وجودها كقوة فعّالة فى الشئون العالَمية .

وإنه لمن المؤسف حقاً أنه بالرغم من هذه النسبة الكبيرة من التمثيل التى يملكها

---

(١) قد أصبحوا الآن نحو ألف مليون .

(٢) الدول الإسلامية أكثر من ذلك الآن بعد أن استقل عدد منها مؤخراً .

المسلمون فى أهم ميدان دولى ، فإنهم لا يزالون فى عِداد الأتباع لا فى عِداد القادة .

رابعاً - إن الوضع الاقتصادى للعالَم الإسلامى غير مدروس دراسة صحيحة من قِبَلنا ، ويجرى غالباً بموجب نظريات سطحية ، وآراء مغلوطة ، يشير بها علينا مَنْ تتعارض مصالحهم مع مصالحنا .

إن العالَم الإسلامى غنى بمصادر الثروة الطبيعية ، ويمكنه أن يزيد فى غناه . إننا ننتج ٦٦٪ من مجموع ما ينتجه العالَم من الزيت الخام ، إن حقول الزيت فى الكويت هى أغنى حقول العالَم . إننا ننتج ٧٠٪ مما ينتجه العالَم من المطاط الطبيعى و ٤٠٪ مما ينتجه العالَم من « الجوت » الطبيعى ، و٥٦٪ من زيت النخيل ، و٦٧٪ من التوابل والبهارات المختلفة ، و ٣٠٪ من الفلفل الأسود ، و ٨٠٪ من القشرة « الفلّين » ، و ٩٠٪ من خشب الكينا . ويوجد فى بعض أقطارنا موارد لا ينضب معينها من الغاز الطبيعى ، كما يوجد لدينا احتياطى ضخم من المعادن كالحديد والنحاس والتنك والبوكسيت - المادتان الأخيرتان موجودتان بكثرة خاصة فى الملايو - والمنجنيز والفوسفات ، ومعدن الكروم والجبس ، والحجر الجيرى وحجر الحرارة ، ومجموعة متنوعة من مواد أخرى مفيدة ، وحتى اليورانيوم الذى أصبح ثميناً للغاية فى هذه الأيام ، نظراً لاستعماله فى إنتاج الطاقة النووية ، فإنه موجود أيضاً فى أقطار إسلامية عديدة من إفريقيا .

وتعتبر البلاد الإسلامية أيضاً من أغنى المناطق فى العالَم فى الزراعة وتربية المواشى والسائمة .

خامساً - العنصر الإنسانى : يجب ألا يُغفل بأن عدداً كبيراً من أقطارنا قد حارب خلال العقدين الأخيرين من الزمن ، من أجل التحرر من الحكم الأجنبى ، وتمكن من أن ينتصر ، وإن بطولات الجزائر الحربية من أجل التحرر ستبقى إلى الأبد فى صفحات التاريخ .

إننا الآن شعوب ناهضة مصممة على نفض غبار الماضى ، واستعادة ما كان لها من أمجاد .

ويلاحظ البعض أن كثيراً من الأقطار الإسلامية لا تزال متخلفة .. ولكن يجب ألا يتجاهل النقاط الحقيقية الصارخة فى أن المستغلين الأجانب - بالإضافة إلى جهلنا - هم المسئولون عن وضعنا الاقتصادى الحاضر » أ هـ [١] .

*

سادساً - التراث الروحى والحضارى :

وهذا عنصر هام لم يتحدث عنه الباحث الباكستانى ، وهو ميراثنا المعنوى العظيم ، ميراثنا الروحى والثقافى والحضارى . ففى هذه المنطقة من شرقنا العربى والإسلامى اتصلت السماء بالأرض ، وتنزلت أعظم كتب الله على أعظم أنبيائه ، وقامت الديانات السماوية الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلام - التى بعث الله بها أولى العزم من الرسل : موسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

وفى هذه المنطقة قامت الحضارات القديمة العظيمة التى حققها التاريخ للمصريين والفينقيين والآشوريين والبابليين والفُرس والهنود وغيرهم .

وسلالات هذه الشعوب القديمة لا تزال قادرة على أن تؤدى دورها الحضارى مهتدية بهَدى القرآن وروح الإسلام .

وكما يُعاب على دعاة « الوطنيات الإقليمية » فى بلاد العرب حصرهم شعوبهم وبلادهم فى « دائرة ضيقة » فى مقابلة « العروبة » الرحبة التى تشمل الأوطان والشعوب العربية جمعاء . يُعاب على دعاة « القومية العربية » حصرهم أنفسهم فى دائرة مغلقة محدودة ، فى مقابلة « الدائرة الإسلامية »

---

(١) من كتاب : « دراسات حول رابطة للبلاد الإسلامية » ص ٣٦ ، ٣٧ - إصدار الأمانة العامة للمركز الإسلامى . كراتشى - باكستان .

المفتوحة الواسعة . فخسروا بذلك ولاء وقوة مئات الملايين بسبب من العصبية الجاهلية .

وإذا كان ردّ « ساطع الحصرى » على دعاة التقوقع المصرى الذين كان شعارهم « مصر أولاً » بتخطئة هذه النعرة الإقليمية الضيقة ، ورفع شعار « العروبة أولاً » [1] فنحن نخطىء « الحصرى » بنفس منطقه ، ونرفع الشعار الطبيعى والتاريخى والمنطقى لهذه الأمة وهو « الإسلام أولاً » .

* *

وهكذا تبيّن أن الذى عابته القيادات الثورية الجديدة على القيادات القديمة وقعت فيه وفيما هو شرّ منه ، فلم تتعلم من التاريخ ، ولم تتعلم من عدوّها الذى يعامل المسلمين جميعاً – على اختلاف شعوبهم – طبقاً لمخطط واحد . ولا يفرّق بين عربى وغير عربى ، لأن روح الحروب الصليبية ما زالت تسكن بين جنبيه .

والذى وقعت فيه الزعامات العربية وقعت فيه أيضاً دعاة القومية والعلمانية فى بلاد المسلمين الأخرى ، وبخاصة تركيا التى تجسدت فيها القومية العلمانية اللادينية بأجلى صورها ، فعزلت نفسها عن العرب عزلاً كاملاً لعدة عقود من السنين .

وكان من جرّاء ذلك أن خاض العرب أخطر أدوار كفاحهم مع اليهودية العالمية المتمثلة فى إسرائيل ، ومع الصليبية الغربية المتمثلة فى مساندى إسرائيل ، دون أن يستفيدوا استفادة تذكر من الطاقة الإسلامية الضخمة من المحيط إلى المحيط ، أو من أندونيسيا إلى الدار البيضاء .

ولو راجع هؤلاء التاريخ الذى يعرفونه ولا يجهلونه ، لوجدوا أن الرجل الذى أنقذ بيت المقدس من الصليبيين بعد أن بقى فى أيديهم ٩٠ عاماً ، لم يكن

---

(١) ألف ساطع الحصرى – الذى كان القوميون يلقبونه بـ « فيلسوف القومية العربية » – كتاباً بالعنوان المذكور : « العروبة أولاً » .

عربى الدم والعنصر ، وإنما كان كردياً ، عربّه الإسلام ، وذلك هو صلاح الدين ، الذى تمم جهاد بطلين إسلاميين قبله لم يكونا من جنس العرب أيضاً هما : الشهيد نور الدين محمود ، وأبوه عماد الدين زنكى .

إن اليهودية العالمية التى خططت لأحلامها منذ زمن بعيد ، تعلم مقدار ما تملك الأمة الإسلامية لو تجمعت قواها ، واتحدت شعوبها ، واستفادت من تكامل اقتصادها ، فضربت ضربتها فى تدمير الخلافة الإسلامية التى كانت آخر مظهر لوحدة الأمة الإسلامية - على ما كان بها من نقائص وعيوب - ليعيش المسلمون بعدها أوزاعاً ، ويسهل بعد ذلك ضرب كل شعب على حدة بمعزل من الآخرين .

لقد أدركت قيادة ثورة ١٩٥٢ شيئاً عن قوة الوحدة الإسلامية ، أو على الأقل - التضامن الإسلامى ، فيما كتبته فى « فلسفة الثورة » عام ١٩٥٣ عن أهمية « الدائرة الإسلامية » . بعد « الدائرة العربية » والذى حدا بها إلى إنشاء « المؤتمر الإسلامى » ثم تنوسى ذلك كله ، بل أهمل ، وبل حورب ، وأصبح المؤتمر الإسلامى مجرد مبنى ولافتة ، وذلك حين غلبت التيارات الوافدة على الأحاسيس الطبيعية الأصيلة التى ظهرت بوادرها أولاً فى « فلسفة الثورة » . وأصبح كل نصيب الأمة الإسلامية من « الميثاق » كلمة عابرة فى ختام « الباب العاشر » الذى يتحدث عن « السياسة الخارجية » حيث يقول : « وإن كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوى إفريقى ، ويؤمن بتجمع من أجل السلام ، يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة » ..

هذا هو نصيب الأمة الإسلامية من الميثاق وواضعه : مجرد رباط روحى ! - على سبيل البركة ! - لم يبلغ مبلغ الجامعة الإفريقية ، ولا التضامن الآسيوى

الإفريقى ! أى أن باكستان ليست فى منزلة أثيوبيا ، وأندونيسيا ليست فى مرتبة روديسيا !!

* *

● حقيقة الاستقلال ومضمونه :

والأمر الثالث الذى عابه « الميثاق » الوطنى المصرى على الزعماء الليبراليين فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ ، هو عدم إدراكهم لحقيقة الحرية ، وحقيقة الاستقلال ، وانخداعهم بما أعطاهم الاستعمار من أشكال للاستقلال لا مضمون لها .

يقول الميثاق : « إن الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية تحت حراب الاحتلال » .

ونقول : « إن زعماء الاشتراكية الثورية هنا ليسوا أحسن حالاً من زعماء الليبرالية الديمقراطية ، وما كان الفريقان إلا كحمارى العبادى الذى قيل له : أى حماريك شر ؟ فقال : هذا ثم هذا !

فقد فشل كلاهما فى تحقيق استقلال ذاتى حقيقى للأمة ، يردّها إلى حضارتها الأصيلة المتوازنة ، ويعيد إليها شخصيتها المستقلة المتميزة ، ويجعلها رأساً فى الحياة ، لا ذيلاً لشرق أو غرب .

فرغم جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد ، وإعلان الاستقلال ، والاحتفال به كل عام ، وانتقال السُلطة من أيدى الأجانب إلى أيدى الوطنيين ، لم يتحقق من الاستقلال إلا اسمه ومظهره ، لا لبه وروحه .

ما زالت بلادنا عالة على غيرها فى التسلح ، وفى الصناعة والتكنولوچيا . كل ما صنعناه أننا نستورد منتجات الحضارة ، ولكن لا نصنعها ، واستيراد المنتجات الحضارية لا يصنع حضارة كما قال الأستاذ مالك بن نبى .

وأدهى من ذلك أننا لم نزل تابعين للغرب فى اتجاهاته ومذاهبه وأنظمته ،

فيما هو أهم من الصناعة والتكنولوچيا : فى السياسة ، وفى الفكر . فنحن نتخذ الغرب قِبْلة لنا فى نظم حكمنا واقتصادنا ، وفى مناهج فكرنا وثقافتنا ، سواء أكان هذا الغرب رأسمالياً أم شيوعياً ، فكلاهما غرب .

فأين الاستقلال - إذن - إذا لم يكن فى مجال الصناعة والعلم ، ولا فى مجال السياسة والحكم ، ولا فى مجال الفكر ؟

وشرّ من هذه التبيعة هو قابليتها ، والرضا بها ، أو على الأقل السكوت عليها ، كأنها قدر محتوم .

إن أقرب النتائج لهذه التبعية الفكرية هى الفراغ الروحى ، والاضطراب العقائدى ، والقلق النفسى ، والحيرة العقلية التى تعانيها الأجيال الناشئة فى بلاد المسلمين . فالشباب فى هذه البلاد يعانى أزمة فكرية ونفسية عاتية ، نتيجة لما يلمسه من التناقض بين ضميره وواقعه ، بين عقيدته الموروثة وأوضاع مجتمعه السائدة .

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى : « إن المجتمعات الإسلامية لم تزل موزعة على نظامى الحكم - يعنى الليبرالى ، والاشتراكى - على أساس من الفكر الغربى وحده . وبذلك لم تتخل عن التعبية للأجنبى ، رغم وثائق الاستقلال ، وممارسة بعض مظاهره ، من الانتقال من نوع إلى آخر فى نظام حكمه وأيديولوچيته .

وليس من هذه المجتمعات - حتى الآن - ما راجع الإسلام فى صلاحيته لسياسة المجتمع ، وضبط سلوك الأفراد فيه ، مراجعة جدية بناءة ، حتى ذلك المجتمع فى آسيا الذى أعلن منذ ربع قرن تقريباً - بعد جهاد مرير طال أمده - قيامه على أساس من الفكر الإسلامى وحده » !

يعنى مجتمع باكستان التى نودى بقيامها على أساس الإسلام .

إلى أن يقول الدكتور : « لا بديل عن الإسلام فى الحفاظ على استقلال هذه

المجتمعات . وأى بديل الآن يظن أنه كاف فى سياسة الحكم والتوجيه فيها ، هو - على سبيل القطع والتأكيد - بداية لتبعية تنتهى حتماً إلى ذوبان لشخصيات هذه المجتمعات ، وإلى ضياع مقوماتها ..

إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة مهددة بخطر الضياع فى استقلالها ، وفى إيمانها ، وفى اقتصادها .

وإن الشباب المسلم هو فى حيرة الآن ، ومهدد بالانتقال من هذه الحيرة إلى تبعية فكرية وسياسية ، لا خلاص له منها ، والمسئولون عن هذه المجتمعات يعيشون فى تصورات هى أقرب إلى الأحلام ، التى يبعثها « اللاشعور » فى الإنسان ! اللّهم إليك الأمر وحدك » [1] .

* *

● محاولة واهمة لوضع نظرية شاملة للثورية العربية :

وقد حاول بعض الكتّاب من أساتذة العلوم السياسية فى مصر أن يصنع فى الستينات فلسفة أو نظرية ترتكز عليها الحركة الثورية الاشتراكية المصرية .

وانتهى الدكتور محمد طه بدوى إلى شيء سماه « الحتمية العلمية » كما فى كتابه « فلسفتنا السياسية الثورية » الذى خصص فيه باباً « لسند الثورة فى فلسفة السياسة ، لما لوجهة النظر الفلسفية فى هذا السند من أثر عميق فى تشكيل المقوّمات الأيديولوچية لمجتمع ما بعد الثورة » .

وفى الباب الثانى خاض دراسة تحليلية ، تستهدف - كما قال - « نظماً شاملاً لنظرية كاملة ، ضابطة لحياتنا السياسية » .

---

(١) عن مقال « الشباب المسلم » للدكتور محمد البهى بمجلة « الوعى الإسلامى » السنة السابعة - العدد ٧٧ - جمادى الأولى سنة ١٣٩١ هـ (يونية سنة ١٩٧١ م) .

وفى « تمهيده » للباب الأول قال : « إن فكرة الفلسفة الغربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عن « العقد السياسى » بوصفها السند العقلى لثورة الطليعة النابهة للطبقة الثالثة « البرجوازية النامية » على الاستبداد السياسى والامتيازات الطبقية حينذاك . كانت تعمل فى إطار فلسفة سياسية كاملة ، تؤيد تطلعات تلك الطليعة التى طال ازدراؤها - رغم ثرائها المطرد بسبب انفرادها بالاشتغال بالتجارة - وذلك من جانب « طبقة النبلاء » الممتازة .

« فلقد ارتبطت فكرة العقد السياسى - كسند عقلى للثورة - بفكرة « اجتماع سياسى » يقوم على هوى تلك الطليعة البرجوازية ، على أساس أن السيادة فيه للأمة ، أى لا لطبقة « النبلاء » القديمة أو « للملك » . وهو اجتماع يقوم من أجل صيانة الحقوق الطبيعية الخالدة : الملِكية والحرية ، فى ظل المساواة أمام القانون ، بوصفه أداة التعبير عن « الإرادة العامة .. » فكان أن تشكلت - تبعاً لذلك - أيديولوچية المجتمع الثورى البرجوازى الغربى ، التى أرست أصولها الثورة الفرنسية الكبرى لسنة ١٧٨٩ ، وهى أيديولوچية قوامها : تقديس الملِكية الفردية ، بوصفها دعامة الحريات الفردية جميعاً .. ومساواة أمام القانون ..

« وكذلك الحال بالنسبة لأيديولوچية المجتمعات الماركسية فلقد تأثرت فى تكوينها الراهن بفكرة « الحتمية التاريخية » لثورة البروليتاريا ، بوصفها جزءاً من فلسفة ماركس الشاملة عن « المادية التاريخية » و « الصراع الطبقى » ..

« وهكذا بالنسبة لفلسفتنا الثورية [١] . فسندنا العقلى لثورة ٢٣ يوليو ، مرتبط تماماً بظروفنا الاجتماعية الخاصة بنا وبتجاربنا الوطنية . ومن هذه الظروف والتجارب نبع فكرنا المذهبى الثورى ، ثم راح يتبلور حتى قدّم للميثاق

---

(١) انظر ص ١٣ - ١٤ من كتاب « فلسفتنا السياسية الثورية » : فكرنا المذهبى والأيديولوچيات العالمية . وانظر ص ٤٨ - ٥٣ منه أيضاً .

الوطنى - بوصفه الأداة المصوِّرة لأيديولوچية مجتمعنا الثورى العربى الجديد - نظريتنا السياسية الشاملة .

« إن سندنا العقلى للثورة العربية الشاملة ينحصر فى حتميتها ، باعتبار أنها الطريق الوحيد إلى تحقيق أهداف النضال العربى ، إنه سند عقلى ، لأنه يتمثل فى حكم عقلى ينبع من التجربة . وسندنا العقلى هذا يشكل جزءاً من فلسفة عامة لثورتنا . إنه يشكل جزءاً من تلك « الفلسفة الوضعية » التى تقوم على التجربة لنخلص منها إلى الحلول العلمية الضابطة لمجتمع ما بعد الثورة ، وهى حلول « حتمية » .

« إنها حتمية الثورة » استناداً إلى التجربة .. وهى « حتمية الحل الاشتراكى » استناداً إلى التجربة كذلك .

« ومن ثَمّ فإن سندنا العقلى لثورتنا العربية الكبرى يتمثل فى « الحتمية العلمية للثورة » .

ويقسِّم الدكتور « الديمقراطية السياسية » فى العالَم إلى أنواع ثلاثة :

١ - الديمقراطية السياسة فى مفهومها الغربى ، وهى تعنى ديمقراطية « التصادم السياسى » تبعاً لطبيعة التناقض الاجتماعى هناك .

٢ - الديمقراطية الماركسية ، وهى تعنى ديمقراطية « الاجتماع السياسى » تبعاً لصورة المجتمع اللاطبقى .

٣ - أما ديمقراطية الثورة المصرية - كما سجّلها الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكى - فيسميها « ديمقراطية التحالُف السياسى » تبعاً لتحالف القُوَى الاجتماعية ، بديلاً للتصادم الطبقى المؤدى إلى التصادم السياسى .

هذا ما قاله الأستاذ الدكتور بدوى فى محاولة جاهدة لـ « تنظير » سياسة الثورية الاشتراكية المصرية .

وليسمح لنا السيد الدكتور أن نقول له :

إنها محاولة متعسفة ، تريد أن تجعل من هذا الخليط من الأفكار - التى أبرز سماتها الاستيراد والتلفيق - فلسفة مستقلة ، وأيديولوچية وطنية متكاملة .

ويذكرنى هذا بما تفعله بعض مصانع السيارات العربية التى تستورد أجزاء السيارة من أوروبا ، ثم تقوم بتركيبها محلياً ، وتطبع عليها « ماركة وطنية » ، ثم تصدِّق نفسها أنها صنعت سيارة ! كما تطلب من الناس أن يصدّقوها فى هذه الدعوى !..

ومعلوم للدكتور بدوى ولمن هو دونه من الدارسين ، أن « الاشتراكية الثورية » ليست بضاعة مصرية ولا عربية ولا إسلامية ، وإنما هى بضاعة أجنبية لها صُنّاعها ومُطوِّروها ، وبعبارة أخرى : لها فلاسفتها ونظرياتها ومصدر إلهامها .

وإطلاق اسم « الحتمية العلمية » على هذا الاتجاه المستورَد لا يعطيه صفة « الأصالة » ولا يخرجه عن « التبعية » للأيديولوچيات العالمية ، التى يدّعى كل منها التحلى برداء « العلمية » الزاهى ، سواء فى ذلك الليبرالية الديمقراطية التى اتخذت « العقلانية » و « العلمانية » طابعاً لها فى مقابلة الاتجاه الدينى والمثالى ، والاشتراكية الماركسية التى سمت مذهبها « الاشتراكية العلمية » .

وما أطلق عليه الدكتور اسم « ديمقراطية التحالف السياسى » لا يخرج فى جوهره عن ديمقراطية « الإجماع السياسى » عند الماركسيين ، وتجربة « التنظيم الواحد » - الاتحاد الاشتراكى - لا تختلف فى نتيجتها عن تجربة « الحزب الطليعى » الواحد ، كما نبهنا على ذلك من قبل .

ولعل مما يؤكد هذا ما اشتهرت به نتائج الاستفتاءات العامة فى بلادنا ، وما أصبح مثلاً مضروباً فى الناس ، وهو « الإجماع » بنسبة ٩٩٫٨٩٪ !

إن العيب الرئيسى فى هذا التحليل هو محاولة « تبرير » الواقع ، وتكلف

سند عقلى له ، والاستماتة فى إعطائه صفة « أيديولوچية » مستقلة عن « الأيديولوچيات » العالمية .

وإن « العلم » ليهبط بقيمته الذاتية حين يرضى لنفسه أن يكون أداة فى خدمة سياسة معيَّنة . إن الواجب أن تتبع السياسة العلم ، لا أن يتبع العلم السياسة . ومثل العلم فى ذلك « الدين » .

والحق إننا لا نعرف فى عالم اليوم إلا أيديولوچيات ثلاثاً :

(أ) الأيديولوچية الليبرالية الفردية ، التى يمثلها الغرب أو ما يسمى « العالم الحر » على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها .

(ب) والأيديولوچية الاشتراكية الجَماعية ، التى يمثلها الماركسيون على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها كذلك .

(جـ) والأيديولوچية الإنسانية المتوازنة ، وهى التى يدعو إليها الإسلام . فهذه الأيديولوچية ليست فردية ، ولا جَماعية ، ولا شرقية ، ولا غربية ، ولكنها إسلامية قرآنية وكفى .

وما عدا هذه الأيديولوچيات الرئيسية المتمايزة ، فهو تلفيق من هنا وهناك وهنالك .

بقيت كلمة ، أود أن أقولها هنا تعقيباً على تحليل الدكتور بدوى ..

لنفرض أن الاشتراكية الثورية العربية تخضع فعلاً لمنطق التجربة ، وحتمية العلم كما قال . إذن يكون الواجب عليها الآن أن تغيِّر اتجاهها فوراً ، بعد أن أثبتت « التجارب المرة » فشل الاتجاه الثورى الاشتراكى فى كل بلادنا العربية ، وفى كل الحقول المادية والمعنوية كما أثبتنا ذلك من قبل مؤيداً بالوثائق والأدلة . وكما أكدت ذلك من بعد ، حرب العاشر من رمضان .

وليس فشل الثورية العربية فى تحقيق أهدافها ذاتها ، وأهداف الأمة فى تلك المرحلة من تاريخها ، شيئاً طارئاً ، نتيجة لضغوط خارجية قاهرة ، أو لظروف

محلية أو شخصية عارضة ، يمكن أن تزول ، بل الفشل كامن فى طبيعة الاشتراكية الثورية ، كما بيّناه فى جزء « الحلول المستوردة » .

* *

● ضرورة التغيير والبحث عن بديل :

إن منطق العلم هنا يؤكد ضرورة التغيير ، ويوجب البحث عن بديل ، تُرى ماذا يكون البديل ؟

إن الحل البديل المطلوب لا يُتصور إلا أن يكون أحد حلين اثنين : الحل الشيوعى الأحمر الصريح ، أو الحل الإسلامى المتكامل الصحيح .

* أمتنا ترفض الحل الشيوعى شكلاً وموضوعاً :

أما الحل الشيوعى فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً ، أصولاً وفروعاً . ولكن لماذا نرفض الشيوعية ؟

أما إجمالاً فلأننا مسلمون ، والشيوعية تكفر بالإسلام ، وكتابه ، ونبيه ، بل تكفر بالأديان جميعاً .

وأما تفصيلاً ، فلأن الشيوعية – أولاً – ضد عقيدتنا ، لأنها مذهب مادى ، ينكر كل ما وراء الحس وما بعد الطبيعة ، فلا يؤمن بإله ولا ملائكة ولا وحى ولا رسالة ، ولا جنة ولا نار ، ونحن قوم نعتبر الإيمان أساس وجودنا ، ومحور حياتنا .

ولأنها – ثانياً – ضد شريعتنا ، فهى تنكر التّملُّك الفردى بأى طريق كان ، كما تنكر كل ما يترتب عليه من حقوق وأنظمة ، كنظام الزكاة والنفقات ونظام المواريث وغيرها . كما تنكر نظام الإسلام فى الزواج والطلاق والأحوال الشخصية ، ونظامه فى المبادلات والمعاملات المدنية ، ونظامه فى الجزاء والعقوبات الجنائية ، ونظامه فى الإدارة والسياسة الشرعية .. إلخ . ونحن لا ندع شرع الله لنظام بَشرى كائناً ما كان .

ولأنها – ثالثاً – ضد قيَمنا الأخلاقية والاجتماعية ، فهى لا تؤمن بقِيَم ثابتة ، فكل شىء فى فلسفتها قابل للتغير ، بل واجب التغير ، فما كان فضيلة بالأمس قد يكون رذيلة اليوم ، وما كان حراماً اليوم ، قد يكون حلالاً زلالاً غداً ، أو بعد غد ! ونحن نؤمن بثبات القِيَم وأصول الفضائل والرذائل ، فما أحلّ الله فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّمه فهو حرام إلى يوم القيامة .

ولأنها – رابعاً – ضد طبيعتنا ، فنحن أمة وَسَط ، أمة العدل والحب ، وهى مذهب متطرف ، يجنح إلى الغلو فى كل شىء . نحن نؤمن بالإخاء ، وهى تؤمن بحتمية الصراع الطبقى . نحن ندعو إلى الرفق وهى تدعو إلى العنف والدم . شعارنا : « كونوا عباد الله إخواناً » وشعارها : « يا عمال العالَم اتحدوا » أى ضد الطبقات الأخرى ، وما أعظم الفرق بين الشعارين !

ولأنها – خامساً – ضد كرامتنا وحريتنا ، وبعبارة أخرى : ضد إنسانيتنا . فما قيمة الإنسان إذا فقد الكرامة والحرية والشعور بالذاتية ؟ وأنّى له ذلك فى ظل فلسفة تلغى قيمة الفرد ، وتقتل حوافزه ، فإنما القيمة كلها للمجتمع ، أى للدولة ، أو للحزب الحاكم ، أو للجنة العيا للحزب ، أو للديكتاتور !

ولأنها – سادساً – ضد سيادتنا القومية ، لأنها استعمار جديد ، بل هى أعلى مراتب الاستعمار . فالاستعمار التقليدى يمكن التخلص منه بالكفاح والمقاومة ، كما حدث لشعوب وبلاد شتّى . أما الاستعمار الشيوعى ، فلم نره دخل بلداً واستطاع أهلها التحرر منه . وعند المجر وتشيكوسلوفاكيا والجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى – الخبر اليقين ! ونحن نمقت ونحارب الاستعمار كله : أحمره وأسوده . غربيه وشرقيه ، قديمه وجديده .

ولأنها – سابعاً – بنت اليهودية العالمية ، هى التى صنعتها ، وهى التى روّجتها ، فمؤسسو الشيوعية من اليهود : « ماركس » من أسرة يهودية ، و« لينين » يهودى ، و« تروتسكى » يهودى .. وغيره وغيره . وعدد كبير من زعماء الشيوعية فى العالم يهود ، حتى فى العالم العربى ، نجد مؤسسى الأحزاب الشيوعية فيه يهوداً معروفين .

ولأنها - ثامناً - ضد وحدتنا العربية والإسلامية ، فالشيوعية لا تقبل وحدة عربية ، فضلاً عن وحدة إسلامية ، لأنها تعمل وتنشط فى الأجزاء المبعثرة ، ما لا تعمل فى الكتل المتحدة . ولهذا وقفت ضد الوحدة الثنائية بين مصر وسوريا ، فكيف بوحدة عربية جامعة ، وكيف بوحدة إسلامية شاملة ؟

إن الشيوعية لا تحيا ولا تنمو إلا على الصراع والانقسام . فهى تقسِّم البلد الواحد إلى طبقات تتعادى وتتصارع ، وتقسِّم أيضاً الأمة الواحدة إلى شعوب وبلاد تتخاصم وتتنازع ، ما بين يمين ويسار ، ويمين اليمين ، ويسار اليسار !

ولأنها - تاسعاً - ضد استقلالنا الذاتى ، فهى تفرض علينا التبعية الفكرية والسياسية ، وتوجب علينا أن ندور فى فلك غيرنا ، وأن نستمد التوجيه من سوانا ، ونحن قوم اختارهم اللّه ليكونوا ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [1] .. وأساتذة للبَشرية ، فلا نرضى لأنفسنا بمقام التلمذة ، وجعلنا رؤوساً ، فلا نقبل أن نعيش أذيالاً . إننا لا نرضى أن يعلو كتاب على القرآن ، ولا زعيم على محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا مذهب أو فلسفة على رسالة الإسلام ، بعد أن أكمل اللّه لنا ديننا وأتم به نعمته علينا : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [2] ..

*

* الحل الإسلامى هو البديل :

الحل الشيوعى الأحمر - إذن - مرفوض من أساسه ، فلم يبق إلا الحل الآخر ، فهو الحل البديل ، وهو الحل الحتمى ، وهو الحل الوحيد ، ذلكم هو الحل الإسلامى .

تُرى ماذا يعنى الحل الإسلامى ؟ وما معالمه وملامحه ، وما خطوطه العريضة ؟ هذا ما يجيب عنه الفصل التالى ..

* * *

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) المائدة : ٣

مَعَالم الحل الإسلامي

● ماهية الحل الإسلامى :

عندما ننادى بالحل الإسلامى علاجاً لمشكلاتنا المعاصرة ، يتبادر إلى كثير من الأذهان صورة قاصرة تتمثل فى القوانين والتشريعات الإسلامية لا غير ..

فالحل الإسلامى - فى نظر الكثيرين - يتمثل فى قطع يد السارق ، وَجلْد الزانى أو رجمه ، وَجلْد السكيرين ، والقصاص من القتلة ، وتطبيق أحكام الشريعة فى إقامة الحدود فقط . أو فى سائر شئون المعاملات أيضاً .

ولا ريب أن هذه الأحكام أو القوانين جزء أصيل من الحل الإسلامى لا بد منه ، ولا غنَى عنه يكفر مَن جحده ، ويفسق مَن أهمله ، ولكنها - مع ذلك - ليست كل الحل الإسلامى ، فهذا التصور للحل الإسلامى جزئى وناقص وقاصر .

إن معنى « الحل الإسلامى » أن يكون الإسلام هو الموجِّه والقائد للمجتمع فى كل الميادين وكل المجالات مادية ومعنوية .

معنى « الحل الإسلامى » أن تتجه الحياة كلها وجهة إسلامية ، وأن تصبغ بالصبغة الإسلامية .

معنى « الحل الإسلامى » أن تكون عقيدة المجتمع إسلامية ، وشعاراته إسلامية ، ومفاهيمه وأفكاره إسلامية ، ومشاعره ونزعاته إسلامية ، وأخلاقه وتربيته إسلامية ، وتقاليده وآدابه إسلامية ، وأخيراً أن تكون قوانينه وتشريعاته إسلامية .

وبعبارة أخرى : الحل الإسلامى هو الذى يبرز به « المجتمع المسلم » إلى حيز الوجود بكل مقوماته ودعائمه وبكل خصائصه ومميزاته ، دون إهدار لشىء منها .. وهذا يحتاج إلى كتاب قائم بذاته . ولكن حسبنا هنا أن نضع - بإيجاز شديد - خطوطاً عريضة ومعالم بارزة للحل الإسلامى المنشود ، كما نتصوره فى ضوء

تعاليم الإسلام ، وأن نركز خاصة على العناصر الإسلامية التى يفتقدها مجتمعنا القائم فى كافة نواحى الحياة

* *

● فى الناحية الروحية والأخلاقية :

الإنسان ليس مجرد جسد يأكل ويشرب ويتمتع كما تأكل الأنعام . فالجسد ليس إلا غلافاً من الطين لكائن علوى ، يشير إليه قوله تعالى فى خلق آدم : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [1] .. وهذا الروح العلوى هو الشىء الذى ميز الإنسان وجعله أهلاً للتكريم وخلافة الله فى الأرض .

والحل الإسلامى هو الذى يدرك هذه الفطرة الإنسانية ، ويقدِّرها حق قدرها ، ويهيىء لها الغذاءَ الملائم ، والمناخ الصالح ، حتى تنمو وتزدهر وتثمر بإذن ربها .

ولا يكون ذلك إلا بالعلم النافع ، والإيمان الصادق ، والعبادة الخالصة ، والخُلُق القويم ، فهذه هى أغذية الروح ، وهى مميزات الإنسان .

ومن المعالم البارزة لهذا الاتجاه :

١ - إحياء المعانى الربانية من الإيمان بالله - وتوحيده وأسمائه الحسنى - تبارك وتعالى - الإيمان برسالاته ، وبالجزاء الأخروى ، باعتبارها أهداف الحياة العليا ، وغايات الوجود الإنسانى ، والعمل على دعمها وتثبيتها وحمايتها ، بكل الوسائل والأساليب ، عقلية وعاطفية ، وخاصة وعامة ، ونظرية وعملية ، ومحاربة نزعات الإلحاد والشك والشرك بكل صوره وألوانه ، القديمة والجديدة ، حتى لا يُعبد فى الأرض إلا الله . والعودة بالعقيدة إلى المنابع الصافية من كتاب الله وسُنَّة رسوله ، بعيداً عن غلو الغالين وانتحال المبطلين ، وتحريف المحرِّفين .

٢ - تربية الأمة على معانى التقوى لله والإخلاص له ، والثقة به ، والتوكل عليه ، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كل أعمال الإنسان ، واطلاعه

---

(١) الحجر : ٢٩ ، وسورة ق : ٧٢

على سره ونجواه ، وتغذية الشعور بالمسئولية أمامه يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، ولا ينفع المرء إلا ما قدّمت يداه ، واستحضار فكرة الخلود فى الدار الآخرة ، وأهوال النشور والموقف ، والحساب والميزان ، والجنة والنار .

وبهذه التربية الروحية تتكوّن « القلوب الحية » أو « الضمائر اليقظة » التى هى أعظم رادع عن الشر ، وأكبر حافز على الخير ، وأقوى مَدَد لمكارم الأخلاق .

٣ - تثبيت القيَم الأخلاقية الأصيلة التى توارثتها الأمة جيلاً عن جيل ، مهتدية بكتاب ربها وسُنّة نبيها ، الذى بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ، وإزالة ما تراكم عليها من رواسب عصور التخلف ، وما دخل عليها من تقليد الأمم الأخرى قديماً وحديثاً ، فالسخاء والإيثار والعفاف والإحصان والحياء والغيرة ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد ، والتعاون على البر والتقوى ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام . والإحسان إلى الجار ، وإكرام الضيف ، وإغاثة الملهوف ، والصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، والعدل فى الحكم ، والشهادة بالحق ، ورحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وخفض الجناح ، وعزة النفس ، والقصد والاعتدال فى كل شىء ، إلى غير ذلك من فضائلنا الأصيلة - يجب أن تسود وتبقى وتعمق جذورها ، وتمتد فروعها ، كما يجب تطهير المجتمع من الرذائل الدخيلة التى وفدت علينا مع الاستعمار الغربى ، والرذائل التى ورثناها من عهود الانحطاط على سواء ، من المادية والأنانية واتباع الشهوات ، والميوعة والتحلل ، وتشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال ، والاستغراق فى متع الحياة الدنيا ، ومن الثرثرة الفارغة والفخر الكاذب ، والجعجعة بغير طحن ، والاستبداد والنفاق والملق الرخيص ، وغير ذلك من أخلاق الضعف ، والسياسة والانحلال .

٤ - الاعتزاز برسالة الإسلام ، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة ، أودع الله فيه الكمال والشمول والتوازن والوضوح والعمق . وغرس هذا الاعتزاز فى ضمائر الجميع صغاراً وكباراً ، بحيث لا يزاحمه نظام أو مذهب آخر للحياة .

ولا يزاحمه كذلك وطن أو قومية أو نعرة من النعرات ، فدين المسلم أغلى ما يعتز به ويحرص عليه ، وفى سبيله يضحى بكل ما يغالى به الناس من وطن وأهل ، ونفس ونفيس . ورضى اللّه عن المسلم الأول الذى قال :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

٥ - المحافظة على شعائر الإسلام ، وبخاصة عباداته الكبرى ، التى جعلها الرسول ﷺ الأركان العملية التى بُنِىَ عليها هذا الدين ، من الصلاة والزكاة والصيام وحج بيت اللّه الحرام ، وتربية جميع المواطنين فى المجتمع على احترامها وتوقيرها ، وتربية المسلمين خاصة على حبها والحرص على أدائها بإخلاص وأمانة وإتقان ، وفاءً بحق اللّه الذى خلقنا من عدم ، وأمدّنا بكافة النِعَم ، وتيسير كل السُبل المادية والمعنوية لإقامتها ، والإعانة عليها ، وتشجيع كل قائم بها على وجهها ، وتأديب كل مقصِّر فى أدائها ، مفرِّط فى حقوقها .

فإن هذه العبادات والشعائر - مع أنها غاية فى نفسها - تُعَد من أعظم الوسائل التربوية لتكوين الأنفس المؤمنة ، والأخلاق الفاضلة .

ولهذا تجب العناية بإقامة الصلوات واتخاذ المساجد والمصليات فى الدواوين والمصالح والإدارات الحكومية ، والمؤسسات والشركات الكبيرة ، وكل مجمع للناس ، كالموانىء والمطارات ومحطات السكك الحديدية ، ومواقف السيارات العامة ونحوها . كما يجب تعظيم حُرْمة شهر الصيام ، وتعديل مواعيد العمل الرسمى بحيث تلائم ظروف الصائمين وتمكنهم من الإفطار والسحور فى الوقت المناسب .

ومثل ذلك تيسير الحج إلى بيت اللّه الحرام ، وإزاحة العوائق عن طريقه ، وعقد حلقات لتوعية الحجاج ، حتى يؤدوا فريضتهم على الوجه الأكمل ، ويعودوا من رحلتهم أطهر قلوباً ، وأنظف سلوكاً ، وأعمق إيماناً .

٦ - إحياء رسالة المسجد ، حتى يعود إلى سالف عهده ، مركز هداية وإشعاع وإصلاح ، جامعاً للعبادة ، ومدرسة للثقافة ، ومعهداً للتربية ، وندوة

للتعارف ، وبرلماناً للتشاور [١] ، وأن يُفسح فيه المجال للمرأة المسلمة ، فلا تُحرم من حق العبادة الجَماعية ، واستماع الكلمة الهادية ، والموعظة النافعة ، والالتقاء بأخواتها المؤمنات فى أطهر مكان ، لأشرف غاية ، وأبر عمل . وفى الحديث : « لا تمنعوا إماء اللّه مساجد اللّه » [٢] .

٧ - اختيار أفضل العلماء وأقدرهم للوعظ والخطابة والتدريس فى المساجد ، وبخاصة الكبيرة منها ، وإعطاؤهم الحرية المطلقة للتعبير عن حقائق الإسلام ، والتصدى لأباطيل خصومه ، ومكايد أعدائه . وتنزيه المنبر أن يتخذ مطية للاستغلال ، أو أداة للدعاية لشخص أو أسرة أو حزب أو نظام ، فالمسجد أرفع وأكرم من أن يُذكر فيه اسم غير اسم اللّه ، وأن تُقال فيه كلمة غير كلمة الإسلام ، وأن يُقدَّس فيه كتاب غير القرآن : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ [٣] ..

٨ - مقاومة البدع والأباطيل التى ألصقت بالدين - على مر القرون - وليست منه ، سواء فى مجال العقائد أم العبادات ، أم التقاليد [٤] ، أم غير ذلك من كل ما يتصل بالفكر أو بالسلوك على وجه عام . والرجوع بالإسلام إلى وضوحه وبساطته وصفاته الذى كان عليه الصحابة ومَن تبعهم بإحسان ، من أهل القرون الأولى ، الذين هم خير قرون هذه الأمة وأجداها سبيلاً .

ومن المعلوم أن البدع التى شبّ عليها الصغير ، وهرم عليها الكبير ، وتوارثها الابن عن الأب ، والحفيد عن الجد ، لا يُستطاع التخلص منها إلا بالرفق

---

(١) انظر فى تفصيل رسالة المسجد فى الإسلام : كتابنا « العبادة فى الإسلام » ص ٢٢٢ - ٢٣٤ نشر مؤسسة الرسالة - بيروت - طبعة رابعة .

(٢) رواه مسلم . (٣) الجن : ١٨

(٤) انظر فى ذلك : « الاعتصام » للشاطبى ، و « الحوادث والبدع والنهى عنها » . و « المدخل » لابن الحاج . و « الإبداع فى مضار الابتداع » للشيخ على محفوظ ، و « ليس من الإسلام » للشيخ محمد الغزالى .

والإناب والتلطف ، واستعمال الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن ، كما أمر الله تعالى .

* *

● فى الناحية التربوية والثقافية :

كرَّم الله الإنسان بالعقل ، والقدرة على التعلم ، وجعل العلم من مرشحات خلافته فى الأرض ، لهذا جاء الإسلام يحض على النظر والتفكير ، ويحذر من التقليد والجمود ، حتى جعل التفكر والتعلم فريضتين إسلاميتين ، وأشاد بالعلم وأهله حتى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، وجعل طريق العلم طريقاً إلى الجنة ، وجعل من فروض الكفاية على الأمة أن يتخصص عدد كاف من أبنائها فى كل علم نافع تحتاج إليه فى دنياها أو دينها . ومن هذا المنطلق يجب أن يقوم البناء التربوى والثقافى على الأسس التالية :

أولاً : أن يكون التعليم لجميع الأطفال ذكوراً وإناثاً - فى سن التعليم - إلزامياً ، وأن تزال كل المعوقات من طريقه ، وتهيأ كل الوسائل لتيسيره ، فإن القيام بأعباء الدين والحياة فى هذا العصر لا يتم إلا بحظ معقول من التعلم ، ولو كان هو الحد الأدنى ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهذا هو اللائق بأمة طلب العلم فيها فريضة ، وأول آية نزلت فى كتابها : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (١) ..

ثانياً : وضع خطة مدروسة لمحو الأمية المنتشرة ، اقتداءً بالنبى ﷺ الذى بدأ منذ السنة الثانية من الهجرة فى معركة بدر بمحو الأُميَّة ، ويعمل على نشر الكتابة .

ثالثاً : تنويع التعليم بحيث يشمل كافة المجالات النظرية والعملية ، الدينية والدنيوية ، الأدبية و « التكنولوچية » ، وبحيث يفسح المجال للنبوغ والعبقرية

---

(١) العلق : ١

أن تبلغ أعلى مستويات الدراسة والتخصص ، دون عائق مادى أو معنوى . وقد أشار القرآن إلى وجوب التخصص حين قال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً [1] ، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [2] .. كما أمر القرآن بالازدياد من العلم بقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [3] ..

رابعاً : أن يكون الإسلام مادة دراسية أساسية فى جميع المراحل ، من المرحلة الأولى إلى الجامعة ، فى جميع أنواع التعليم : العام والفنى ، المدنى والعسكرى . على أن يكون أساس هذه المادة : القرآن والسُنَّة ، وأن يُرجع فى فهمها إلى هَدْى السَلَف المتقدمين . لا إلى تعقيدات المتأخرين ، وأن تُوَجه العناية فيها إلى المبادىء والأصول قبل التفريعات والتفصيلات ، وأن تُعطى كل مرحلة تعليمية من هذه الدراسة ما يلا[illegible]
يُراعَى ما يلى :

(أ) تُعرض العقيدة - فى ضوء القرآن والسُنَّة الصحيحة - بيُسر وبساطة بعيداً عن تقعرات المتكلمين .

(ب) يُعرض الفقه كذلك بعيداً عن اختلافات المذاهب ، مع بيان الدليل وحكمة التشريع ، وربطه بالحياة .

(جـ) تُعرض الأخلاق كذلك بعيداً عن غلو المتصوفة وتعقيد الفلاسفة .

(د) يُعنى بالسيرة النبوية الثابتة وسير الصحابة ورجالات الأمة الإسلامية من القادة والعلماء والصالحين .

(هـ) يجب أن تعنى كليات التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ونحوها بالتعمق فى دراسة « الاقتصاد الإسلامى » وأن يكون « الفقه الإسلامى » أساس الدراسة فى كليات الحقوق .

---

(١) أى للجهاد .　　(٢) التوبة : ١٢٢　　(٣) طه : ١١٤

خامساً : إعادة النظر فى مناهج التعليم فى كل المراحل ، وفى شتّى المواد ، بحيث تُنقّى من الأفكار اللادينية ، والأفكار التبشيرية ، والمفاهيم الدخيلة على أمة الإسلام بصفة عامة .. وتوجيه عناية خاصة إلى العلوم الإنسانية (التاريخ وعلوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد ونحوها) لما تحتوى عليه من كثير من الأفكار المناوئة للإسلام .. حتى مناهج العلوم الكونية لا تخلو نفسها من سموم فكرية ، ولا بد أن تُصبغ هذه المناهج كلها بالصبغة الإسلامية وتُشبع بالروح الإسلامية ، بغير تزمت ولا تكلف ، كما يجب أن تعمل هذه المناهج على تكوين العقلية العلمية ، والروح العملية ، والنفسية الإيجابية ، والشخصية المتميزة التى لا تحيا مقلدة ولا إمعة .

سادساً : تأليف كتب تستجيب لهذه المناهج فى محتواها وأسلوبها وطريقة عرضها ، بحيث تغرس العلم والإيمان والأخلاق جميعاً فى أنفس الناشئة ، وتخاطبهم باللغة التى يقدرون على فهمها كما جاء فى القرآن : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) ..

سابعاً : إعداد معلمين صالحين قادرين على تحويل المنهج الصالح ، والكتاب الملائم ، إلى واقع ملموس ، يتمثل فى بَشَر يفهمون ويهضمون ويتذوقون ويعملون وفقاً لما تعلموه . وذلك بما لديهم من كفاية ومقدرة فنية ، وما يحملون فى صدورهم من ضمائر مؤمنة ، فهم فى الحقيقة معلمون ومربون ودعاة فى الوقت ذاته . وفى الحديث : « إن اللّه وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض - حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر - ليصلون على معلمى الناس الخير » (٢) .

ويتبع ذلك إبعاد كل فاسد الفكر أو الضمير عن مجال التربية والتعليم .

ثامناً : وقبل كل ما ذكرناه ، يجب أن تتضح لدينا غاية التربية وفلسفتها ،

---

(١) إبراهيم : ٤

(٢) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وفى بعض النسخ : غريب .

أعنى أن تكون فلسفة التربية قائمة على هدف واضح منذ البداية . فلسنا نريد تربية الإنسان الثورى أو اليسارى ، ولا الإنسان الرجعى أو اليمينى ، ولا الإنسان الطبقى أو البروليتارى ، ولا الإنسان الليبرالى أو الاشتراكى ، ولا الإنسان العربى أو الإقليمى ، ولا الإنسان القديم أو الجديد . إنما تقوم التربية على تكوين « الإنسان الصالح » وكفى .

والإنسان الصالح هو الذى حدّدت سماته الأساسية سورة « العصر » حيث قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ [١] ..

(أ) فهو إنسان مؤمن صاحب عقيدة ، وليس شخصاً سائباً ممن غفل قلبه عن ربه ، واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطاً .

(ب) وليس إيمانه مجرد فكرة نظرية ، أو دعوى كلامية ، فإنه يتجسد فى « عمل » وليس أى عمل ، بل « عمل الصالحات » وهو تعبير قرآنى ، يعنى كل ما « يصلح » به الفرد والجماعة ، و « يصلح » به الدين والدنيا .

(جـ) وهو لا يكتفى بصلاحه فى نفسه متقوقعاً على « الحق » الذى آمن به ، بل يجتهد أن يمد شعاع هذا الحق فى المجتمع موصياً به وداعياً إليه ، ومتقبلاً من غيره - من أهله وحملته - وصيتهم به ، ودعوتهم إليه متعاونين معاً فى سبيل نشره وحمايته وهذا معنى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ ﴾ ..

(د) ثم هو بعد ذلك مستعد أن يحمل - مع أهل الحق - أعباء التواصى به مهما تكن التضحية ، صابراً على مُرِّ البلاء ، وطول الطريق ، وكثرة المعوقات ، موصياً بذلك غيره وقابلاً الوصية منه : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ ..

---

(١) سورة العصر كاملة .

تاسعاً : يجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافى إسلامى ، يُبنَى على الأسس التالية [١].:

١ - وضع نظام ثقافى إسلامى موحّد غير مزدوج الروح والمصدر ، بحيث ينشىء عقلية واحدة لكل أبناء الأمة ، هى العقلية الإسلامية ، فلا ينقسم أبناء المجتمع المسلم بين تعليم قديم وتعليم حديث ، بين تعليم دينى ، وتعليم مدنى . وإنما هناك تعليم واحد هو التعليم الإسلامى .

٢ - صبغ التعليم فى جميع درجاته وأنواعه ، بالصبغة الإسلامية ، أى أن يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية .

٣ - إحداث وعى إسلامى عام . بحيث يكون هذا الوعى - العقلى والنفسى - وعياً لمبادىء الإسلام وتعاليمه ، وقضايا الإسلام الكبرى فى العصر الحاضر ، ووعياً لوحدة العالم الإسلامى ومصادر قوته ، وما يجابهه من أخطار .

٤ - الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التى غزت العالَم الإسلامى من ليبرالية ديمقراطية غربية ، ومن اشتراكية ماركسية شرقية .

٥ - وصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة - على اختلاف أنواعها - على أساس الإسلام ونظرته ، وسد حاجات المجتمع الإسلامى عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

٦ - اختيار الطرق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله فى النفوس ، فيُراعَى فى ذلك السن والمستوى العقلى مع العناية بالأصول والمبادىء وتقديم القضايا الهامة ، والعودة إلى القرآن والسُنَّة ، ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية .

عاشراً : وضع خطة لعمل موسوعات إسلامية عامة وخاصة ، فى مستوى

---

(١) انظر كتاب « الفكر الإسلامى المعاصر » - للأستاذ محمد المبارك ، فصل « المشكلة الثقافية فى العالم الإسلامى .. واقعها وعلاجها » ص ١٣١ وما بعدها .

الموسوعات العصرية العالمية ، لخدمة الثقافة الإسلامية بمختلف جوانبها ، ومن ذلك :

(أ) موسوعة إسلامية عامة : يكتبها علماء مسلمون من شتَّى ديار الإسلام فى مختلف التخصصات المتعلقة بالمعارف الإسلامية ، على غرار « دائرة المعارف الإسلامية » التى كتبها المستشرقون ، مع تلافى ما فيها من قصور أو تقصير أو تحامل .

(ب) موسوعة للحديث النبوى : تشمل صحاح الحديث وحسانه ، مما ثبت سنده ، وسلم متنه من الشذوذ والعِلَّة ، مع تبويب جديد ، وفهرسة حديثة ، ومع شرح مركّز ، يعين على فهم كنوز السُنَّة وأسرارها ، وبهذا يستريح الناس من التعلق بالأحاديث الموضوعة والواهية ، التى طالما أفسدت العقول ، وكدّرت منابع ثقافتنا .

ويتبع ذلك موسوعة لرجال الحديث تضم شتات ما تفرّق فى كتب الرجال ، وتيسر للباحثين التحقيق والتمحيص .

(جـ) موسوعة للفقه الإسلامى : تعرض الفقه الإسلامى فى مختلف مذاهبه وأقواله المتبوعة اليوم وغير المتبوعة ، مع بيان مآخذها وأدلتها من الكتاب والسُنَّة والاعتبارات الشرعية الأخرى ، كما تعرض لأصول الفقه وتاريخ الفقه وتطوره ، وتعرض كذلك لكل جديد أصيل من بحوث المعاصرين مع بيان معاصرته ، مرتَّبة على أحدث الأساليب العلمية فى كتابة الموسوعات ، ليسهل على كل باحث الانتفاع بها وبخاصة مع حسن الطباعة والإخراج والفهرسة .

وقد بدأت فى ذلك محاولة فى دمشق انتقلت إلى مصر والكويت ، وخرج من كل منهما أجزاء نافعة ، وإن لم تخل من ملاحظات عليها ، ولا بد من تجميع الجهود لإخراج موسوعة واحدة شاملة ، تليق بمكانة الفقه الإسلامى .

(د) موسوعة للتاريخ الإسلامى : وتاريخ الإسلام يبدأ بالسيرة النبوية ، فعصر الخلفاء الراشدين ، فمَن بعدهم . وهذا التاريخ فى حاجة إلى أن تعاد

كتابته فى ضوء منهاج جديد . يحسن تقويم المصادر ، وتحقيق الأسانيد ، وتحليل الحوادث والشخصيات ، مستفيداً من كتابات المستشرقين لا معولاً عليها ، على أن يعنى هذا التاريخ بالشعوب عنايته بالملوك والحكام ، وأن يهتم بالعلماء والصالحين ، عنايته بالقادة والفاتحين ، وأن يوجه همه للدين والفكر ، كما يوجهه للحرب والسياسة . وأن يكون محور الكتابة هو الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة .

حادى عشر : وضع كتب إسلامية ملائمة لروح العصر ، ذات مستوى رفيع ، صالحة للترجمة للغات العالَم الإسلامى ، وللغات الحية ، على أن تمتاز بسلامة المادة ، وبوضوح الفكرة وجمال العرض ، وبلاغة الأسلوب ، والبُعد عن الحشو والفضول . وذلك عن طريق التكليف أو المسابقة ، على أن تقرها لجنة من كبار المختصين ، المرموقين فى العالَم الإسلامى .

ثانى عشر : إنشاء مجامع علمية لخدمة الثقافة الإسلامية ، على مستوى العالَم الإسلامى كله ، وفى مقدمتها : « مجمع للفقه الإسلامى » يُعنى بالدراسات الفقهية ، ويعمل على إبراز التراث الفقهى وتحقيقه وتطويره ، ويشرف على الموسوعة المنشودة ، كما يقدّم مشروعات لتقنين الفقه الإسلامى من مذاهبه المختلفة ، بعد الموازنة والتمحيص ، لاختيار ما هو أرجح وأليَق بمقاصد الشريعة ، وأوفق بتحقيق المصالح التى هى مُناط التشريع . ويصدر حكمه فى القضايا الجديدة التى تحتاج إلى اجتهاد جَماعى من رجال غير مغمورين فى علمهم ولا تقواهم .

ثالث عشر : التخطيط لإنتاج فنى أدبى متكامل ، يشترك فيه المفكرون والعلماء والأدباء والشعراء وكل مَن له إسهام فى الجانب الفنى ، وذلك لتغذية أجهزة الإعلام والتوجيه - من إذاعة وتلفاز ومسرح وصحافة وخيالة وغيرها - بالأصيل والجادّ من القصص والمسرحيات والتمثيليات وغيرها من البرامج المتنوعة . وبخاصة تلك التى تتعلق بالإسلام ودعوته وكتابه ونبيه وتاريخه

ورجاله وحضارته ، لإعطاء صورة صحيحة ومشرقة عن الرسالة الإسلامية ، والبطولة الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والروح الإسلامية ، بحيث يلتقى فى رسم هذه الصورة الصدق التاريخى والجمال الفنى

* *

● فى الناحية الاجتماعية :

الإسلام دين اجتماعى ، فهو يسعى إلى إنشاء المجتمع الصالح ، سعيه إلى تكوين الفرد الصالح ، بل يرى أن صلاح المجتمع لازم لصلاح الفرد ، لزوم التربة الخصبة لإنبات البذرة ونحوها .

لا يتصور الإسلام الفرد المسلم إنساناً منعزلاً فى خلوة ، أو راهباً فى صومعة ، بل يتصوره دائماً فى جماعة ، حتى عبادته لربه ، فقد دعاه إلى أن تكون فى صورة جَماعية ، ومن هنا نشأت المساجد فى الإسلام وتأكدت أهميتها .

ولو تخلّف المسلم عن الجماعة وصلّى وحده ، فإن روح الجماعة تظل متمثلة فى ضميره جارية على لسانه حين يناجى ربه ، قارئاً داعياً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ✽ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) ..

والزكاة والحج كذلك عبادتان اجتماعيتان .

والقرآن يخاطب المكلّفين بصيغة الجماعة فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٢) .. ليشعرهم بأنهم متضامنون فى تنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهى ، وأداء التكاليف .

والرسول يرغّب دائماً فى الجماعة ، وينفّر من الشذوذ والانفراد ، ويقول : « يد الله مع الجماعة ، ومَن شذّ شذّ فى النار » و « إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

---

(١) الفاتحة : ٥ - ٦

(٢) البقرة : ١٠٤ ، وسور أخرى .

ومن روائع ما ورد عنه قوله : « لا صلاة لمنفرد خلف الصف » حتى أمر مَن صلّى خلف الصف أن يعيد صلاته . كراهية للشذوذ والانفراد ولو فى الصورة والمظهر .

ويدعو الرسول بأبلغ الأساليب إلى كل عمل ينفع المجتمع ، ويجعله أرجح عند اللّه من نوافل العبادات ، فاعتبر إصلاح ذات البَيْن أفضل من الصلاة والصيام والصدقة ، لأن فساد البَيْن هى الحالقة ، ومثلها الحسد والبغضاء ، إنها لا تحلق الشَعر ، بل تحلق الدين .

ويفرض على كل مسلم ، بل على كل عظم فى بدنه « صدقة » يومية يؤديها خدمة للمجتمع ، ولو كانت إماطة للأذى عن الطريق ، أو كلمة طيبة ، أو تبسّم الإنسان فى وجه أخيه .

ويعنى الإسلام أكبر العناية بالأسرة ، حتى تقوم على أسس متينة ، وتستمر فى أداء رسالتها ، بعيدة عن الهزات والقلاقل ، فهى المدرسة الأولى التى يتخرج فى رحابها الأبناء الصالحون ، والبنات الصالحات . وإنشاؤها من أفضل الأعمال المقرِّبة إلى اللّه ، وتهديمها من أقبح الذنوب البغيضة إلى اللّه ، حتى عدّ القرآن من أعمال السحرة الكفرة « التفريق بين المرء وزوجه » .

وعنى الإسلام بالمرأة خاصة ، فكرّمها بنتاً ، وكرّمها زوجة ، وكرّمها أماً ، وكرّمها إنساناً ، وعضواً فى مجتمع ، وتحدث عن المسلمات والمؤمنات حديثه عن المسلمين والمؤمنين ، ليعلم الجميع أن النساء شقائق الرجال : ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [1] ..

وعنى بتربية الأطفال ورعاية الشباب ، لأنهم أسلم فطراً ، وأقرب إلى نُصرة الحق : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ [2] ..

---

(١) آل عمران : ١٩٥   (٢) الكهف : ١٣

فلا عجب أن يعنى الحل الإسلامى بالنواحى الاجتماعية ، ويوليها اهتماماً يليق بها .

وبحسبنا أن ننبه فى هذا الجانب - مع أهميته القصوى - على النقاط التالية :

١ - الاهتمام بشأن المرأة المسلمة بحيث تعود إلى فِطرتها الأصيلة ، ورسالتها الجليلة ، فتاة مهذبة ، وزوجة صالحة ، وأماً فاضلة تعنى بالبيت قبل الشارع ، وبالمخبر قبل المظهر ، وبأداء الواجبات قبل طلب الحقوق ، وبالدين قبل الطين ، ومقاومة التقليد الأعمى للمرأة الغربية التى تمردت على فِطرتها ومهمتها الأساسية فى الحياة ، وخرجت من مملكتها تزاحم الرجال ، فلا هى صارت رجلاً ، ولا بقيت امرأة !

٢ - العناية بالطفولة : صحياً ونفسياً ودينياً ، ومعونة كل أسرة عاجزة عن رعاية أطفالها رعاية كاملة ، والعمل على إيواء المشردين ، بحيث لا يوجد « ابن سبيل » إلا ويصبح ابن بيت ، وأن تهيأ لهم سبل التعلم والرياضة والفروسية ، ومنع تشغيل الأطفال الذين لا تبلغ أعمارهم اثنى عشر عاماً ، ليتاح لهم حق التعلم والتمتع بالطفولة المرحة .

٣ - العناية بالشباب الذين هم عُدّة الحاضر ، وذخيرة المستقبل ، والعمل على إعدادهم إعداداً متكاملاً : بدنياً بالرياضة ، وروحياً بالعبادة ، وعقلياً بالثقافة ، وخُلُقياً بالفضيلة ، وعسكرياً بالخشونة ، واجتماعياً بالخدمة العامة .

٤ - مقاومة موجة التخنث والتحلل والتقليد الأعمى الذى أفقد الشباب المسلم شخصيته فى زيه ومظهره ، وفى سلوكه ومخبره ، بحيث يتوارى من المجتمع أولئك المتشبهون من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال .

٥ - منع الاختلاط المثير بين الجنسين فى مجالات التعليم والعمل والترفيه ، إلا ما اقتضته الضرورة ، فيقدر بقدرها ، مع مراعاة الأدب والاحتشام .. وتشديد النكير على استغلال أنوثة المرأة فى القيام ببعض الأعمال التى هى أليق بطبيعة الرجال .

٦ - مقاومة التقاليد الدخيلة الوافدة مع الاستعمار ، من مساخر « الأزياء » وبدع « الموضات » ومظاهر التعرى والتبذل ، وتبرج الجاهلية ، وتهتك الإباحية ، ونشر الآداب والتقاليد الإسلامية العريقة ، التى لا تسمح بظهور الكاسيات العاريات المائلات المميلات .. وتطهير المجتمع من أسباب الإغراء ، ودواعى الإثارة ، ووسائل التحريض على الفتنة .

٧ - تشجيع الزواج المبكر ، وتهيئة الأسباب المعينة عليه ، والتغلب على التقاليد الاقتصادية والاجتماعية التى تعوقه ، من غلاء المهور ، والغلو فى التأثيث ، والإسراف فى متطلبات الأعراس ، والاستجابة لتعقيدات العادات مثل وجوب الاستقلال الاقتصادى لكل متزوج .. إلى آخر ما عقَّده الناس وعسَّروه على أنفسهم ، فعسَّر الله عليهم .

٨ - إعطاء عناية بالغة لدراسة أسباب كثرة الطلاق ، للعمل على تضييق نطاقه ، واعتباره عملية جراحية أليمة لا يُلجأ إليها إلا للحاجة الملحة ، تفادياً لما هو أكبر منها ، واتخاذ ما أمر به القرآن من التحكيم : ﴿ حَكَماً مِّنْ أَهْلِه وَحَكَماً مِّن أَهْلِهَا ﴾ [1] .. عند خوف الشقاق ، رأباً للصدع ، ومداواة للجرح قبل استفحاله .

٩ - الارتقاء بالفن بشتَّى أنواعه ، وفى مختلف مجالاته ، بحيث يؤدى رسالته فى خدمة أهداف الأمة وقِيَمها العليا ، بالتوجيه والترفيه ، بعيداً عن إثارة الغرائز ، وتلويث الأفكار سواء فى ذلك الكلمة المكتوبة والمسموعة ، والصورة المرئية ، واللوحة المرسومة ، وكل ألوان الفنون التى تقوم عليها الكتابة والصحافة والإذاعة والتلفاز ، والمسرح والسينما وغيرها ، وبذلك يغدو الفن أداة للبناء والإعلاء ، لا معولاً للهدم والتدمير .

١٠ - تحريم شرب المسكرات بكل أصنافها ، وإغلاق حاناتها ، ومنع صنعها واستيرادها والتجارة فيها ، حفظاً للعقول والأجسام والأخلاق من ويلات أم الخبائث ، وسوء أثرها على الفرد والأسرة والمجتمع كله . ولا معنى

---

(١) النساء : ٣٥

- فى مجتمع إسلامى - لتحريم المخدرات ومطاردة مدمنيها وتجارها إلى حد الحكم بالإعدام عليهم فى بعض الأقطار الإسلامية ، على حين تُباح المسكرات جهرة محادة لله ورسوله .

١١ - إغلاق أندية القمار « الميسر » بكل ألوانه كذلك ، فهو أخو الخمر وقرينها فى كتاب الله ، فكلاهما رجس من عمل الشيطان ، وصدق الله العظيم : ﴿ إنّما يُريدُ الشَّيْطَانُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فى الخَمْرِ وَالمَيْسرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ، فَهَلْ أنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [١] ..

١٢ - إغلاق دور اللهو الحرام التى تشيع الفاحشة ، وتُنتهك فيها الحرمات ، وتنشر وباء الفساد والانحلال : من مراقص و « كباريهات » وغيرها من بيوت الليل ، ولا عبرة بما يقال من جلب السياح وكسب العملات الصعبة ، فإن إثمها أكبر من نفعها ، وأخلاق الأمة أولى من كسب رخيص : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِه إن شَاءَ ﴾ [٢] ..

١٣ - القضاء على الرشوة بدراسة أسبابها ، والعمل على تلافيها ، وتشديد العقوبة على المرتشى والراشى والرائش جميعاً . وتشديد الرقابة على الجهاز الإدارى كله ، ومحاولة إصلاحه ، وتطهيره من العناصر الفاسدة ، والاجتهاد فى وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وتقديم القوىّ الأمين على غيره : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِىُّ الأَمِينُ ﴾ [٣] .. وليس أضر على الأمم من تقديم أهل الضعف والخيانة ، وتأخير أصحاب القوة والأمانة . فهذا هو الذى يقرِّب الأمة من ساعة هلاكها . وقد جاء فى حديث البخارى عن النبى ﷺ : « إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة . فسئل : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة » .

* *

---

(١) المائدة : ٩١ (٢) التوبة : ٢٨ (٣) القصص : ٢٦

● فى الناحية الاقتصادية :

يتوهم الكثيرون أن الدين لا يعنى بالاقتصاد ، فهما ضدان لا يلتقيان . فالاقتصاد يعنى بالجانب المادى فى الحياة ، والدين يعنى بجانبها الروحى ، الاقتصاد استغراق فى المادة ، والدين استعلاء عليها .

بَيْدَ أن هذا إن صح فى أديان أخر ، لا يصح فى الإسلام ، فقد اعتبر القرآن المال قواماً للحياة حين قال : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (١) .. كما اعتبر الغنى نعمة يمتن الله بها : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (٢) .. ومثوبة يجزى بها المؤمنين من عباده : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ (٣) .. ولم يغلق الرسول ﷺ ملكوت السماء فى وجه الغنى كما رووا عن المسيح عليه السلام ، بل قال : « نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح » .

وأشار القرآن والسُنَّة إلى أهمية المؤثرات الاقتصادية فى السلوك البَشرى ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ (٤) .. ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ (٥) .. وفى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل إذا غَرِم حدَّث فكذب ، ووعد فأخلف » .

وكان أحد الأركان الخمسة فى الإسلام عبادة مالية هى « الزكاة » ، وأحد الموبقات السبعة كبيرة مالية هى « الربا » .

رغَّب الإسلام فى الصناعة والاحتراف ، وضرب لنا القرآن مثلاً بعدد من الأنبياء والصالحين من أهل الحِرَف ، فنوح نجَّار يصنع السفن ، وإبراهيم وإسماعيل بنَّاءان يرفعان قواعد البيت ، وداود حدَّاد يصنع الدروع السابغات ، وذو القرنين بانى السدّ العظيم من زبر الحديد والنحاس المذاب .

---

(١) النساء : ٥ — (٢) الضحى : ٨ — (٣) نوح : ١٢

(٤) الأنعام : ١٥١ — (٥) الإسراء : ٣١

ودعا كذلك إلى الزراعة والغرس والتشجير ، بشرط ألا يكتفوا بالزرع ويتبعوا أذناب البقر ، ويتركوا الجهاد .

وحثّ كذلك على التجارة ، ونوّه بالتاجر الصدوق الأمين ، ونهى عن الغش والاحتكار ، والتلاعب بالأسعار .

وأقام الإسلام نظامه الاقتصادى على إقرار المِلْكية الفردية ، لما فيها من إشباع الدافع الفطرى فى نفس الإنسان ، ولما تثمره من الشعور بالسيادة والقُدرة ، فمن شأن السيد الحر أن يملك ويتصرف . أما العبد فلا يملك ولا يتصرف .

ولكنه وضع للمِلْكية أسباباً لاكتسابها وقيوداً لتنميتها ، وحقوقاً دورية وغير دورية عليها .

وقبل ذلك كله اعتبر المالك الحقيقى للمال هو الله تعالى ، والناس أمناء عليه ، أو وكلاء فيه ، وبتعبير القرآن : ﴿ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [1] ..

ومن هنا كانت عناية الحل الإسلامى بالناحية الاقتصادية .

وأبرز ما يُراعَى فيها الأمور الآتية :

١ - إتاحة العمل الملائم لكل مواطن قادر - باعتبار العمل حقاً له وواجباً عليه - وتهيئة التدريب الكافى لكل ذى مهنة لتحسين مستوى كفايته الفنية ، وبذلك يستطيع كل قادر على العمل أن يكفى نفسه بنفسه ، وتحريم الصدقات والمعونات الاجتماعية تحريماً باتاً على كل متعطل عن العمل الملائم له باختياره ، اهتداءً بما جاء عن النبى ﷺ فى قوله : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرةٍ سوى » .

٢ - إعطاء الأجر العادل لكل عامل بما يكافىء عمله ، ويغطى حاجته بالمعروف ، فالنبى ﷺ أعطى فى الغنائم الراجل سهماً ، والفارس سهمين أو ثلاثة

---

(١) الحديد : ٧

أسهم ، لأن كفاية الفارس فى الحرب فوق كفاية الراجل .. ثم إنه فى الفىء أعطى العزب حظاً والآهل (المتزوج) حظين ، لأن حاجة الآهل أكثر من حاجة العزب (ويقاس على الآهل : صاحب العيال) وبهذا وذاك يكون النبى ﷺ قد اعتبر العمل والكفاية ، كما اعتبر الحاجة أيضاً . ولهذا قال عمر فى شأن مال الفىء : واللّه ما أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فالرجل وبلاؤه ، والرجل وقدمه ، والرجل وحاجته .

وبهذا يكون الإسلام قد خالف النظرية الشيوعية التى تعطى كُلاً حسب حاجته فقط ، والنظرية الاشتراكية التى تعطى كُلاً حسب عمله فقط .

٣ - جباية الزكاة من كل الأموال : ظاهرة (الثروة الحيوانية والزراعية وزكاة الفطر) ، وباطنة (أموال التجارة والنقود) بوساطة جهاز قوى أمين من « العاملين عليها » كما سماهم القرآن الكريم ، مع وجوب توسيع قاعدتها بحيث يشمل كل مال نام ، وكل دخل فاضل عن الحوائج الأصلية ، وتوزيعها على المصارف الثمانية ، أو السبعة - بعد إلغاء الرق فى عصرنا - عملاً بتوجيه القرآن : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (١) ، وبقول الرسول ﷺ : « تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم » وسُنّته العملية وسُنّة خلفائه الراشدين فى بعث السعاة والعاملين إلى مختلف البلدان والقبائل لجمعها وتفريقها - كما أمر اللّه رسوله - .

وبذلك تسهم هذه الفريضة فى تمويل التكافل ، وتحقيق العدل الاجتماعى ، ومحاربة الكنز ، ومقاومة الاستقراض بالربا ، وانتشال المدينين من ذل الدَّيْن ، كما تسهم فى تنشيط الدعوة إلى الإسلام ، بما يُصرف عليها من سهمى « المؤلّفة قلوبهم » و « فى سبيل اللّه » .

٤ - كفالة المعيشة الكريمة ، التى تتوافر فيها « الحاجات الأصلية » - حسب تعبير فقهائنا لكل مواطن عجز عن العمل ، عجزاً أصلياً أو طارئاً ، عقلياً

(١) التوبة : ١٠٣ .

أو جسمياً ، أو كان قادراً عليه ولكنه لم يجد عملاً ، ولم تستطع الدولة أن تهئ له سبيل العمل المناسب لمثله .. أو وجد عملاً ولكن كان دخله منه لا يكفيه ، لكثرة أعبائه العائلية ، أو لظروف عارضة زادت فى معدل نفقاته ، كمرض ألَمّ به ، أو بأحد من أسرته ، أو لغلاء الأسعار أو نحو ذلك .

فمن واجب الدولة المسلمة أن توفر لكل إنسان يعيش فى كنفها - مسلماً أو غير مسلم - الغذاء الصحى اللازم ، والملبس الواقى للجسم فى حالتى الحر والبرد ، والمسكن الذى يَكِنّ صاحبه ويستره ويشعره باستقلاله عن غيره ، والعلاج الذى يزيل عنه آلام المرض وييسر له الشفاء وفقاً لسنن الله تعالى .. والتعليم المجانى الذى يخرجه من ظلمة الأمية والجهالة إلى نور المعرفة والثقافة ، ويتيح لذوى المواهب أن يبلغوا أقصى درجات التعلم المستطاع للبَشر ، وأن يسدوا كل الثغرات التى تحتاج إليها الأمة فى مختلف النواحى والتى عدّها العلماء من فروض الكفاية .

ومن حق كل مواطن فى دولة الإسلام أن يطالبها بهذه الحاجات الأساسية إذا قصّرت فى توفيرها لمستحقيها ، فإن النبى ﷺ قال : « الإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته » (١) فجعل مسئولية الإمام - رئيس الدولة - عن الأمة كمسئولية رب البيت عن الأسرة . وهذا ما بدأ النبى ﷺ بتطبيقه بوصفه إمام المسلمين فى عهده وذلك حين قال : « أنا أولى بكل مسلم من نفسه ، مَن ترك مالاً فلورثته ، ومَن ترك دَيْناً أو ضياعاً (يعنى أولاداً صغاراً ضائعين لعدم مايكفيهم ومَن يكفيهم) فإلىَّ وعلىَّ » (٢) .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقضى من بيت المال ديون مَن مات ولم يترك وفاءً .

وجاء عمر من بعد - وقد اتسعت ثروة الدولة الإسلامية - فبلغ بالتكافل

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم .

مبلغاً لم تحلم به الإنسانية من قبل ، ففرض عطاءً لكل مولودٍ فى الإسلام ، وأمر بإجراء معاش أو راتب لكل عاجز عن العمل من أهل الذِّمة من اليهود والنصارى .

٥ - مصادرة كل مال حصل عليه حائزه بطريق من طرق الحرام وأكل أموال الناس بالباطل - كالغصب أو الاختلاس أو الرشوة أو استغلال النفوذ ونحوها - سواء أكان هذا المال عقاراً أم منقولاً ، بشرط أن يثبت ذلك بتحقيق نزيه ، وأن يفصل فيه قضاء عادل . وما ينتج عن هذه المصادرة المشروعة يُصرف فى المصالح العامة ، أو فى مصالح الفئات الضعيفة خاصة .

٦ - أن يخضع موظفو الدولة - وبخاصة الكبار منهم - لقانون « من أين لك هذا » ؟! بحيث يُعاقَبون على كل كسب غير مشروع ، بمصادرته كله أو بعضه بحسب قوة الشُبهة فى المِلْك أو ضعفها ، اقتداءً بما بدأ به النبى ﷺ من محاسبة ابن اللتبية وما سار عليه عمر من بعده فى محاسبة ولاته ومشاطرتهم أحياناً نصف ما كسبوا أثناء ولايتهم .

٧ - محاربة السرف والترف فى المجتمع بالتشريع والتوجيه ، توفيراً للطاقات المادية والبَشرية التى تذهب هدراً من جرَّاء التسابق المجنون فى اقتناء الكماليات ، بل المحرَّمات ، وحفاظاً على المجتمع من التفسخ والانحلال الذى ينذر به الترف كل من غرق فيه ، ووقاية للأمة من الحقد الطبقى والانقسام إلى أكثرية كادحة شبه محرومة من الحاجات الأساسية للحياة ، وأقلية متنعمة مترهلة تسمن على هزال غيرها .

٨ - تقريب الفوارق الاقتصادية بين الأفراد والفئات ، بالعمل الدائب على الحد من طغيان الأغنياء ، والرفع من مستوى الفقراء ، وتصفية الامتيازات التى توارثها بعض الناس بغير حق ، وإزالة المظالم التى يرزح تحت نيرها آخرون بالباطل ، وتضييق الفروق - ما أمكن ذلك - بين أعلى الرواتب وأدناها ، بحيث يختفى منظر الثراء الفاحش ، إلى جانب الفقر المدقع .

٩ - ومن ذلك : تقريب الفوارق بين القرية والمدينة بحيث لا تستحوذ المدينة وسكانها على جل اهتمام الدولة وجل خدماتها ، وتُترك القرية فى زوايا النسيان أو الإهمال ، فلا بد من مزيد من الاهتمام بالقرية ورفع مستواها صحياً واقتصادياً وعمرانياً واجتماعياً وثقافياً . فلولا القرية ما أكلت المدينة !

١٠ - تطهير كل المؤسسات الاقتصادية من رجس الربا ، ومن كل معاملة تخالف شريعة الإسلام ، وإنشاء مصارف (بنوك) إسلامية تتعامل على غير أساس الربا ، وإلغاء كل البنوك التى لا تخضع لهذا الاتجاه ، وبذلك تحرر الأمة من نجاسة السُحْت ، ومن شر آثار الرأسمالية ، ومن أخطبوط اليهودية العالمية المتصرفة فى ذهب العالم وبنوك الدنيا ، ولا تأذن الأمة بحرب من الله ورسوله .

وفيما كتبه أساتذة الاقتصاد الإسلاميون فى مصر وباكستان وغيرها [١] مجال رحب لمن يريد تحويل النظريات إلى واقع عملى ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

١١ - وضع خطة - على أساس علمى وإحصائى - لزيادة ثروة الأمة وتنمية إنتاجها كمّاً ونوعاً ، والاستفادة من التكامل الاقتصادى بين البلدان الإسلامية للعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتى فيما بينها ، واتخاذ الوسائل الفعّالة مادية ومعنوية ، لدفع عجلة التنمية ، وتنظيف المجتمع من كل الآفات النفسية

---

(١) تراجع فى ذلك كتابات الأستاذ عيسى عبده والدكتور أحمد النجار تحت عنوان : « بنوك بلا فوائد » وبحث الدكتور محمد عزيز « عوامل النجاح فى البنوك اللاربوية » وبحث المرحوم الدكتور محمد عبد الله العربى عن الاقتصاد الإسلامى فى كتاب « المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية » بالأزهر ، وكتاب « البنك اللاربوى فى الإسلام » للأستاذ محمد باقر الصدر ، وكتاب « بعض النواحى الاقتصادية فى الإسلام » الذى أصدرته أمانة المؤتمر الإسلامى فى كراتشى وهو يشمل على عدة بحوث فى الاقتصاد الإسلامى ، وبعض بحوث أخرى للشيخ محمد أبو زهرة ، والسيد أبى الأعلى المودودى ، والأستاذ محمود أبو السعود وغيرهم .

والأخلاقية والثقافية والاجتماعية التى تعطل طاقات الشعب ، وتحطم منجزاته ، وتعوق مسيرته نحو التقدم .

* *

● فى الناحية العسكرية :

وأهم ما تجب ملاحظته فيها ما يأتى :

١ - تجنيد كل الكفايات والاستعانة بكل الخبرات - الإسلامية أولاً ، والعالمية عند الضرورة - لإعداد أقصى قوة حربية إسلامية مستقلة ، ترهب أعداء الله وأعداء المسلمين ، وقادرة على صد المغيرين ، وتأديب المعتدين ، ومساندة المستضعفين ، وعلى استرداد الأرض الإسلامية المغتصبة ، وعلى الذود عن دعوة الإسلام ، وعن دار الإسلام ، مهما اتسعت أطرافها ، استجابة لأمر الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) .

٢ - الاجتهاد فى وضع خطة جادة متكاملة - بالتعاون مع كافة المسلمين المخلصين - للاستغناء نهائياً عن استيراد العتاد والسلاح من دول تخالف فلسفتها وعقيدتها (أيديولوچيتها) عقيدتنا وفلسفتنا فى الحياة ، وقد تخالف سياستها سياستنا أيضاً ، وبهذا تتحكم فى سياستنا ، وتوجهنا جبراً إلى سياستها ، فلا تبيعنا من السلاح ما نريد ، بل ما يوافقها ، من حيث الكم والنوع والطاقة ، وشروط الاستعمال ، فضلاً عن حاجتنا إلى خبراء من غير أمتنا ، يطلعون على أوضاعنا ويكشفون عوراتنا .

٣ - إشاعة « روح الجهاد » فى الأمة ، وتقوية الروح المعنوية بين أبنائها ، وإعدادهم مادياً ومعنوياً ، ليكون كل منهم « مقاتلاً فى سبيل الله » لا مزاحماً فى سبيل الشهوات وذلك إنما يتم بأمور :

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

(أ) فرض التجنيد الإجبارى على كل شباب الأمة ، وتدريبهم على أحدث أنواع القتال بأحدث أنواع الأسلحة ، فإن القوة الحربية ليست فى السلاح وحده ، بل فى حُسن استعماله ، كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ حيث قال : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » (١) .

على أن يستمر هذا التدريب بين حين وآخر بحيث لا تطول فترة انقطاع المدرِّب عن سلاحه فينسى . وفى الحديث : « مَن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها » (٢) .

ولا يُعفَى من هذا التجنيد إلا ذوو العاهات والعجزة ممن أعفاهم اللّه فى كتابه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (٣) .

(ب) الإعداد الفكرى والنفسى المستمر للترغيب فى الجهاد والتشويق إليه ، بحيث يكون أبناء الأمة مستعدين للجهاد فى أى وقت ، وأية حالة طارئة . ولهذا جاء فى الحديث : « مَن مات ولم يغز ولم يحدِّث به نفسه مات على شُعبة من نفاق » (٤) ، و « مَن لقى اللّه بغير أثر من جهاد لقى اللّه وفيه ثلمة » (٥) .

(جـ) محاربة أخلاق الضعف والخنوع ، ومظاهر الميوعة والتخنث ، التى تفسد الرجولة ، وتقتل معانى العزة والكرامة ، وتشيع الطراوة والرخاوة ومعانى الانحلال ، التى تأتى على الأمة من القواعد فتدمرها تدميراً . ولهذا حرَّم

---

(١) رواه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر - والآية من سورة الأنفال : ٦٠ .

(٢) رواه البزار والطبرانى فى الصغير والأوسط بإسناد حسن كما فى الترغيب للمنذرى .

(٣) النور : ٦١

(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

(٥) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة وقال الترمذى : حديث غريب .

الإسلام على الرجال بعض ما أباح للنساء كالذهب والحرير ، ليحفظ على الرجل رجولته وخشونته اللازمة لقيامه بعبء الجهاد .

(د) وأخيراً - وهذا أهم من كل ما سبق - ربط الجهاد بالعقيدة التى تؤمن بها الأمة وتعيش لها ، وتستعذب الموت فى سبيلها ، فإن الجهاد من غير عقيدة يفقد معناه وروحه . وعقيدة أمتنا هى الإسلام . ولهذا لم تتجمع فى تاريخها إلا على « الجهاد فى سبيل الله » . وقد فسَّر رسولنا معنى « سبيل الله » فقال : « مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » [١] .

وليس هناك أقوى تأثيراً فى تاريخ معارك أمتنا من مثل هذه الكلمات : « الله أكبر » أو « وإسلاماه » ، أو « هَبِّى يا ريح الجنة » !

* *

● فى الناحية السياسية (الداخلية والخارجية) :

* فى السياسة الداخلية :

أولاً : تستبعد الفكرة الغربية الدخيلة ، القائمة على الفصل بين الدين والدولة ، والعودة إلى الفكرة الإسلامية الأصيلة التى لا تعرف إلا « الإمامة » التى هى منصب دينى وسياسى معاً ، فهى رئاسة عامة فى الدين والدنيا ، أو نيابة عن رسول الله ﷺ فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به كما عرّفها علماؤنا .

ثانياً : لا تنفصل السياسة فى الإسلام عن العقيدة ولا عن الشريعة ولا عن الأخلاق ، وإنما ترتبط بها كلها ، وتلتزم بها كلها ، ولا يقر الإسلام المبدأ القائل : إن الغاية تبرر الوسيلة ، فهو لا يرضى اتباع الباطل لنصرة الحق ، ولا يرى إلا الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة .

ثالثاً : يجب تجنيد الكفايات الإسلامية (الفقهية والقانونية والسياسية)

---

(١) رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى .

المخلصة ، لتقوم بوضع دستور إسلامى [١] يحدد نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والشعب ، كما يحدد الحقوق والواجبات للمواطنين فى الدولة المسلمة ، ويُفصِّل اختصاصات السُلطات ، مستفيداً من تجارب التاريخ والواقع ، ومستهدياً قبل كل شىء بقواعد الشريعة ونصوص الكتاب والسُنَّة .

رابعاً : يجب أن يتم اختيار رئيس الدولة بالبيعة ورضا الشعب ، وعلى أساس من الشورى وأن يكون للأمة وممثليها فى ذلك الكلمة العليا .. وأن يخضع هذا الرئيس لرقابة الشعب ، ولا يعلو على كلمة الحق تقال فى وجهه ، كما لا يعلو على المثول أمام القضاء ، إذا ارتكب أى مخالفة ظاهرة .. وأن يتضح ذلك كله فى صلب الدستور .

خامساً : يجب أن يؤكد هذا الدستور حق الفرد - الإنسان أو المواطن - فى الحرية ، فقد ولدت الناس أمهاتُهم أحراراً ، فلا يجوز أن يُستعبدوا لأمثالهم من الخلق .

ولسنا نعنى بالحرية : اتباع الشهوات وانطلاق الغرائز السفلى ، فهذه بهيمية لا حرية ، ولا نعنى بها اتباع الشُبهات ، وبلبلة الأفكار ، وإثارة الفتن ، فهذه فوضى لا حرية .

إنما نعنى بحرية المواطن أو الإنسان هنا : خلاصه من كل سيطرة تتحكم فى تفكيره أو وجدانه أو حركته ، سواء أكانت سيطرة حاكم مستبد ، أم كاهن متسلط ، أم إقطاعى ورأسمالى متجبر .

---

(١) قامت عدة محاولات متفاوتة فردية وجَماعية ، لوضع دستور إسلامى ، لا تخلو من ملاحظات واستدراكات ، تقل فى بعض وتكثر فى بعض ، منها « صياغة موجزة لمشروع دستور إسلامى » للأستاذ المودوى ، ومحاولة الأستاذ أبى بكر الجزائرى المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فى كتابه « الدستور الإسلامى » ، ومحاولة الشيخ النبهانى فى كتاب « نظام الإسلام » ومحاولة « جبهة الميثاق الإسلامى » فى السودان قبل ثورة مايو ١٩٦٩ ولعلها أقرب هذه المحاولات إلى الاعتدال والواقعية وإن لم نرها منشورة فى كتاب .

وحرية الإنسان أو المواطن لها هنا مجالات شتّى :

(أ) حريته فى أن يفكر ويعمل عقله الذى آتاه اللّه إياه ، وفضّله به على كافّة الحيوانات . وليس من المقبول أن يُمنح الإنسان هذه الجوهرة ثم يعطلها ويجمدها ، ليفكر له غيره .

(ب) حريته فى التعبير عما يجيش به صدره ، أو ينتهى إليه فكره ، بالقلم أو اللسان ، بالكتاب أو بالصحيفة أو بالخطابة ، فإن اللّه تعالى يقول : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ (١) .. فلا بد أن يُسمح له بأن يبين عن نفسه ، وإلا كان كالحيوان الأعجم أو الجماد الأصم .

(جـ) حريته فى اعتقاده – فلا يُكره على إتخاذ دين بعينه ، أو نحْلة بعينها ، أو على تغيير دينه بدين آخر ، أو العيش بغير دين ، أو على تعطيل شعائر دينه ، أو غير ذلك مما يقلق ضمير الإنسان : ﴿ لاَ إكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ (٢) .

(د) حريته فى نقد الأوضاع الجائرة والاتجاهات المنحرفة ، والتصرفات الخاطئة ، مهما يكن مركز مَن صدرت عنه ، فليس أمام الحق كبير : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٣) .. على أن يكون الحَكَم فى ذلك والمقياس الأوحد هو الإسلام .

(هـ) حريته فى الاجتماع بغيره ممن يرى رأيه ، ليُكوِّنوا معاً هيئة أو جماعة أو حزباً ، ما دامت هذه المؤسسة تقوم على أساس فكرى سليم ، مبنى على احترام عقائد البلاد ونظام حياتها الشرعى . قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ ﴾ (٤) ..

(و) حريته فى كسب عيشه ، ليعف نفسه ، ويكفى أهله ، ويعود على مَن

---

(١) الرحمن : ٣ – ٤
(٢) البقرة : ٢٥٦
(٣) التوبة : ٧١
(٤) المائدة : ٢

حوله ، فلا يجوز أن يُغلق عليه باب العمل رأساً .. أو يُضيّق عليه الخناق فى تدبير أمر رزقه ، حتى يعمل فى غير اختصاصه أو فيما لا يلائمه .. أو يُفصل من عمله اضطهاداً وعقوبة على غير جريمة اقترفها ، تستحق أن يُحرم هو ومَن يعول .

(ز) حريته داخل مسكنه الخاص ، فلا يُقتحم عليه بغير إذنه ، ولا يُتجسس ولا يُتسمع عليه ، ولا تُتبع عوراته ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ (١) .. ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢) .. وفى الحديث : « لا تتبعوا عورات المسلمين » ، و « من استمع حديث قوم وهم له كارهون ، صُبَّ فى أذنه الآنك يوم القيامة » .

(ح) أن يأمن على حرماته كلها من أى عدوان عليها من السُلطة والموالين لها ، وهذه الحرمات هى :

١ - الدين ، فلا يُستخف به أو يُهان .

٢ - النفس التى حرَّم الله قتلها إلا بالحق .

٣ - البدن ، فلا يجوز تعذيبه أو إيذاؤه إلا فى عقوبة شرعية قامت أدلتها وانتقت شبهاتها ، فإن ظهر المؤمن حِمىً .

٤ - العرض - بمعنى الكرامة الشخصية للإنسان - فلا يجوز أن يُشتم أو يُسخر به فى حضرته ، أو يُؤذَى ويُذكر بسوء فى غيبته ، أو يُحقّر من شأنه ، فإن الله حرَّم الأعراض ، كما حرَّم الدماء والأموال .

٥ - الأهل . فلا يجوز الاعتداء على زوجه أو أولاده أو أحد أبويه أو محارمه .

٦ - المال ، فلا يجوز مصادرة مال جمعه من حلال ، ولم ينفقه فى باطل ، ولم يبخل به عن حق .

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) النور : ٢٧

سادساً : كما أكد الدستور حق الفرد فى الحرية والأمن على نفسه وأهله وماله وسائر حرماته ، يجب أن يؤكد حق المجتمع فى الحفاظ على كيانه ووجوده من انحرافات الأفراد وطغيان الأنانيات ، وفى حماية عقائده وآدابه من دعاة التحلل والإباحية ، وفى حماية شريعته ونظامه من دعاة التبعية للغرب أو للشرق .. ومن وسائل ذلك إقامة الحدود والعقوبات الشرعية على مستحقيها .

سابعاً : يضمن هذا الدستور للأقليات غير المسلمة أن يعيشوا فى كنف الإسلام أحراراً فى التمسك بعقائدهم ، وأداء عباداتهم ، وإقامة شعائرهم ، بشرط أن يحترموا مشاعر الأغلبية ، ولا يجرحوا أحساسيهم بما لا حاجة إليه ، من افتعال التحديات والتظاهرات التى لا تثمر إلا إيغار الصدور ، وأن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، إلا ما اقتضته ظروف دولة أيديولوچية ، تقوم فى الأساس على فكرة الإسلام .

*

* فى السياسة الخارجية :

ثامناً : أما السياسة الخارجية فتقوم على ما يأتى :

(أ) اعتبار المسلمين حيثما كانوا أمة واحدة ، جمعت بينهم عقيدة الإسلام وشريعته وأخوته ، لا يفرق بينهم اختلاف جنس أو لون أو لغة أو وطن أو طبقة . يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على مَن سواهم .

(ب) وكل أرض استوطنها المسلمون ، وقامت فيها شعائر الإسلام وشرائعه ، وارتفعت فيها مآذن تنادى بالتكبير والتهليل ، هى وطن إسلامى يجب حمايته والذود عنه .

(جـ) وكل بلد مسلم اعتُدِىَ عليه ، له حق المعونة والنُصرة والمساندة المادية والأدبية ، حتى يحرر أرضه وينتصر على عدوه .

(د) الأقليات المسلمة فى شتَّى بقاع الأرض هم جزء منا بحكم أخوّة الإسلام ،

فلهم حق المعاونة ، والمعاضدة ، وعلينا مناصرة المستضعفين - والمضطهدين منهم - بكل ما نستطيع من قوة ، ولو أدّى ذلك إلى حمل السلاح لإنقاذهم من طغيان الكفرة ، وعدوان الفجرة ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [1] ..

(هـ) العمل على إزالة الحواجز المفتعلة بين بلاد المسلمين بعضهم وبعض أو تخفيفها على الأقل ابتداءً ، لتقوى بينهم الصلات ، وتتوثق عرا الأخوّة والتعارف .

(و) زيادة التعاون بين المسلمين فى شتّى المجالات بدءاً بالمجالات الاقتصادية والثقافية والإعلامية والدفاعية ، استجابة لأمر اللّه بالتعاون على البر والتقوى .

(ز) مناصرة الحركات التحررية فى العالم كله ، إنطلاقاً من الفكرة الإسلامية التى ترفض إستعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، أياً كان دينه وجنسه .

(ح) الترحيب بالسلام بين الدول والشعوب ، إذا كان قائماً على أساس من العدل والمساواة واحترام الحقوق ، ورفع الظلم عمن وقع عليه وإن طال الأمد ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [2] .

تاسعاً : العناية البالغة باختيار العناصر التى يوكل إليها سياسة الأمة ، وقيادة سفينتها ، فإن كل المبادىء والدساتير ، تظل حبراً على ورق ، ما لم تجد الرجال الأقوياء الأمناء الذين إذا حدّثوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا أئتمنوا أدّوا ، وإذا عاهدوا وفوا .

ومن ضرورة ذلك : وضع شروط ثقافية ودينية وخُلُقية للمرشحين للمجالس النيابية والشورية وسائر المناصب الكبرى ، حتى لا توضع قيادة الأمة فى أيدى الجهلة أو الملاحدة أو الفسقة .

* *

---

(١) النساء : ٧٥ (٢) الأنفال : ٦١

• فى الناحية التشريعية :

كان التشريع الإسلامى هو الموجِّه الفذ ، والمرجع الأوحد لحياة المجتمع الإسلامى فى كل العهود السابقة ، ومنه استُمِدت كل الأحكام ، وعلى أساسه قامت كل العلاقات فى كافة النواحى المدنية والجنائية والدولية والأسرية التى يُطلق عليها الآن اسم « الأحوال الشخصية » .

كان الجميع - حكّاماً ومحكومين - يستفتون هذا التشريع ويحتكمون إليه فى كل أمورهم ، معتقدين قدسيته وبلوغه إلى الدرجة العليا فى رعاية الحق والعدل وتحقيق مصالح الفرد والجماعة ، بلا إفراط ولا تفريط .

ولم يدر بخلد أحد فى أمة الإسلام أن يحتكم أبناؤها يوماً إلى أحكام غير أحكامه ، ومبادىء غير مبادئه . كيف ؟! والله تعالى يقول : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1] .. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2] .. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [3] ؟!

ولكن الذى حدث أن الاستعمار الغربى الصليبى زحف على بلاد الإسلام منذ القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى ، فاحتل أكثر هذه البلاد ، وتحكم فى رقاب أهلها ، وأصبحت فى يديه مقاليد الحياة كلها ، من سياسة إلى تشريع ، إلى تعليم ، إلى تنفيذ .

فلا عجب أن أدخل قوانينه ومبادئه ونظرياته التشريعية ، فأصبحت هى السائدة على كثير من المجتمعات ، ولم تدع للشريعة إلا ركناً ضيقاً فى الحياة هو ما يسمى بالأحوال الشخصية .

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) المائدة : ٤٥ (٣) المائدة : ٤٧

ومن هنا وجب - فى نظر الحل الإسلامى - إعادة البناء التشريعى من جديد مراعياً الأمور الآتية :

١ - النص فى الدستور على أن المصدر الفذ للقوانين فى كافة جوانب الحياة هو الشريعة الإسلامية بمصادرها الأصلية والتبعية .

٢ - النص على أن كل قانون يخالف النصوص القطعية أو الإجماع والدين المتيقن واجب البطلان .

٣ - يمكن - مرحلياً إلى أن توضع قوانين إسلامية خالصة - أن تراجَع القوانين المعمول بها حالياً ، لتنقيتها من كل ما يخالف أحكام الشريعة ، وإقرار ما يتفق منها مع هذه الأحكام ، على أن يُربط بالشريعة وفلسفتها بكتابة مذكرات تفسيرية من وجهة نظر الشريعة وتكملة البناء التشريعي بما يفرضه الإسلام من أحكام وقواعد غفل عنها القانون الوضعى .

٤ - يلغى كل قانون يشتمل على امتياز لبعض الطبقات بغير مسوِّغ ، أو على ظلم لبعض الفئات بغير سبب ، أو جور على حريات الأفراد بغير ضرورة .

٥ - أن تكوَّن هيئة عليا من الفقهاء المتضلعين فى أحكام الشريعة وأدلتها ومقاصدها ، والمطلعين على أحوال العصر وتياراته لمراجعه كل قانون جديد يصدر من الجهات المختصة ، لإقراره بمقتضى الشرع أو إلغائه إن خالف نصاً أو قاعدة .

٦ - النص على إقامة الحدود والعقوبات الإسلامية التى شرعها اللّه ، حفظاً للمجتمع ، وردعاً للأشرار ، وقطعاً لشأفة الجريمة ، كحدود السرقة والحرابة والزنا والقذف والسُكْر وقتل العمد ، والرِّدة ، تلك التى تثبت بالقرآن والسُنَّة ، مع مراعاة التشدد فى أركان الجريمة وشروطها ، ودرء الحدود بالشبهات ما وُجدَ إلى ذلك سبيل .

٧ - اختيار أحج الآراء الفقهية من شتّى المذاهب الإسلامية المعتبرة ، وأليقها بتحقيق مقصود الشارع ، وأبعدها عن التزمت والتعسير ، ليُبنَى منها قانون إسلامى يجارى روح العصر ، لا يتجاوز أحكام الشرع .

٨ - أن يكون الفقه الإسلامى أساس الدراسة فى كليات الحقوق ، فى كل الجامعات .

* * *

شروط الحل الإسلامى

نحن نؤمن بحتمية حل واحد لكل المشكلات التى تعانيها هذه الأمة ، سواء أكانت مشكلات اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم عسكرية أم فكرية وخُلُقية .

إنه حل واحد ، ولا حل غيره . هو الذى ينقذ هذه الأمة من تخبطها واضطرابها وحيرتها وعذابها وذلها وعارها .

إنه « الحل الإسلامى » الذى يتمثل فى قيام مجتمع إسلامى صحيح الإسلام ، مجتمع توجهه وتحكمه وتسوده عقيدة الإسلام ، ومفاهيم الإسلام ، وشعائر الإسلام ، ومشاعر الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، وتقاليد الإسلام ، وقوانين الإسلام .

ولكن من الناس مَن يدَّعون الأخذ بالإسلام ، ويتمسحون به ويزعمون أنهم موالون له ، وليسوا غرباء عنه ، وأن ما يطبقونه فعلاً ، أو ما يدعون إليه نظراً ، هو الحل الإسلامى .

لهذا أردتُ أن أضع هنا جملة شروط أساسية لا يُعَدّ الحل المنشود « حلاً إسلامياً » إلا برعايتها وتوافرها فيه . كما لا تتهيأ له أسباب النجاح إلا بوجودها .



١ - ضرورة الدولة المسلمة

أولاً : إذا كان الحل الإسلامى يعنى قيام مجتمع إسلامى خالص للإسلام تتمثل فيه مقومات المجتمع المسلم وخصائصه ، فإن الشرط الأول لذلك أن يقوم فى رقعة ما من الأرض حكم إسلامى خالص ، يقود المجتمع بكلمات اللّه وهداية اللّه .. حكم يرى الناس فى ضوئه نموذجاً لفضائل الإسلام فى وضوحه وشموله وتوازنه وتكامله وعمقه ، مجسدة فى مجتمع . حكم يرى الناس فى ظله نموذجاً للمجتمع المسلم ، وللأمة المسلمة ، التى تقوم على عقيدة الإسلام ، وشريعة الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، ومفاهيم الإسلام .

لا بد من قيام هذا الحكم أو هذه الدولة ، لتعمل على تكوين المجتمع المسلم المنشود ، وبعبارة أخرى : إعادة مجتمعنا إلى حظيرة الإسلام ، إلى حقيقة الدين الذى يؤمن بأنه من عند اللّه ، وتنقية هذا المجتمع - فكرياً ونفسياً وسلوكياً - من « الأجسام الغريبة » التى تسللت إليه ، والجرائم الخفية التى أضرّت به : من لوثات العلمانية والقومية والسلبية ، وتوجيهه نحو « القبْلة الواحدة » التى تلتقى عندها - وحدها - أفكاره وعواطفه ، وتذوب أمامها كل الفوارق المصطنعة التى تخالف بين الناس . تلك القبْلة التى يمثلها شعار هذا الدين ، كلمتا الشهادة « لا إله إلا اللّه ، محمد رسولَ اللّه » .. ثم قيادة هذا المجتمع - بالتربية والتثقيف والتشريع -نحو الإسلام الحق : إسلام الفكر ، وإسلام النفس، وإسلام السلوك حتى يتأسس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوان ، ويقوم تشريعه وتوجيهه كله على قواعد الإسلام ، وتشيع القيم الإسلامية فى نواحيه ، وتسرى فى كيانه كله كالدم فى العروق ، والعمل على تثبيتها وتركيزها وحراستها من كيد أعداء اللّه وأعداء الإسلام .

ومَن تصوّر قيام المجتمع المسلم - بكل مقوماته وكل خصائصه - بدون حكم إسلامى يوجهه ويرعاه ويحرسه ، فقد أخطأ خطأين كبيرين :

أخطأ أولاً : فى فهم المجتمع المسلم ، الذى يعتبر الحكم فريضة من فرائض دينه ، ويعتبر التقاء الدين والدولة فيه خصيصة من خصائصه .

وأخطأ ثانياً : فى ظنه إمكان قيام مجتمع إسلامى يوجهه حكم غير إسلامى : حكم علمانى ، قومى أو اشتراكى أو ليبرالى ، وخاصة فى هذا العصر الذى مكنت فيه التكنولوچيا الحديثة الدولة من القدرة الهائلة على التأثير فى الشعب بوساطة الأجهزة الجبارة التى وضعها العلم فى يديها ، من الكتاب والمجلة والصحيفة ، إلى الإذاعة المسموعة والمرئية (التليفزيون) ، إلى المسرح والخيالة (السينما) ، إلى المؤسسات التعليمية والتربوية التى تشرف الدولة عليها من مدارس المرحلة الأولى إلى الجامعة . وبهذا كله أصبحت قدرة الحكومات على التأثير فى الشعوب وتغيير أفكارها وأذواقها واتجاهاتها من مميزات هذا العصر ، كما ذكر ذلك الفيلسوف الإنجليزى المعاصر « برتراند رسل » .

* *

● حاجة الإسلام إلى دولة :

ثم إن الإسلام - لو لم تجىء نصوصه المباشرة - بإيجاب إقامة دولة له ، لكانت حاجته إلى دولة لا ريب فيها . فهو يحتاج إلى دولة وحكم لأكثر من سبب ، وأكثر من موجب .

أولاً : لحماية عقائده وتثبيتها ، وإزاحة كل ما يشوّه جمالها ، ويطمس نورها . ولهذا بعث النبى ﷺ علياً ، ليسوّى القبور ، ويحطم الأوثان . إن عقيدة الإسلام عقيدة انقلابية شاملة ، لا ترضى أن تعيش على هامش الحياة ، أو ترضى بالمكان الهون فى صدور الناس وعقولهم ، بل من شأنها أن تسود الحياة كلها ، وتوجه الأفكار والمفاهيم ، والأقوال ، والأعمال ، والأخلاق ، والسلوك ، وتصبغ وجه المجتمع كله صِبغة الإيمان وصِبغة الله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَّ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [1] ..

---

(١) البقرة : ١٣٨

وثانياً : لإقامة شعائره وعباداته ، والإعانة عليها ، فإن عبادات الإسلام لا يمكن أن تُؤدّى حق أدائها إلا فى ظل دولة ترعاها ، وتقوم عليها .

(أ) فالصلوات الخمس التى فرضها الإسلام كل يوم وليلة ، وشرّع أداءها فى جماعة ، وشرع لها الأذان ، وبنى لها المساجد . لا بد أن تشرف الدولة على ذلك كله ، فتنشىء المسجد ، وتنصب الإمام ، وتهىء المؤذن ، وتراقب إقامة الفريضة ، وأبرز ما يكون ذلك فى صلاة الجمعة .

وعليها كذلك أن تُرغِّب فى إقامة هذه الصلوات ، وتشجع عليها ، وتقدِّم أهلها على غيرهم . كما كان عمر - رضى اللّه عنه - يبعث إلى ولاته وعُمّاله يقول لهم : إن أهم أموركم عندى الصلاة ، فمَن ضيَّعها فهو لما سواها أكثر تضييعاً .

وعليها بعد ذلك تأديب المستهترين بهذه الفريضة بما يردعهم ويردهم إلى سواء السبيل .

ولقد اتفق فقهاء الإسلام على أن المسلم إذا ترك الصلاة جحوداً أو استهتاراً بما فرض اللّه ، يخرج بذلك عن الإسلام ، وعلى الحاكم المسلم أن يستتيبه حتى يعود إلى حظيرة الإسلام أو تُضرب عنقه .

فإذا تركها عمداً كسلاً . فإن إجماعهم منعقد على ضرورة تأديبه وعقوبته وإن اختلفوا فى مدى هذه العقوبة ، فالإمام أحمد يوجب قتله ، لأنه يعتبر ترك الصلاة كفراً ، كما صحَّت بذلك الأحاديث .

والشافعى يوافقه فى عقوبة القتل ، وإن لم يعتبره كافراً . ومثله مالك . وأبو حنيفة يكتفى بإيجاب ضربه ضرباً شديداً ، وحبسه حتى يُصلِّى ، كتارك صوم رمضان .

وكذا لو ترك أهل بلد الأذان ، أو تركوا الجماعة أو الجمعة ، فلا بدّ من تدخل الإمام أو نائبه - أى الدولة - لعقوبتهم ، بما هو إجماع علماء المسلمين فى شتّى الأزمان والأقطار .

وكل ذلك يدلنا بوضوح على أن وجود الدولة أمر مفروض ومفروغ منه لإقامة فريضة دينية كالصلاة .

(ب) والزكاة وهى العبادة المالية الاجتماعية فى الإسلام ، لا يمكن أداؤها - كما شرع الله ورسوله - إلا فى ظل دولة .

فالأصل فى هذه الفريضة أن يتولى تحصيلها وتوزيعها الإمام أو نائبه ، وبتعبيرنا الحديث « الدولة » فليست الزكاة إحساناً فردياً يقوم به مَن يرجو الثواب ، ويخشى الدار الآخرة فحسب ، بل هى ضريبة منَظمّة تشرف عليها الحكومة المسلمة بواسطة الجهاز الإدارى الذى سمّاه القرآن : ﴿ العَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ [1] .. وجعل لهم سهماً فى مصارف الزكاة ، مما يدل على أن للزكاة حصيلة قائمة بذاتها غير مخلوطة بخزانة الدولة العامة [2] .

ولهذا خاطب الله رسوله بقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [3] .. وقد امتثل رسول الله أمر ربه ، وأخذ الزكاة ، وبعث السعاة إلى مختلف الأقاليم محصِّلين وموزِّعين ، وأمرهم أن يأخذوها من أغنياء كل بلد ويردوها فى فقرائه .

ولما تمرد بعض العرب فى خلافة أبى بكر على أداء الزكاة ، أبى إلا قتالهم حتى يؤدوا حق الله ، وحق الفقراء فى مالهم ، وأجمع الصحابة معه على ذلك وقال كلمته المعروفة : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

(جـ) وصيام رمضان وقيامه لا يتحقق كما ينبغى إلا فى ظل دولة تعين الصائمين على صيامهم ، وتشجع القائمين على قيامهم ، وتعاقب المتعمِّدين للإفطار على إهانتهم لشعائر الله ، وتحديهم لمشاعر المسلمين .

---

(١) فى الآية (٦٠) من سورة التوبة .

(٢) انظر فى تفصيل ذلك وأدلته من الكتاب والسنة وهدى الصحابة ، كتابنا « فقه الزكاة » - باب « علاقة الدولة بالزكاة » - الجزء الثانى .

(٣) التوبة : ١٠٣

(د) والحج ، وهو تلك العبادة الفريدة التى فرضها اللّه على المسلم المستطيع فى العمر مرة – لا يمكن أداؤه إلا فى ظل دولة ، تيسِّر وسائل هذه الرحلة المقدسة ، وتحمى المسافرين إلى البيت العتيق ، وتخلفهم فى أهليهم وأموالهم حتى يعودوا .

ولكى نعرف هذا جيداً ، يجب أن نذكر أن هناك عشرات الملايين من المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، فى بلاد البخارى وغيره من الأئمة ، ظلوا عشرات السنين لا يحج منهم أحد ، ومثلهم كذلك المسلمون فى تركيا فى عهد « أتاتورك » وأتباعه .

ثالثاً : والإسلام فى حاجة إلى الدولة لغرس آدابه وأخلاقه فى أنفس أبنائه والناشئة خاصة .

إن مناهج التربية والتعليم ، ووسائل التثقيف والإعلام ، وأدوات التوجيه والترفيه ، يجب أن تسير كلها وفقاً لمفاهيم الإسلام ، وآداب الإسلام ، وأن تعمل كلها على غرس فضائل الإسلام ، وتنظيم حرمات الإسلام .

يجب أن يكون الكتاب والرسالة ، والمجلة والصحيفة ، والقصة والمسرحية والفيلم والأغنية ، وكل ما ينتجه العلم والأدب والفن فى خدمة الإسلام ومُثُله العليا .

أما أن يكون المسجد والمنبر فى جانب ، والمدرسة والجامعة ، والصحافة والإذاعة ، والتليفزيون والسينما والمسرح ، وكل أجهزة التأثير والدعاية والتوجيه فى جانب آخر ، جانب التحلل من الدين ، والإزراء بقيمه والسخرية بتعاليمه ، فهيهات أن يغنى صوت المنبر شيئاً ، وهذا إذا افترضنا أن تتاح له الحرية ليقول كلمة الحق .. وما تغنى كلمة خافتة فى ساعة من الأسبوع تضيع وسط الضجيج والصخب الهائل الذى تخرجه الإذاعات والصحف والأبواق الهدّامة هنا وهناك ؟!

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنتَ تبنيه وغيرك يهدم ؟!

رابعاً : ثم هناك التشريعات والقوانين التى جاء بها الإسلام ، لينظم بها جوانب هامة من الحياة فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كقوانين الأسرة والميراث والنفقات فى الأحوال الشخصية ، وكتحريم الربا والقمار والخمر والاحتكار فى القانون المدنى ، وكقطع يد السارق ، وجَلْد الزانى والقاذف وشارب الخمر ، والقصاص من القاتل المتعمد ، وقتل الزانى المحصن والتارك لدينه ، المفارِق للجماعة فى قانون العقوبات .

مَن الذى يقوم على تنفيذ هذه التشريعات ، ونقلها من نصوص نظرية إلى واقع تطبيقى إلا الدولة ؟

مَن الذى يرعى الحقوق ، ويحرس القوانين ، ويقيم الحدود ، ويحفظ الأمن إلا الدولة ؟ إنّ النبى ﷺ يقول : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمْطَروا ثلاثين صباحاً » [(١)] لأنه لا خير فى إمطار السماء ، ولا إنبات الأرض إذا انْتُهِكت الحُرمات ، وأُهْدِرت الحقوق ، وسيطر على الأرض الظلمة الفجرة ، والزناة والسكيرون . فلا بدّ من قوة مادية رادعة تكف المجرم عن إجرامه ، وتزجر غيره عن تقليده .

لا بدّ من قوة الحديد بجانب هداية الكتاب والميزان ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [(٢)] ..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « فمَن عدل عن الكتاب قُوِّمَ بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف » .

وقد روى عن جابر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا (يعنى السيف) مَن عدل عن هذا (يعنى المصحف) [(٣)]

---

(١) رواه النسائى عن أبى هريرة بهذا اللفظ ، ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه بألفاظ متقاربة وفيها « أربعين صباحاً » ، بدل « ثلاثين » .

(٢) الحديد : ٢٥

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية .

خامساً : وأخيراً هناك فريضة الجهاد لحماية دعوة الإسلام وأرض الإسلام وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

إن الرسول ﷺ يقول : « مَن مات ولم يغز ولم يحدِّث به نفسه ، مات على شُعبة من النفاق » [1] .

فهل يمكن أن يتم هذا الجهاد بدون دولة ، تهيىء الأمة له بالتدريب ، وإعداد ما استطاعت من قوة ، وتوزيع أبناء الأمة على الأعمال العسكرية والعلمية والاقتصادية وغيرها بالقسط الذى تمليه المصلحة العامة ، واستنفار الناس جميعاً عند الضرورة ، وهو ما يُعرف اليوم بالتعبئة العامة ونحو ذلك ، مما لا يتأتى تحقيقه إلا فى ظل دولة مسئولة ؟

ومن هنا نعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ ﴾ [2] .. وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً ﴾ [3] .. وقوله : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [4] .. وقوله : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [5] .. ونحوها من الآيات لا يتيسر تنفيذها إلا فى ظل سلطان دولة .

* * *

٢ - الاستمداد فى مصادر الإسلام

ثانياً : والشرط الثانى - لكى يكون الحلّ إسلامياً - أن تستمد عناصره من منابع الإسلام الصافية ، من كتاب الله تعالى ، وسُنَّة رسوله الصحيحة الثابتة .

---

(١) رواه مسلم . (٢) التوبة : ١٢٢ (٣) النساء : ٧١

(٤) الأنفال : ٦٠ . (٥) التوبة : ٣٨

من الإسلام النقى المصفى من الشوائب والتشويهات ، والفضول والانحرافات التى لحقت به ، وأضيفت إليه على مختلف العصور .

لا بد من الرجوع إلى الإسلام الصحيح ، الإسلام كما أنزله اللّه ، وكما دعا إليه رسوله محمد ﷺ ، وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان ، بعيداً عن تزمت المتزمتين ، وتحلل المتحللين ، بعيداً عن غلو الغالين ، وتقصير المقصرين .

لا يستحق حل شرف الانتساب إلى الإسلام ، ما لم يكن مصدره الإسلام الخالص ، لا الماركسية ولا المادية ، ولا الديمقراطية ولا الرأسمالية ، ولا الليبرالية وغيرها من مذاهب البَشر ، وفلسفات البَشر أياً كانوا .

الحل الإسلامى إذن هو الذى يطوِّع كل الأوضاع ، وكل الأنظمة لأحكام الإسلام ، وليس هو الذى يطوِّع أحكام الإسلام لأوضاعه وأنظمته ، فالإسلام يعلو ولا يُعلَى ، ويقود ولا يُقاد ، ويوجِّه ولا يتوجه ، لأنه كلمة اللّه ، وكلمة اللّه هى العليا .

الحل الإسلامى هو الذى يتخذ الإسلام وحده مصدر الإلهام ، ومصدر الإلزام ، مصدر الإلهام فى الشئون الفكرية ، ومصدر الإلزام فى الشئون العلمية .

ولو ذهبت فلسفات الأرض كلها - فرضاً - إلى أن الإنسان لا حياة له بعد هذه الحياة ، وقال الإسلام : إن الإنسان خُلق للخلود ، للأبد ، لحياة أخرى بعد هذه الحياة ، فماذا يتبنى الحل الإسلامى ؟ ليس له أن يتبنى غير كلمة الإسلام ، وفكرة الإسلام . عليها يبنى فلسفته ، ويقيم حياته ، وينشىء مؤسساته التربوية والثقافية والإعلامية كلها ، ويصدر فى كل أموره عن هذه الفكرة .

ولو قالت كل شرائع الأرض - افتراضاً - أن منافع الخمر أكبر من إثمها وأن شربها لازم للتقدم البَشرى ، وقال الإسلام : إنها رجس من عمل الشيطان وإن إثمها أكبر من نفعها ، وإنها أم الخبائث ، فالحل الإسلامى هو الذى ينقاد لكلمات اللّه ، وحكم الإسلام ، ويبادر إلى إغلاق الحانات ، وتحريم الخمر : شربها وصنعها واستيرادها ، وبيعها وشرائها ، وكل ما يعين على تناولها أو ييسره .

ومثل ذلك : إذا قال الإسلام : إن إباحة الربا إيذان بحرب من الله ورسوله ، فالحل الإسلامى ليس له إلا أن يمنع الفوائد الربوية ، وأن يجند كل الطاقات الفنية والمادية لإنشاء « بنوك إسلامية » ، تحل محل « البنوك الرأسمالية » التى نجسها خبث الربا .

وإذا قال الإسلام : إن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن لا مجال فى الإسلام لطبقات يستعلى بعضها على بعض ، أو يقهر بعضها بعضاً ، فالحل الإسلامى هو الذى يقيم نظامه الاجتماعى ونظامه السياسى على أساس هذه المساواة ، فلا امتياز لفرد على فرد ، ولا امتياز لأسرة على أسرة ، ولا امتياز لطبقة على طبقة ، بل كلهم سواء فى المغانم والمغارم ، فى التكاليف والعقوبات ، حتى رئيس الدولة نفسه ، يكلف بما يكلف غيره من الفرائض ، ويزيد على غيره بما حمل من أمانة المسئولية عن الأمة . كما قال عمر بن عبد العزيز بعد أن ولى الخلافة : « إنما أنا واحد منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً » .

كما أنه يخضع لقانون الشرع وحكم القضاء ، ويطالب بالبيِّنة ، كما يخضع سائر الرعية ، حتى رأينا أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه ، يقف مع نصرانى فى دعوى مدنية ، أمام القاضى شريح ، فعجز علىٌ عن إقامة البيِّنة ، فيحكم شريح للنصرانى على أمير المؤمنين ، وهو يوقن أنه صادق ، كما أقرّ النصرانى نفسه بعد ذلك ، وأعلن إسلامه ، ولكنه عدل القضاء الإسلامى ومساواته حتى بين أمير المؤمنين وأحد رعاياه من غير المسلمين !

وإذا أمر الإسلام بوجوب التكافل بين الأغنياء والفقراء ، وفرض الزكاة على ذوى الغنى - باعتبارها الحد الأدنى الواجب فى المال - وبرىء ممن بات شبعان وجاره جائع ، ومن أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع ، وأوجب تخصيص الفئات الضعيفة - مثل اليتامى والمساكين وأبناء السبيل - بالحظ الأعظم من الفىء :

ما يفيئه اللّه من أموال على الدولة المسلمة : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (١) ..

فالحل الإسلامى هو الذى يقيم سياسته الاقتصادية والاجتماعية على الدعائم الإسلامية الواضحة : محاربة الفقر والجوع ، وفرض التكافل بسلطان الدولة وأوله جباية الزكاة ، وتوزيع الثروة ، وخيرات الدولة بالعدل ، بحيث لا يأخذ الأغنياء والحكام ومحاسيبهم نصيب الأسد ولا ينال الضعفاء إلا الفتات ، بل الحل الإسلامى هو الذى يعمل جهده ليرفع من مستوى الفقراء ، ويحدّ من طغيان الأغنياء .

وإذا قال الإسلام : إن المسلمين أمة واحدة ، وإن المؤمنين إخوة ، وإن الرابطة الإسلامية فوق الرابطة القومية والوطنية - بل فوق رابطة الأبوة والبنوة والأخوة النَسَبية - فالحل الإسلامى هو الذى يقيم سياسته العملية على الولاء لأمة الإسلام ، والعداء لأعداء الإسلام ، والعمل الجاد المخلص المستمر على إعادة الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية .

وإذا قال الإسلام : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .. فالحل الإسلامى هو الذى يقول : سمعنا وأطعنا يا رب ، ويقيم فقهه وفكره وتشريعه وقضاءه على أساس حكم اللّه ، الذى لا يُتصور أن يوجد حكم أعدل منه ، ولا أرحم منه ، ولا أجدر بتحقيق مصلحة المجتمعات البَشرية منه ، فينفذ حد اللّه على اللص الكبير ، كما ينفذه على اللص الصغير ، على وفق الحديث الشهير : « وايم اللّهِ لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعتُ يدها » .

وإذا شرع الإسلام الطلاق عند تعذر الوفاق ، وفشل وسائل التقريب والإصلاح .

---

(١) الحشر : ٧ (٢) المائدة : ٣٨

فالحل الإسلامى هو الذى ينقاد لشرع الله ، فيحلّ ما أحله ، كما يحرِّم ما حرَّمه . غير مصغ إلى مطاعن الأفاكين ، وأكاذيب المفترين ، الذين يريدون إدخال الشرائع المسيحية فى قلب المجتمع المسلم .

وإذا أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة ، لاعتبارات ومبررات رآها ، وبقيود وشروط أوجب رعايتها . فليس للحلّ الإسلامى أن يستدرك على الله ، ويحرِّم ما أحلّ الله ، سيراً فى ركاب الذين لا يؤمنون ، واتباعاً لأهواء الذين لا يعلمون . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1] ..

ليس بحل إسلامى ذلك الذى يبيح الخمور ، ويفتح الحانات بدعوى تنشيط السياحة ، والحاجة إلى العُملة الأجنبية . فإن الله حرَّم على المسلمين السماح للمشركين بدخول المسجد الحرام ، مع ما كان فى دخولهم إليه حَاجِّين من مكاسب اقتصادية ، ولكنه ضرب بهذه المكاسب عرض الحائط ، حفاظاً على عقيدته ومُثُله قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] ..

وليس بحلّ إسلامى ذلك الذى يبيح الربا ، ويقر « البنوك الربوية » ، بدعوى أنها دعامة الاقتصاد الحديث ، ولا يُستطاع الاستغناء عنها ، فإن الله لم يحرِّم على الناس شيئاً يتعذر عليهم الاستغناء عنه أبداً ، وقيام الحياة الاقتصادية بغير ربا ممكن نظراً ، وواقع عملاً ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

وليس بحلّ إسلامى ذلك الذى يقطع الروابط بين المسلمين ، أو يُسوِّى بين أبناء الإسلام وأعداء الإسلام ، بدعوى أن الرابطة الدينية الآن لا تصلح للعصر ،

---

(١) الجاثية : ١٩ - ٢٠.

(٢) التوبة : ٢٨

أو أنها تثير الطوائف الأخرى من غير المسلمين ، فكل هذه تعلات لا يقبلها مسلم اتخذ الإسلام حكماً ومنهاجاً . وفى العالم دول وكتل ضخمة قامت على عقائد وأيديولوچيات لا دينية ، فلماذا تُرفض الأيديولوچية الدينية وحدها ؟

ليس بحلّ إسلامى ذلك الذى يعطل حدود اللّه وعقوباته المقدَّرة فى كتابه وعلى لسان رسوله ، من قطع يد السارق ، أو جَلْد الزناة المجاهرين ، والسكيرين أو القصاص من القاتل المتعمد ، أو غير ذلك مما شرعه اللّه تأديباً للمنحرف ، وزجراً للشرير ، وتطهيراً للمجتمع كله من أسباب الفساد والإجرام .

ليس بالحلّ الإسلامى ذلك الذى يعرض وينأى بجانبه عن أفكار الإسلام الثابتة ، وقيَم الإسلام الخالدة ، ونصوص الإسلام الصحيحة الثبوت ، الصريحة الدلالة ، ثم ينحنى خاشعاً أمام أفكار ومناهج وقيَم وأنظمة تأتى بها حضارة أجنبية ، أو شريعة أرضية ، أو شريعة مبدَّلة منسوخة ، انحناء العابد لمعبوده . فإذا ووُجِهَ بالنصوص الإسلامية ، والقواعد الشرعية ، أخذ يلف ويدور ، جرياً وراء بعض المتشابهات التى لا تشفى غليلاً ، ولا تهدى سبيلاً .

هناك فى بعض البلاد العربية - على سبيل المثال - طائفة من النساء المحترفات بالقضية النسوية ، وإن شئت فقل : هناك طائفة من الرجال الذين يُحرِّكون بعض النساء العصريات . هؤلاء وأولئك يريدون أن يفرضوا على المجتمع الإسلامى فى الزواج والطلاق قوانين غير إسلامية . إنهم يحاولون أن يُدخلوا على هذا المجتمع المسلم الزواج والطلاق على الطريقة الأوروبية ، التى تأخذ شكل النصرانية ، وهى فى الواقع إباحية لا دينية ، يريدون أن يُحرِّموا تعدّد الزوجات ، ليبيحوا من ورائه تعدّد الخليلات . يريدون أن يُقيِّدوا الطلاق ليعاشر الرجل فى الحلال من يكره ، ويبحث فى الحرام عمن يحب . وهؤلاء لا يبالون بالحرام ولا ينكرونه ولا يسخطون عليه . كل ما يهمهم أن ينقلوا التقاليد الأوروبية الانحلالية إلى البيئة الإسلامية ، إرضاءً لسادتهم أو لشعور خفى فى أنفسهم .

والمجتمع المسلم يقاوم هذه التقاليد الدخيلة ، ويأباها ويرفضها ، لأنه لم يزل حريصاً على دينه ، وخاصة فى هذه البقية التى بقيت له من شريعة ربه ، والتى تترتب عليها عِشْرَةٌ دائمة ، ونسب وميراث ، إلى غير ذلك . ولهذا يستفتى الناس علماء الدين فى كل صغيرة وكبيرة فى هذا الشأن .

هذا هو موقف المجتمع المسلم من هذه القوانين التى يُراد أن تُفرض عليه ، فماذا يصنع تلامذة التبشير الاستعمارى والاستعمار التبشيرى أمام هذا الإباء أو الثبات كما نسميه ، أو التزمت والجمود كما يسمونه ؟!

إنهم يبحثون حينئذ عن بعض الفارغين - الذين فرغت رؤوسهم من العلم وقلوبهم من اليقين ، ممن ينتسبون إلى الدين شكلاً - يبحثون عنهم لينتزعوا منهم بعض الفتاوى المنحرفة ، والأقوال المرفوضة ، ليطيرِّوها فى الآفاق ، وينفخوا فيها وفى أصحابها ، ويوهموا الشعب المسلم أن الذى يجرّ إليه من الشرائع والتقاليد لم يخرج عن الإسلام .

هل يُعَد هذا الحل المستورد من الغرب « حلاً إسلامياً » حقاً لما نعانيه من سوء استعمال بعض الرجال المسلمين لحقوقهم فى الطلاق أو فى الزواج بأكثر من واحدة ؟

لا ثم لا . ليس هذا الحلّ من الإسلام فى شىء ، وإن أفتى المُفْتُونَ الخادعون والمخدوعون .

* *

● متى يجوز لنا الاقتباس من غيرنا ، وكيف ؟؟

لست أدعو إلى العزلة وإغلاق كل النوافذ على المجتمع المسلم ، وتحريم أى اقتباس من أية حضارة . فما إلى هذا أردت . فإنّ من « خصائص المجتمع المسلم » الجمع بين الثبات والمرونة . فهو مجتمع تلتقى فيه صلابة الحديد ، ورقة الماء السلسبيل ، كما قال الشاعر الفيلسوف إقبال .

يجب على المسلمين اقتباس كل ما أمكنهم من العلوم المادية والتطبيقية ، وما يتعلق بها ، ليكونوا فى مركز الأقوى دائماً ، فهذه العلوم - كما حقق علماؤنا - من فروض الكفاية . كما أن واجب الجهاد الإسلامى ، والسيادة الإسلامية ، لا يَتمَّان إلا بإتقانها والتفوق فيها . وعلماء الإسلام متفقون على أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

على أن هذه العلوم قد ظهرت من قبل فى ظل الحضارة الإسلامية ، وبإيحاء المنهج الإسلامى فى المعرفة وتوجيهه . ثم انتقل قبس من هذا النور إلى الغرب المسيحى فى غفوة الشرق المسلم ، فاستفاد من هذا القبس ونماه ووسَّع دائرته ، فإذا عاد المجتمع المسلم يأخذ من الغرب ثمرات هذا المنهج من العلوم والتقنيَّة ، فهى بضاعته رُدَّت إليه ، وضالته رجعت إلى حظيرته .

ولا حَرَج على المسلمين أن يقتبسوا من غيرهم أى نظام جزئى ، يرى ذوو الرأى وأهل الحلّ والعقد فيهم أنه نافع لمجتمعهم ، ملائم لطبيعتهم وحضارتهم كنظام للسير والمرور ، أو لتوزيع البريد ، أو لتخطيط المدن ، أو لتنظيم الجيش وتدريبه أو غير ذلك ، بشرط ألا يخالف نصاً ثابتاً، ولا قاعدة شرعية . وعليهم أن يحوروا ويعدلوا فى أى نظام يقتبسونه حتى يصبح ملائماً للوضع الإسلامى الصحيح .

أنا أعلم أن فريقاً من المسلمين المتشددين يرفضون أى اقتباس لأى وضع أو نظام جزئى من خارج دائرة الإسلام . ولهم فى ذلك شبهات يذكرونها بوصفها أدلة وأسانيد . كحديث : « مَن أحدث من أمرنا ما ليس منه فهو ردّ » [1] .

وغفل هؤلاء عن المقصود بكلمة « أمرنا » فى هذا الحديث . أنه أمر الدين من العقائد والعبادات والتكاليف . فهذا أمر توقيفى لا يُقبل فيه الاقتباس ولا الابتكار . لأنه لا يؤخذ إلا من الله وحده ، وإلا كان شرعاً فى الدين بما لم يأذن به الله !

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

وقد صرحت بعض الروايات بذلك فقالت : « مَن أحدث فى ديننا .. » إلخ ..

أما أمور الحياة والمعاملات بين الناس أفراداً ، ودولاً، حكاماً ومحكومين ، فالأصل فيها الإباحة ، إلا ما منع منه الشارع بنص ثابت صريح . ولهذا اتسع باب السياسة الشرعية أمام أولى الأمر من المسلمين ، الذين علموا أن من هَدْى الرسول وخلفائه الراشدين - أن السياسة الشرعية كل ما يقرّب المجتمع إلى الصلاح ، ويبعده عن الفساد ، وإن لم يجىء به نص . فالمهم ألا يصادم نصاً . وهذا ما جعل ابن عقيل - وأقره ابن القيم وغيره - يقرر أن السياسة ما لم يخالف الشرع ، لا ما نطق به الشرع [1] .

فنحن مع الإمامين - ابن عقيل وابن القيم - فى فهمهما الواسع الأفق للسياسة الشرعية ، ولسنا مع الفريق الآخر المتشدد المضّيق كل التضييق.

الحلّ الإسلامى هو الذى يؤخذ من نصوص الإسلام وقواعده نفسها ، وعلى طريقته فى استنباط الأحكام للوقائع التى لا تتناهى جزئياتها ، حتى الأمور الدنيوية التى لا نص فيها ولا إجماع ولا قياس . أعنى الأمور التى تركها الإسلام لتقدير أهل الاجتهاد من أبنائه ، يختارون لأنفسهم فيها ما يحقق المصلحة ، ويدفع الضرر ، ولو كان بالاقتباس من غيرهم .

أقول : حتى هذه الأمور الجزئية إذا اقتُبِست من غير المسلمين ، تُعَد فى هذا الوقت جزءاً من الحلّ الإسلامى ، لأنها إنما اقتُبِست باسم الإسلام ، وعن طريقه ، وبعد إذنه ، ووفقاً لقواعده فى استنباط الأحكام الشرعية لما لا نصّ فيه من الوقائع والتصرفات .

ولا يضرنا أن هذه الجزئية بالذات أُخِذت من نظام غير إسلامى ، فإنها باندماجها فى النظام الإسلامى تفقد جنسيتها الأولى ، وتأخذ طابع الإسلام وصبغته .

---

(١) انظر فى « سعة المجال أمام السياسة الشرعية » كتابنا « شريعة الإسلام » صفحة ٢٤ - ٤٤

فلا يظن ظان أننا ندعو إلى الجمود ، أو نؤيد التقليد وإغلاق باب الاجتهاد على أهله ، كلا ، فإن الحلّ الإسلامى لمشكلات العصر لا يتأتى إلا إذا فُتِح باب الاجتهاد لكل قادر عليه ، ووُجِد المجتهدون الأصلاء ، الذين يحسنون فهم نصوص الشريعة ومقاصدها ، وأصولها وقواعدها ، وتطبيق أحداث العصر عليها ، دون تعصب لرأى قديم ، أو عبودية لفكرٍ جديد [1] .

إن شريعتنا الإسلامية خصبة مثرية ، غنية بالأصول والمبادىء ، غنية بالأفكار والاجتهادات ، ولدينا ثروة فقهية لا تملكها أمة من الأمم ، وقد شهد لها بذلك الكثيرون من المنصفين من غير المسلمين ، وسُجِّل ذلك فى مؤتمرات قانونية دولية . وهى – بحمد الله – فى غنى عن شهادة هؤلاء وغيرهم ، فإن صنع الخالق الذى أتقن كل شيء لا يحتاج إلى تزكية المخلوق . وإنما نقول ذلك مساهلة وإرخاءً للعنان مع الخصوم ، وتنبيهاً للذين لا يقتنعون بشئ إلا إذا جاء من قِبَل السادة الغربيين !

فشريعتنا فى الحقيقة أكمل وأعدل وأغنى وأسبق من كل الشهادات التى يعترف بها لها المنصفون من غير أتباعها.

ولكن لا يمكننا الاستفادة من هذه الشريعة الكاملة وتلك الثروة الفقهية الطائلة ، إلا بالاجتهاد الأصيل . ولا يؤتى هذا الاجتهاد ثمراته إلا إذا قام على أساس جَماعى ، لا على أساس فردى . فالاجتهاد الجَماعى – فى صورة المجامع العلمية التى لا سلطان للحكومات عليها ، والتى تجمع صفوة العلماء القادرين من أنحاء العالَم الإسلامى– هذا الاجتهاد الجَماعى هو القادر على أن يبرز وجهة النظر الإسلامية ، وموقف الفكر الإسلامى من قضايا العصر ومشكلاته ، وهو الذى يمكن إلزام الأمة بمقرراته ، ونتائج بحوثه ، وأن سلطته تشبه أو تقارب سلطة « الإجماع » فى القرون الإسلامية الأولى .

---

(١) انظر فصل « ضرورة الاجتهاد » من كتابنا « شريعة الإسلام » ففيه تفصيل لما يجب أن يكون عليه موقفنا من التراث الفقهى ، ومن فهم النصوص القرآنية والحديثية ، إلى جانب الاجتهاد فى المسائل الجديدة ، فمن اللازم هنا مراجعته لتكوين فكرة كاملة عن رأينا فى الموضوع .

هذا هو معنى الحل الإسلامى ، أما أن يُستورد نظام من هنا أو هناك : ليبرالى أو اشتراكى أو مسيحى أو غيره ثم تؤخذ نصوص الإسلام من تلابيبها ، وتُسحب سحباً لتبرر الأوضاع الجديدة ، وتُضفى عليها الشرعية ، أو تُترك النصوص الصحيحة المتفق على قبولها . جرياً وراء نصوص ضعيفة السند ، مشكوك فى ثبوتها ؛ أو تُترك النصوص المحكمات الصريحة الدلالة ، اعتماداً على المتشابهات المحتملة . التى لا يركن إليها إلا الذين فى قلوبهم زيغ : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [1] .. أو تُترك النصوص الصحيحة الصريحة بلا برهان ، إلا أن يقال : إننا لم نأخذ بحرفية النصوص فإننا لم نخن روح الإسلام !

أقول : أما هذا كله فلا يُعَد حلاً إسلامياً قط ، وإنما هو تزوير على الإسلام ، وإهانة له ، وتغرير باسمه ، ويجب أن يُرفض رفضاً باتاً باسم الإسلام كل حل من هذا النوع .

* * *

٣ - حل متكامل لا يقبل التجزئة

ثالثاً : أن يؤخذ الحل الإسلامى كله لمشكلات الحياة ، وذلك أنه حلّ متكامل مترابط الأجزاء ، فأى إهمال لبعضه ، أو ترقيع فيه ، يؤثر على بقية الأجزاء . فهذا أشبه بقطع الغيار الغريبة التى توضع فى جهاز لا تلائمه ، فمهما تكن صالحة فى نفسها فإنها لا تنتج ، ولا تغنى فى هذا الجهاز ، لعدم انسجامها مع بقية أجزائه .

ومن هنا حذّر القرآن الكريم من أخذ بعض أحكام الله دون بعض ، وقرّع بنى إسرائيل على ذلك أشد التقريع ، حيث نفذوا بعض تعاليم كتابهم ، وتركوا بعضها ، فقال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْىٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] ..

(١) آل عمران : ٧ (٢) البقرة : ٨٥

وقال تعالى يخاطب رسوله فى شأن أهل الكتاب : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) ..

فهو إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ، ولن ينفى عن الحكم صفة الجاهلية أخذه ببعض أحكام الله ، فقلَّما تخلو جاهلية قديمة أو حديثة من موافقاتها لبعض أحكام الله فى بعض الأمور .

فالذين يأخذون بالحل الإسلامى فى بناء الحياة الزوجية ، ولا يأخذون به فى إنهائها (بالطلاق والخلع وغيرهما) ، والذين يأخذون بالحل الإسلامى فى تحريم الاحتكار وفى تقريب الفوارق ، دون الأخذ به فى احترام الملكيات الحلال ، وتحريم الربا ، وفرض الزكاة .... إلخ .. والذين يأخذون بالحل الإسلامى فى إقرار الملكية والميراث ، ولا يأخذون به فى طرق الكسب والإنفاق والتثمير للمال ، ولا فى أداء ما أوجب الله فى المال من حقوق لذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل وحاجات المجتمع . والذين يأخذون بالحل الإسلامى فى قطع يد السارق وجَلْد الزانى وشارب الخمر ، ولا يأخذون به فى محاربة الترف والسرف وإقامة العدل الاجتماعى . والذين يأخذون بالحل الإسلامى فى إقامة عدالة اجتماعية جزئية ، ولكنهم لا يعظمون شعائر الله ، ولا ينفذون شرائعه ، ولا يقيمون حدوده ، ولا يأمرون بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر . والذين يأخذون به فى إقامة الصلوات ، ولا يأخذون به فى إقامة النظم التربوية والتعليمية والتثقيفية والإعلامية والترفيهية ، على أساس من تعاليم الإسلام .

كل هؤلاء بعيدون عن الإسلام الحق ، الذى لا يقبل الله غيره ، ذلك بأنهم آمنوا ببعض الكتاب ، وكفروا ببعض ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (٢) .. أى فى شرائع الإسلام كافة .

---

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠ . (٢) البقرة : ٢٠٨ .

ولهذا بيَّنا فى حقيقة الحل الإسلامى : أنه الحل الذى يبرز به إلى حيِّز الوجود المجتمع المسلم بكل مقوماته ، وبكل خصائصه ، دون إهدار لشىء من هذه الخصائص أو تلك المقومات .

إنه لا بد من أخذ الإسلام كله بعقائده وتصوراته ، وشعائره وعباداته ، وأفكاره ومشاعره ، وأخلاقه وفضائله ، وآدابه وتقاليده ، ونظمه وتشريعاته ، لأن النصوص الدينية نفسها تحتم ذلك وتوجبه كما ذكر من الآيات المحكمات ، ولأن طبيعة المنهج الإسلامى تجعله وحدة لا تقبل التجزئة والانفصام .

ولأن طبيعة الحياة البَشرية نفسهامتشابكة متداخلة يتعذر الفصل بين أجزائها ونواحيها ، فبعضها يؤثر قطعاً فى بعض ، فلا يصلحها إلا منهج متكامل ينظر إليها باعتبارها كُلاً متماسكاً ، لا أجزاء . وتفاريق . وهذا هو منهج اللّه ، منهج الإسلام ، الذى لا يفصل الدولة عن الدين ، ولا الاقتصاد عن الأخلاق ، ولا الوازع القانونى عن الوازع الذاتى .

إن النظرة إلى الاقتصاد منفصلاً عن جوانب الحياة الإنسانية الأخرى نظرة قاصرة خاطئة .

فالاقتصاد يتأثر بعقائد الأمة ، وأخلاقها وثقافتها وتقاليدها وآدابها ، ولا يمكن اعتباره كُلاً مستقلاً ، ووجوداً قائماً بذاته .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة توضيحاً لما نقول :

١- لننظر إلى الأزياء والملابس كم تتطلب من جهود ونفقات من أجل الغلو فى تزيينها وترقيقها ، وخاصة أزياء السيدات « العصريات » التى تتغير فى كل سنة أربع مرات ، تبعاً لتغير الفصول . هل يمكن فصل ذلك عن أدب الإسلام فى اللباس والزينة ؟

كلا . فقد حرَّم الإسلام الإسراف فى المَلْبس ، كما حرَّم الإسراف فى كل شىء وكره ملابس الشهرة ، وكره للرجال لبس الحرير والمعصفر ، والتشبه بالنساء . كما كره للنساء أن يلبسن ما يصف ويشف عما تحته ، أو يجسم مفاتن البدن ، أو يلبسن لبسة الرجال .

وحظر الإسلام على المرأة التبرج ، والتزين للأجانب ، وجذب انتباه الرجال .

إن الإسلام يريد البساطة والاعتدال ، وينكر تلك المساخر فى أزياء النساء والرجال . ولا شك أن التزام آداب الإسلام وأحكامه فى الزى والزينة وما يتعلق بهما ، يوفر على الأمة نفقات هائلة ، تقدَّر بالملايين ، تذهب لوجه الشيطان من المساحيق والأصباغ والتفنن فى الأزياء ، وتبديلها ما بين فصل وآخر .

٢ - إن صحة الأجسام شرط أساسى لنمو الإنتاج فى شتَّى مجالاته . وانتشار الهزال والأمراض يُضعف من قدرة البدن على الإنتاج أولاً ، ويوجه مقداراً غير يسير من النفقات إلى محاربة المرض ثانياً .

وأكثر ما يودى بالأجسام هو تناول المسكرات والمخدرات ، وما يلحق بهما من ألوان « التبغ » ، ثم إسراف الناس فى الشهوات ، وفى السهر الطريل فى ألوان المتع واللهو المحظور أو المكروه .

ولو التزم الناس أحكام الإسلام وآدابه فى المأكل والمشرب ، والنوم واليقظة ، ونُفذت أوامر الإسلام فى محاربة الخمر والميسر ، واللهو الحرام ، والمتع الحرام ، لاحتفظ المجتمع بصحة أبنائه ، ووفَّر الملايين التى تنُفق على أم الخبائث والسموم المهلكة ، والشهوات المدمرة ، وما ينفق بعد ذلك على علاج ضحاياها ، وكان من وراء ذلك زيادة فى الإنتاج وانتعاش فى الاقتصاد .

ومما يؤكد هذا المعنى ما ذكرته جريدة الأهرام بتاريخ ٣ مايو ١٩٦٥.أن اثنين وسبعين مليوناً فى أمريكا يتناولون الخمور ، منهم عشرون مليوناً يكلِّفون الدولة بليونى دولار كل سنة ، والسبب هو تغيبهم عن العمل .

٣ - يُسرف كثير من الشعوب فى تشييد المقابر وتزيينها ، حتى عدَّ بعض أساتذة الاقتصاد الأمريكيين « اللحد المحترم » من الأغراض الأساسية التى يسعى الإنسان إلى تأمينها بجوار الغذاء والملبس والمأوى . وقد سرت هذه العدوى من قديم إلى المسلمين أنفسهم فى كثير من البلاد ، فاهتموا بالقبور وبنائها ، والغلو فى تفخيمها ، وخاصة إذا كانت لأناس من صلحاء الدين أو كبراء الدنيا .

أما تعاليم الإسلام الصحيحة فترفض كل غلو فى هذا الجانب ، فقد بعث النبى ﷺ علياً رضى الله عنه إلى اليمن ، وأمره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه بالأرض ، ولا تمثالاً إلا طمسه .

ونهى عن اتخاذ القبور مساجد ، أو إيقاد السُرُج عليها ، حتى تظل على بساطتها ورهبتها . فكل ما يُنفق فى هذه الناحية مال مضيع .

٤ - إن كثيراً من الناس يسرفون فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ، وفى تناول ما أحلّ الله لهم من طيبات الحياة بصفة عامة .

فترى من الناس مَن يجمع أمامه مائدة شهية تحتوى من الأطعمة على أضعاف ما يحتاج إليه ، وقد لا يتناول منها إلا القليل ، ثم يلقى بهذه الفضلات فى سلة القمامة .

وترى بعض الناس لا يشبع إلا إذا أبقى فضلة من طعام يقذف بها إلى حيث لا ينتفع بها أحد ، بل حيث تجلب القذر والمرض .

وترى بعض الناس يكفيه لتر من الماء مثلاً لغسل يديه ووجهه ووضوئه ، ولكنه لا يبالى أن يفتح الصنبور خمس دقائق يستهلك فيها عشرة لترات أو تزيد .

وترى بعض الناس يتركون المصابيح مضاءة فى النهار ، تستهلك مقادير كبيرة من الكهرباء بغير حاجة ولا مسوغ .

ويزداد هذا التبذير والإسراف إذا كان الأمر يتعلق بالمال العام . مال الجماعة ، مال الدولة ، فهنا يبلغ الإسراف حد الإتلاف ، ويبلغ التبذير درجة التدمير .

وغير هذا وذاك كثير ، وكل هذه أموال ضائعة . ولهذا كان سوء الاستهلاك دائماً هو « البالوعة » الواسعة التى تبتلع كل ما تأتى به زيادة الإنتاج ، ومحاولات التنمية ، وتذهب بها هباء .

وتربية الأفراد والشعوب على حسن الاستهلاك ، والاعتدال فى الإنفاق ،

لا يقدر عليه ، ولا ينجح فيه إلا حركة دينية ، تغرس فى ضمائر الناس تقوى الله فى السر والعلن . ومراقبته تعالى فى كل أمر ، وهذا ما نبّه عليه الاقتصاديون أنفسهم .

والإسلام هو الدين الأمثل ، الذى يُعلّم أتباعه الاعتدال ، ويربيهم على احترام كل مال قلّ أو كثر ، للفرد أم لغيره ، وينهى عن الإسراف فى كل شيء.

يقول الله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [1] ..

ويقول : ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّه كَفُوراً ﴾ [2] .. ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [3] ..

ويصف عباد الرحمن الذين وعدهم الله بالجنة ، يُلَقّون فيها تحية وسلاماً بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [4] ..

ويرى الرسول ﷺ بعض أصحابه يسرف فى ماء الوضوء ، فيقول له : « لا تسرف وإن كنتَ على نهر جارٍ » [5] وذلك ليكون الاقتصاد خُلُقاً له وديدنا .

ويوصى المؤمنين ألا يزيدوا فى غسل الأعضاء على ثلاث مرات فيقول : « ومَن زاد على ذلك فقد أساء وتعدى وظلم » .

ويوصى المسلم إذا أكل ألا يدع فضلة ترمى ، ويصوِّر ثواب هذا العمل الصغير فى أعين الناس تصويراً بليغاً أخّاذاً ، فيقول : « استغفرت القصعة للاعقها » .

٥ - إن الإيمان والاستقامة لهما أثرهما فى تحسين الإنتاج وزيادته ، وإن

---

(١) الأعراف : ٣١ (٢) الإسراء : ٢٦ - ٢٧ (٣) الإسراء : ٢٩

(٤) الفرقان : ٦٧ (٥) حديث شريف .

الشك العقيدى والانحراف السلوكى لهما أثرهما فى نقص الإنتاج وإضعافه كمّاً وكيفاً .

فالإنسان – الذى يتمتع بقوة اليقين وسكينة النفس ، والثقة بالله ، والأمل فى عدله ورحمته . ويلتزم بتعاليمه ، ويقف عند حدوده – يؤدى عمله – ولا شك – بكفاية وإحسان ، لا يهمل فى أداء واجب ، ولا يخون فى أمانة ، ولا يُقصِّر فى صيانة « عهدة » أو مال عام . بخلاف ذلك الذى لا يؤمن برقابة الله عليه ، ولا يؤمن بحسابه وجزائه فى دار بعد هذه الدار ، ولا يؤمن بشىء إلا ساعته الحاضرة ، ولذته العاجلة ، فمثل هذا لا تُسيرِّه إلا رقابة خارجية قوية . ولكن مهما تكن قوتها فلن تبلغ مبلغ الدافع الذاتى الذى يصنعه الإيمان [١] .

٦ – وإذا نظرنا إلى الانحراف أو الإجرام ومقاومتهما رأينا كم تكلف الحكومات من جهود ومن أموال ، بخلاف ما تُكبِّد الشعوب نفسها من آلام ومخاوف وخسائر منظورة وغير منظورة . نكتفى هنا بمثل نشرته جريدة الأخبار القاهرية فى ٥ يونيو ١٩٧١ نقلاً عن وكالات الأنباء ، قالت : صرّح السناتور « چون ماكليلان » – رئيس لجنة التحقيقات الفرعية بمجلس الشيوخ الأمريكى – بأن الجريمة المنظّمة تُكلّف الدولة أكثر من مائة مليون دولار كل عام .

وأضاف ماكليلان فى الجلسة الأولى للجنة : « إن التحقيق سيتركز – بصفة خاصة – على جرائم السرقة والمخدرات ، والمطبوعات الجنسية والقمار .. والجرائم الأخرى التى ترتكبها عصابات قوية منظّمة » .

فإذا كان هذا النوع من جرائم العصابات يُكلّف الدولة هذه المبالغ الطائلة ، فما بالك بكل أنواع الجرائم ؟

وكم يوفر الإسلام على المجتمع حين يربى الوازع الذاتى فى نفس صاحبه ،

---

(١) انظر فصل « الإيمان والإنتاج » من كتاب « الإيمان والحياة » للمؤلف .

فيمنعه من ارتكاب الجريمة ، ويدفعه دفعاً إلى التوبة إن أغواه الشيطان فارتكبها يوماً [1] .

وهذه التربية الفذة المؤثرة إنما يتوافر لها النجاح فى ظل الحل الإسلامى ، والنظام الإسلامى .

* * *

٤ - لا بد من عنوان الإسلام

رابعاً : لا يكون الحل إسلامياً إلا إذا أخذ باسم الإسلام ، وتحت عنوان الإسلام ، ولو افترضنا - وفرض المستحيل جائز كما يقال - أن قوماً حَكَموا أو حُكموا بتعاليم وشرائع توافق تعاليم الإسلام وشرائعه فعلاً ، ولكنهم أطلقوا عليها أسماء وعناوين أُخر ، ولتكن الديموقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية مثلاً ، هل نُعِد حكم هؤلاء حكماً إسلامياً ؟

لا .. ثم لا .

إن اللّه - تعالى - تعبدنا بأحكام هذا الدين ، فلا بد أن نشعر فى كل أمر ننفذه منها أننا نُحَكِّم دينه ، ونعمل بهَدْيه ، لنفوز برضوانه - سبحانه - ومثوبته .

ولا بد لنا أن نعتز بهذا المنهج الذى أكرمنا اللّه به ، وهدانا إليه ، ومن هنا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [2] ..

ولا عجب أن يطلب القرآن هذا الإعلان ، فإنه نوع من المغالاة والاعتزاز بالمبدأ ، وهو أمر لازم لتربية الأمم التى تقوم على نظام فكرى « أيديولوچى » مستقل .

---

(١) انظر فصل « الإيمان والأخلاق » من كتاب « الإيمان والحياة » للمؤلف .

(٢) فصلت : ٣٣

ولا عجب أن أمر الله رسوله الكريم بهذا الإعلان أيضاً فقال : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (1) .

والأمر المتكرر بـ « قُلْ » يعنى إعلان هذه الحقيقة وتأكيدها . إعلان الإسلامية الصريحة الخالصة ، التى لا شِرك فيها ولا ميل .

إن وضع عناوين غير إسلامية - كالاشتراكية والديموقراطية - للنظام الإسلامى ، يتضمن عدة مخاطر ومحاذير ..

أولها : هو الاعتراف لهذه المبادىء بالسمو والكمال ، بحيث يُنسب الإسلام إليها ، ويدخل تحت عنوانها ، فيصبح الإسلام بذلك تابعاً لا متبوعاً ، وذيلاً لا رأساً ، والإسلام من شأنه أن يَعلو ولا يُعلَى ، لأنه كلمة الله ، وكلمة الله هى العليا .

ثانيها : اقتضاء هذه المفاهيم إبراز جانب معيّن فى الإسلام ، وتضخيمه على حساب جانب آخر أو جوانب أخر .

فالإشتراكية تعنى إبراز الجانب الاقتصادى ، وخاصة جانب العدالة فى التوزيع .

والديمقراطية تعنى إبراز الجانب السياسى ، وخاصة جانب الشعب ، وحقه فى اختيار حاكمه ومحاسبته وتقويمه وعزله .

ولكن نظام الإسلام ليس اقتصاداً فقط ، ولا سياسة فحسب ، إنه نظام شامل متكامل ، يعمل على إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع . ويشمل الماديات والمعنويات ، ويضمّ الدين والدنيا معاً .

---

(1) الأنعام : ١٦١ - ١٦٣

ثالثها : تعريض القِيَم الإسلامية للتغير والهزات ، حيث تصبح كالعُملة فى الأسواق الحرة فى صعود وهبوط ، فإذا راجت الرأسمالية قام قوم ينادون : بأن الإسلام رأسمالى ، ويجب إباحة الربا ، وتبرير الاحتكار والبنوك وغيرها .

وإذا نفقت سوق الاشتراكية ، قام آخرون ينادون بأن الاشتراكية من الإسلام ، أو الإسلام من الاشتراكية ، ويدعون إلى « التأميم » المطلق وإلى غيره من بدع الاشتراكية .

رابعها : تبنى هذه المبادىء أو المفاهيم الكلية ، يتبعه - عادة - انحراف فى فهم الإسلام ، يتمثل فى محاولة تطويعه للأفكار الجديدة .

فالذى يتبنى الاشتراكية يجد فى الإسلام نقاط التقاء معها ، كمحاربة الترف والسرف ، وإشراك الناس فى ضروريات الحياة ، ومنع تملكها للأفراد ، وإنصاف الطبقات الضعيفة ، والحرص على أجور عادلة للعمال ، ونحوها .

ولكنه يجد حرصاً من الإسلام على حماية المِلْكية الخاصة المشروعة ، وتحريم مصادرة الأموال بغير حق ، فيلجأ من هنا إلى التعسف فى تأويل النصوص ، وتحريف الأحكام ، لتوافق مذهبه الذى تبناه .

خامسها : أن هذه العناوين والمصطلحات الفكرية والاجتماعية - كمصطلح الاشتراكية ليس له مدلول محدّد ، يمكن معرفته وضبطه والرجوع إليه ، ولكنه يُفسَّر بأكثر من تعريف ، ويخضع للتغيير والتحوير ، يقول الأستاذ « تاونى » : « إن الاشتراكية - كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسة المركبة - كلمة لا تختلف فى مدلولاتها من جيل إلى جيل فحسب ، بل من حقبة إلى حقبة » .

ويوضح الأستاذ « كول » التناقض الظاهر فى العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر ، وجيل ما بعده بقوله : « .. ولم يكن التباين فى العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب ، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التى وجدت فى عصر واحد » [(١)] .

---

(١) من كتاب « مستقبل الاشتراكية » ص ٩٢ - نقلاً عن « الاشتراكية والقومية » للدكتور يوسف عز الدين صفحة ٧٤

ويقول الأستاذ « نورمان ماكنزى » فى « موجز تاريخ الاشتراكية » :

« إن الاشتراكية كلمة عامة ، وإنها تعنى أشياء مختلفة ، عند أناس مختلفين ، حتى إن معانيها قد بلغت المائتين فى بريطانيا وحدها » [١] .

ولهذا نجد تبايناً واضحاً ، لاتجاهات الاشتراكية ، ما بين معتدلة ومتطرفة ، وديموقراطية وثورية ، ومثالية وعلمية ، وفابية وماركسية . بل رأينا دعاة الاشتراكية الواحدة يتناقضون ويتصارعون ، كما نشاهد بين الروس والصينيين ، وكلاهما اشتراكى ماركسى لينينى .

سادسها : إن هذه المذاهب ذات العناوين المعروفة لها خط غير خط الإسلام ، وهدف غير هدف الإسلام . فهى إن التقت معه فى بعض الأمور الجزئية والفرعية ستخالفه فى كثير من الكليات والأصول الجوهرية .

وحسبنا أنها كلها تعنى بأمر الدنيا وحدها ، غير حاسبة أى حساب لأمر الآخرة ، كما لا يعنيها من أمر الدنيا إلا الجانب المادى وما يتصل به ويؤثر فيه ، أما جانب الروح ، فليس له فى تقديرها وفلسفتها اعتبار يُذكر . حتى المذاهب التى لا تقوم فلسفتها على الإلحاد الصريح ، نراها لا تعير هذا الأمر كبير التفات .

وبهذا نتبين أن من التناقض الذى لا يقبل منطق أن نجعل مثل هذه المصطلحات عنواناً للإسلام ونظامه الفريد ، إلا أن يكون ذلك من باب الرخصة أو الضرورة فى مرحلة التحول إلى الإسلام الخالص . فهنا تُقدَّر الضرورة بقدرها .

* * *

٥ – أن يكون الإسلام غاية لا أداة ومطية

خامساً : لا يكون الحل إسلامياً إلا إذا كان الإسلام نفسه هو الغاية ، وإليه المنتهى ، وأن نجند كل الأنظمة والمناهج والوسائل والإمكانات لخدمته هو .

---

(١) الإسلام ومشكلات العصر – للدكتور مصطفى الرافعى صفحة ٢٢

أما أن يُتخذ الإسلام وسيلة لتثبيت حكم معيَّن أو يُستخدم لكسب قضية معيَّنة عسكرية أو سياسة ، أو أداة للدعاية لبلد ، أو لأسرة ، أو حزب ، أو عهد ، أو نظام ، أو مذهب ، فهذا يُعَد إهانة عظمى للإسلام ، وهو انحراف به ، وتمريغ لوجهه فى الطين ، حيث جعلناه خادماً ، وهو السيد المطاع ، وجعلناه آلة وهو الهدف المنشود ، والوجهة التى تُشَد إليها الرحال .

إنك لتجد قوماً يحتقرون الإسلام فى قرارة أنفسهم ولا يخطر ببالهم أن يتخذوا تعاليمه منهاجاً لحياتهم ، ولا يفكرون فى الاحتكام إليه إذا تنازعوا ، ولا يرضون به دستوراً لدولتهم ، ولا أساساً لمجتمعهم ، بل تجد منهم مَن يضع للناس المواثيق التى تخط للناس مناهج حياتهم ، وتصنع لهم مفاهيمهم وقِيَمهم ، وتضع لهم أفكارهم وموازينهم ، وتحدد لهم أخلاقهم وسلوكهم ، وبعبارة موجزة : تضع لهم « ديناً جديداً » بمناهجه وقِيَمه وأخلاقه ، يجمع خلاصة هذا الدين ومبادئه « كتاب » أو « بيان » أو « ميثاق » ، يحاط بهالة من الدعاية ، وألوان من التعظيم والتقديس ، لينسى الناس به كتاب اللّه الحق ، ودين اللّه الحق ، ومع هذا كله نجد منشئى هذا الدين الجديد ، يستخدمون دين اللّه السماوى ، لتثبيت دينهم الأرضى ، وكتاب اللّه المنزَّل ، لتأييد كتابهم الوضعى ، ويسحبون بعض علماء الدين السماوى من آذانهم ، ليبرروا أوضاعهم اللادينية ، بآيات تُحرَّف عن مواضعها ، وأحاديث يتجلى فيها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

ومن عجب أن بعض هؤلاء الحاكمين ، يحاربون كلمة الإسلام فى ديارهم ، ويخنقون أنفاس دعاته تحت سلطانهم ، ولكن لا بأس بإرسال نوع من الدعاة للإسلام فى بلاد أخرى بعيدة ، لا حباً فى الإسلام ، بل رغبة فى كسب سياسى رخيص ، عند الشعوب التى لم تزل توقد جذوة حماسها ، وتنفخ فى روحها كلمة الإسلام ، ودعوة الإسلام .

* * *

مكاسبنا من وراء الحل الإسلامى

لماذا ننادى بضرورة العودة إلى الإسلام ؟ وندعو إلى اتخاذ « الحل الإسلامى » أساساً لعلاج مشكلاتنا ؟ ومصدراً لتنظيم حياتنا ، ومناراً لهداية أمتنا ؟

إن بعض السذج من الناس يتصورون أن الحل الإسلامى لا ثمرة له ولا كسب من ورائه إلا فى الآخرة ، وأننا نريد الإسلام لننجو فقط من عذاب النار ، ونفوز بدخول الجنة .

ولا شك أن هذا مطلوب ، والفلاح فى الآخرة أعظم ربح يجب أن يحرص عليه الإنسان . فما ينبغى لعاقل أن يضيع باقياً دائماً بزائل فان . وما يجوز لذى لُبّ أن يحرص على السعادة فى عمره القصير المحدود وينسى الخلود الأبدى بعد هذه الحياة . وقد قال أحد الصالحين : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى . والآخرة خزفاً يبقى ، لوجب على العاقل أن يختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى . فكيف والدنيا هى الخزف ، والآخرة هى الذهب ؟! بل الحقيقة أن النسبة بين الدنيا والآخرة أكبر من النسبة بين الخزف والذهب بكثير .. ولكن الأمثال تُضرب للتقريب .

ومع هذا اقتضت حكمة الله أن ينوط بهذا الدين الذى شرعه لعباده - خير هذه الدنيا وأمنها أيضاً ، وسعادة الفرد والجماعة فيها ، وضمنَ لمن آمن به وتبعه حياة طيبة ، وعصمه من الضلال والشقاء : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (١) ..

ونحن حين ننادى بالحل الإسلامى اليوم نؤمن بأن فيه الخير كل الخير ، والفلاح كل الفلاح لمجتمعاتنا ، فى هذه الدنيا التى نعيش فيها .

---

(١) طه : ١٢٣

نحن نؤمن بالحل الإسلامى وندعو إليه ، لأنه - بجوار ما يكفله من سعادة الأبد - يحقق لنا فى حياتنا الحاضرة من المزايا والمكاسب والثمرات المادية والمعنوية الفردية والاجتماعية ما لا يحققه حل آخر ، يُتسَوّل من الشرق أو الغرب .

تُرى ماذا تكون هذه المزايا أو هذه المكاسب ، أو هذه الثمرات ؟ هذا ما نفصِّل الإجابة عنه فى السطور التالية ..

١ - تحقيق إيماننا ووجودنا الإسلامى

فى الحقيقة أن الحل الإسلامى هو الحل الفذ الذى نحقق به إيماننا ، ونثبت به وجودنا ، ونبرز فيه حقيقتنا ، فهو الحل الحتمى الذى لا نملك غيره ولا خيار لنا فى قبوله أو رفضه ، لأننا رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد رسولاً .

إن طبيعة الإيمان بالله تحتم على المؤمن الاحتكام إلى شرع الله تعالى مع الرضا به ، والتسليم له واعتقاد أنه العدل الذى لا جَوْر فيه ، والخير الذى لا شرّ معه ، والعلاج الذى لا شفاء في غيره ، وكل شك فى عدالة ما شرّع الله وفضّله على كل ما شرّع البشر وابتدعوا ، معناه الطعن فى علم الله تعالى وحكمته ، وخبرته بشئون خلقه ، وبرِّه بهم ، وإحسانه إليهم ، ومَن فعل ذلك فقد ظن بالله ظن السوء ، وظن الجاهلية ، فإنه تعالى بكل شىء عليم وهو بعباده خبير بصير ، وهو بهم رؤوف رحيم ، وهو يريد بهم الخير واليُسر ، ولا يريد لهم عنتاً ولا عُسراً . وكل مسلم يتلو هذه الآيات من كتاب ربه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ، وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (١) .. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدَ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ (٢) ،

---

(١) النساء : ٢٦ - ٢٨ (٢) البقرة : ١٨٥

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .. ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .. ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٤) ..

ومن ثَمَّ كان مقتضى الإيمان هو الإذعان لشرع الله تعالى ، والانقياد لحكمه وحكم رسوله مع الرضا والقبول والتسليم ، وفى ذلك يقول القرآن فى جلاء لا خفاء فيه ، ووضوح لا لَبْس معه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾ (٥) .. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

ومن لم يرض بحكم الله ورسوله فليس له إلا أن يرضى بحكم الطاغوت أياً كان اسم ذلك الطاغوت وعنوانه ومصدره ، إذ هما طريقان لا ثالث لهما : طريق الله وطريق الطاغوت . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (٧) .. إلى أن يقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٨) ..

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) البقرة : ٢٢٠ (٣) النساء : ١٧٦

(٤) الملك : ١٤ (٥) الأحزاب : ٣٦ (٦) النور : ٥١

(٧) النساء : ٦٠ - ٦١ (٨) النساء : ٦٥

ولا يستطيع أحد - بالغاً ما بلغ من مركز - أن يزعم أن جماهير هذه الأمة قد كفرت بدينها ، أو جحدت بقرآنها ، أو تنكرت لمحمدها ، وهى لا زالت - فى مجموعها - تؤدى الصلاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله الحرام ، وتتلوا كتاب الله ، وتسمع إليه صباح مساء .

ولقد ظلّت هذه الأمة ثلاثة عشر قرناً ، تُحكم بشرائع الإسلام - على سوء فى الفهم ، أو سوء فى التطبيق ، فى كثير من الأحيان - ولكنها لم تعلن يوماً ما تمردها على أحكام ربها ، حتى جاء الاستعمار التبشيرى ، أو التبشير الاستعمارى فإذا هو يعمل بالقوة حيناً ، وبالحيلة أحياناً على زحزحة هذه الأمة عن منهج ربها وأحكام دينها وشريعتها فى مختلف ميادين الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ويفرض عليها أفكاراً وأحكاماً دخيلة عليها ، غريبة عنها ، وكان المفروض والمتوقع أن تتحرر الأمة من نير الاستعمار الفكرى والتشريعى عقب تحررها من الاستعمار العسكرى والسياسى ولكن مما يؤسف له أن الذى حدث غير ذلك .

فإن شر ما صنع الاستعمار فى بلادنا ليس نهب خيراتنا ، وامتصاص أرزاقنا ، وتعويق نهضتنا فحسب ، بل شر من ذلك كله هو العقليات القيادية التى أنشأها فى ظل سلطانه وأرضعها من لبانه ، ورباها على كراهية الإسلام واحتقاره ، واعتقاد أنه لا يصلح لقيادة الحياة ، وتنظيم الدولة ، وبناء المجتمع ، وأن أقصى حدوده أن يكون صلة بين العبد وربه فلا يجوز أن يتجاوز سلطانه المسجد أو الزاوية أو الخلوة ، ولا يُباح له أن يدخل معترك الحياة قائداً أو موجهاً أو حاكماً . وقد أتاح الاستعمار لهذه العقليات العلمانية أن تسود المجتمع وتقود القافلة ، وتحكم الحياة الإسلامية ، وتصبغ وجه الأمة بغير صبغة الله التى رضيها لعباده .

فلا عجب أن رحلت عساكر الاستعمار عن أكثر بلاد المسلمين ، ولكن لم ترحل مخلفاته وآثاره الفكرية والنفسية والاجتماعية ، ووجدنا الذين يحكمون الشعوب الإسلامية - بعد الاستقلال - « خواجات » بغير « قبعات » أى أن الوجوه والأسماء هى التى تغيّرت وأما الغاية والوجهة فهى هى ، والطريق

هو هو .. الغاية ليست الله ولا الآخرة ولا الإيمان ، والطريق ليس هو تربية الإسلام ولا ثقافة الإسلام ولا تطبيق أحكام الإسلام .

ولكن هل رضيت جماهير الأمة الإسلامية عن هذا الاتجاه ؟

لا والله . إن جماهير الأمة لتنكر هذا كل الإنكار ، وإنها لا زالت تحب الله ورسوله وكتابه . إنها لتعلم حق العلم أن سعادتها - دنيا وأخرى - فى اتباع دينها والاهتداء بكتاب ربها ، وسُنَّة رسولها ، وتحكيم أمر الله فى شئون حياتها ، وإقامة حدوده عليها . وأن الشقاء والجوع والخوف والمعيشة الضنك - فضلاً عن عذاب الله فى الآخرة - هو جزاء كل مَن أعرض عن هُدَى الله تعالى وحكمه وشرعه ، وانحرف عن طريقه ونبذ كتابه وراءه ظهرياً .

تؤمن جماهير الأمة الإسلامية بذلك أعمق الإيمان ، وتذكره كلما أصابتها الكوارث ، وأطبق عليها البلاء . وكيف لا والله تعالى يقول : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) ..

ويقول جل شأنه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّه فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَة عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُله فَحَاسَبْنَاهَا حسَاباً شَديداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ (٣) ..

ونحن نتحدى كل حاكم وكل معارض أن يستفتى الأمة المسلمة استفتاءً حراً نزيهاً مباشراً على هذا الأمر الجلل ، أنُحكم بالقرآن أم بغير القرآن ؟

هذه أخطر قضية فى حياة المسلمين المعاصرة ، ولكن مما لا ينقضى العجب منه

---

(١) طه : ١٢٣ - ١٢٤ (٢) النحل : ١١٢ (٣) الطلاق : ٨ - ٩

أن تُعزل الأمة الإسلامية ، ولا يُرجع إليها فى شأنها ، ولم نجد بلداً إسلامياً واحداً فى عهد احتلاله أو استقلاله استفتى شعبه - ولو مرة واحدة - فى هذا الأمر الخطير ، الذى هو أمر حياة ومصير .

إن الحل الإسلامى وحده هو الذى يزيل التناقض الظاهر فى حياة المسلم ، والصراع الداخلى فى نفسه وفكره . فهو بحكم التزامه بالإسلام منهجاً من عند الله ، يؤمن بوجوب الاحتكام إليه عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاقاً وآداباً ، وقِيَماً وموازين ، ولكنه يجد الحياة من حوله تُوَجِّه توجيهاً آخر ، إن لم يُعاد الإسلام صراحة أو خفية ، فهو يسقطه من الحساب ، ويهدر اعتباره فى التشريع والتوجيه والتربية والتثقيف ، والمسلم فى حيرة واضطراب فى داخل نفسه من أجل هذا التناقض والازدواج الغريب فى حياته .

أليس من العجب العاجب أن يجد المسلم نفسه مضطراً إلى التحاكم إلى قوانين تخالف شريعته ، وإلى مطالعة صحف تضطهد فكرته ، وإلى سماع إذاعات تناقض اتجاهه ، وإلى مشاهدة « تليفزيونات » و « سينمات » ، هو ساخط عليها فى قرارة نفسه ؟

إنه يتزوج على كتاب الله وسُنَّة رسوله ، ولكنه يُلبِس زوجته زياً لا يرضاه الله ورسوله . إنه يدفع ضرائب باهظة للحكومة ، ولكنه لا يجد متسعاً لدفع الزكاة المفروضة عليه من ربه . إنه يعتقد حُرْمة الربا ، ولكن عجلة الحياة الاقتصادية - التى صُنِعت له - ستدوسه إذا لم يتعامل به .

هذا الحلّ - إذن - هو الذى ينجينا من الإثم ، وينقذنا من سخط الله وعذابه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ويسألنا عما أنزل علينا من كتاب أحكمت آياته : ماذا كان موقفنا منه : اتخذناه مهجوراً ؟ أم جعلناه لنا إماماً ودستوراً ؟

هذا الحل هو الذى نستحق به تأييد الله وبركته ومعونته ونصره ورزقه وتمكينه ، إذ نكون بذلك قد اتقيناه ونصرناه ، واتبعنا هداه ، واستقمنا على

طريقه . وقد قال تعالى ، وقوله الصدق ووعده الحق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ (١) .. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾ (٣) .. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٤) ..

وقد يكون هذا الكلام غريباً فى منطق المادية التاريخية والماديين الجدليين ، وقد يُعَد غير « علمى » فى لغتهم ، ولكن فى نظر المؤمنين متفق كل الاتفاق والعلم والحق والمنطق السديد : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ، لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) ..

* * *

٢ - إقامة التوازن فى حياتنا

والحل الإسلامى وحده هو الذى يحقق التوازن المقسط فى حياتنا الفردية والاجتماعية . فلا تميل به كفة الميزان فى جانب من الحياة على حساب جانب آخر . ذلك أن هذا الحل - من الناحية الموضوعية - هو الحل العادل الوَسَط المتوازن ، الذى برىء من التطرف ، والاندفاع الأعمى إلى اليمين أو اليسار ، فسلم من تفريط الرأسماليين الذين جاروا على حق المجتمع من أجل حرية الفرد ، ومن إفراط الاشتراكيين الذين طغوا على حق الفرد من أجل مصلحة المجتمع ،

---

(١) الطلاق : ٢ - ٣ (٢) الأعراف : ٩٦ (٣) الجن : ١٦
(٤) الحج : ٤٠ - ٤١ (٥) الروم : ٦ - ٧

وسلم من غلو الفريقين فى الاهتمام بالمادة على حساب الروح ، وبالدنيا على حساب الدين ، وبالشهوات على حساب الأخلاق .

وسر الانحراف والاعوجاج والطغيان فى الحلّين الرأسمالى والاشتراكى يرجع إلى أمر واضح بسيط لمن يتدبر . ذلك أن كل حل من هذين جاء نتيجة بيئة معيَّنة ، وعصر خاص ، وملابسات موقوتة .. جاء نتيجةً لانحرافات بارزة ، وألوان من الطغيان قاسية ، أفضت إلى ثورات واندفاعات بَشرية مضادة ، كل همها أن تحطم القديم الماضى ، وتقضى على كل آثاره وتوابعه ، ولم يكن القديم كله شراً ، ولم يكن كله فساداً ، ولكن الثورات - بطبيعتها - لا تبقى ولا تذر ، ولا تصبر على التمييز بين ما يجب أن يبقى وما يجب أن يزول . كل همها هو « التغيير الثورى » تغيير القيَم والمفاهيم والأخلاق والأوضاع القديمة بقيَم ومفاهيم وأخلاق وأوضاع جديدة . ولو عقلوا لعلموا أن القِدَم ليس عيباً فى ذاته ، والجدة ليست مزية فى نفسها . فكم من قديم نافع أعظم النفع ، وكم من جديد ضار أشد الضرر . على أن القِدَم والجدة أمر نسبى ، فقديم اليوم كان جديداً بالأمس ، وجديد اليوم سيصير بعد حين قديماً . وعند ذلك تجب الثورة عليه أيضاً ، ومحوه وتغييره بجديد آخر . وهكذا يصبح مرور الزمن وحده هو الحاكم على الأشياء بعدم الصلاحية للبقاء ، فليس هناك قيمة ثابتة ، ولا حقائق دائمة ، ليس هناك خير وشر ، وليس هناك فضيلة ورذيلة ، وليس هناك حق وباطل ، وإنما هناك - فقط - قديم وجديد ، والقديم هو الباطل والجديد هو الحق ! فما أسخف هذا التفكير وما أضله عن سواء السبيل !!

إن الفَرْق بين الحل الإسلامى العادل وبين الحلول البَشرية القاصرة ، هو الفَرْق بين الألوهية الكاملة ، والبَشرية الناقصة .. الألوهية التى تعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) .. والبَشرية التى تعلم من يومها شيئاً وتغيب عنها أشياء ،

(١) آل عمران : ٥

والتى تجهل ماذا يخبئه الغد القريب فضلاً عن البعيد .. الألوهية الحكيمة العادلة ، والبَشرية العجول الظلوم ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ (١) ..

فالقرآن يهدى إلى أقوم المناهج وأعدل الطرق ، لأنه كتاب الألوهية الحكيمة ، أما الإنسان فهو مخلوق ينفعل ويثور ويغضب فيدعو بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً .

إن الحلّ الإسلامى هو الصراط المستقيم الذى لا عوَج فيه ولا انحراف ، والطريق المستقيم هو أقرب موصل إلى الهدف ، والطرق الملتوية المتعرجة قد تبعد الإنسان عن الهدف نهائياً ، وقد تصل به إليه بعد أن يقطع من المفاوز والمهالك ما يذهب بقوته ، وراحته وهنائه . وطرق البَشر ينقصها الاستقامة والاعتدال ، كلها لا تخلو من انحراف إلى اليمين أو اليسار . كلها يميل إلى الإفراط والتفريط ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك موقف البَشر - من قديم الزمان - من الفردية والجَماعية (أى الاشتراكية) ، ومن الروحية والمادية ، ومن الثبات والتطور .

فمنذ عصر اليونان - كما ذكر الأستاذ صلاح الدين السلجوقى فى محاضرة له (٢) - قام صراع فكرى بين العقيدة الفردية والفكرة الاشتراكية ، إلى درجة التبس فيها الأمر على المفكرين : هل الإنسان فى طبيعة حاله ، كائن اجتماعى أو كائن فردى ، أو أيهما أقوى : فردية الفرد أم اجتماعيته ؟ .

---

(١) الإسراء : ٩ - ١١

(٢) بعنوان : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ألقيت بقاعة المحاضرات بالأزهر . ونشرت ضمن الموسم الأول .

« كان أفلاطون يعتقد أن الإنسان اشتراكى أكثر منه فردياً . وحينما حاول أن يضع كتابه عن الفلسفة الخُلُقية ، لم يجد سوى أن يكتب كتابه المعروف باسم « الجمهورية » لأنه لم يكن قادراً على مشاهدة الإنسان فى غير مرآة المجتمع أو الجمهور .

« ولما جاء تلميذه أرسطو لم يخالف أستاذه أفلاطون إلا فى شيئين ، الأول : فى مسألة « المثل » ولكنه فى آخر الشوط اتخذ من المُثُل الأفلاطونية أساساً لعلم المنطق . والثانى : فى اشتراكية الفرد . فأرسطو - خلافاً لأستاذه أفلاطون - يعتقد أن الإنسان فردى أكثر منه اشتراكياً .

« فصراع الفيلسوفين الكبيرين لم يكن ليحل المعضلة ، بل زاد فى شقة الخلاف بين الفكرتين ، ولم يكن هنالك أى مرجح لإحداهما ، لأن أفلاطون كان بطبيعة حاله من طبقة الفقراء المعدمين ، بينما أرسطو - فى تربيته - كان من الأمراء المترفين . وظل هذا الصراع مستمراً بين الأكاديمية الأفلاطونية وبين مدرسة المشّائين لأرسطو .

« وكان هنالك دور اليهود المشردين فى الأرض . لقد جمعوا رؤوس الأموال ، وأخذوا الربا وعملوا على الاحتكار والاستثمار . وكلها أمور تؤيد الفردية .

« وكان هنالك قياصرة فى الغرب وأكاسرة فى الشرق ، وأباطرة فى مصر واليونان ، دعموا بنظمهم روح الفردية

« حتى جاء المسيح عليه السلام ، وكان من بين دعوته « نجاة الفرد » ، وبعد المسيح حذت الكنيسة فى تفكيرها حذو أرسطو ، فطغت الفردية طغياناً جارفاً . ولكن اللّه المقسط وضع سُنّته ونظامه الطبيعى والأدبى بالقسط . فكلما خرج شىء من العالم الطبيعى أو الأدبى عن القسط والاعتدال ، أنتج عكس العمل واندفع إلى الضد .

« وهكذا وقع صراع عملى ، بل ودموى ، بين الفردية والاشتراكية ، كما كان هناك صراع فكرى منذ زمن بعيد . فقام « مزدك » المعروف فى فارس بفكرة

اشتراكية بحتة على مستوى الشيوعية ، وكانت هناك ضجة كبرى وصدام عنيف قبل ميلاد سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام بقليل .

« إن المسائل الفلسفية المرتبطة بالطبيعة والعناصر والأجسام والأفلاك ، إذا وقع بشأنها خلاف بين العلماء والفلاسفة ، فلا يترتب عليه أي أثر اجتماعي .. وأما الأمور المتعلقة بالفلسفة الاجتماعية ، كمسألة فردية الإنسان واشتراكيته ، فهي من المسائل التي تفضي إلى النزاع ، بل إلى الصدام الدموي . والدين في ذاته هو الحجر الأساسي للعلوم الاجتماعية ، وهو الذي يقرر علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقة الإنسان بالمبدأ المقدس الذي هو عين الحق ومصدر الخير وينبوع الجمال .

« لهذا بعث اللّه محمداً عليه والصلاة والسلام ، وأنزل عليه الفرقان الذي قضى على الإفراط والتفريط في الفردية والاشتراكية ، وهما اللذان كانا على صراع دائم ولا يعرفان الوَسَط » ا هـ .

وفي العصر الحديث قام النزاع ، واشتد الصراع مرة أخرى بين الفردية والجَماعية في المجالات الفكرية والعملية كما نرى ذلك واضحاً في تاريخ الفكر الغربي الحديث .

فقد كانت النزعة الفردية (L'individualism) قوية في القرن الثامن عشر – كما ظهر ذلك في المذاهب الأخلاقية الكبرى ، فقد اتجهت إلى ذات الفرد مهملة سُلطة المجتمع .

ولكن القرن التاسع عشر قد تصدى لمقاومة هذه الفردية وتغليب النزعة الجَماعية ، وكان من دلالات هذا أن نهض « كونت » بإقامة علم الاجتماع والانتصار لسُلطة المجتمع رداً على الفردية التي اعتقد أنها كفيلة بنشر الفوضى والتحلل .

وفي مطلع القرن العشرين ارتد المفكرون إلى الفردية ، ونشأ المذهب التاريخي (L'historicisme) على يد « بندتو كروتشه » ١٩٥٢ ، و « آرون »

وبه أصبح نشاط الذات مركزاً يدور حوله كل شىء ، فإذا كان « كونت » وأقرانه من مفكرى القرن التاسع عشر قد زعموا أن التاريخ يوجه الفرد ، فإن أصحاب المذهب التاريخى يقولون : إن الفرد هو الذى يحدد معنى التاريخ .

واشتدت صيحات الاحتجاج على طغيان المجتمع على حرية الفرد ، وتجلى هذا عند القصّاصين والفنانين والاقتصاديين ممن رفضوا سيطرة الحكومة والهيئات على النشاط الاقتصادى ، ورأوا فى حرية التصرف عند الفرد مصدر ثراء لا يخفى . وجرى فى التيار طلاّب الحرية السياسية والداعون إلى حقوق الإنسان ، وفى ميدان علم الاجتماع تجلى الخلاف بين « دوركايم » و « تارد » فى مطلع القرن العشرين ، فجاهر تارد – رداً على دوركايم – بإرجاع الظواهر الاجتماعية إلى الظواهر النفسية المتبادلة بين الأفراد . عن طريق التقليد الذى يوجد بين الأفراد ، ويجعل الضمير الاجتماعى مجرد انعكاس لضروب مختلفة من هذا التقليد .

ويقول « إميل بريبيه » : إننا إذا أخذنا بوجهة النظر التى قال بها « چورچ چورفتش » فى مؤلفه الحديث « الاتجاه الحالى لعلم الاجتماع » قلنا : إن المناقشة فى موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع قد أصبحت اليوم غير ذات موضوع فمن المستحيل أن ننظر اليوم إلى الفرد والمجتمع ، كما لو كان كل منهما منعزلاً عن الآخر ومستقلاً بذاته .. وقد انتهى « چون ديوى » بعد البحث فى آراء الكثيرين من علماء الاجتماع المعاصرين ، إلى أن لفظى الفرد والمجتمع غامضان غموضاً شديداً ، وأن هذا الغموض سيستمر قائماً طالما اعتبر الفرد والمجتمع لفظين متضادين .

وقد رفض المعاصرون من علماء الاجتماع – فرنسيين وأمريكيين – رأى دوركايم الذى اعتبر فيه الفرد دمية يحرك المجتمع خيوطها ، وتخضع لنظام لا دخل لها فى وضعه إطلاقاً ، فذهب « مارسل موس » إلى أن الإنسان يتصف بجميع الصفات التى يتصف بها المجتمع بأكمله . وصرّح « كيفلييه » فى كتاب وضعه حديثاً تحت عنوان : « محصل علم الاجتماع » بأن الفضل فى إيضاح العلاقة

بين الفرد والمجتمع مرده إلى علماء النفس الذين عالجوا البحث فى المشكلة الخاصة بمعرفة الآخرين . فرفضوا الرأى الذى ذهب فيه علم النفس التقليدى إلى أن معرفة الآخرين تتم نتيجة استدلال يقوم على المقارنة ، واعتبر شعورنا عالماً صغيراً مغلقاً ، فذهب المعاصرون من علماء النفس إلى أن الطبيعة البَشرية لا توجد كاملة منذ ولادة الإنسان ، بل يكسب الإنسان وجودها بالتدريج أثناء حياته فى المجتمع .. وصفوة القول إن الفرد فى نظر المعاصرين من الاجتماعيين والسيكولوچيين مركب تركيباً اجتماعياً يتعذر الفصل بين أجزائه » [١] .

وهكذا انتهى الفكر المعاصر المعتدل - بعد لأى وجهد - إلى ما جاء به النبى الأُمِّى محمد بن عبد اللّه منذ أربعة عشر قرناً ، من المنهج الوسط الذى وازن بين الفرد والمجتمع ، فى الحقوق والواجبات بلا إفراط ولا تفريط وأقام على هذا المنهج الأمة الوَسَط التى كانت خير أمة أُخرجت للناس .

* * *

٣ - علاج المشكلات من جذورها

إن الحل الوحيد الذى يعالج المشكلة من جذورها ، ويتناولها من جميع زواياها فلا يكتفى بالطفو على السطح ، ولا يعالج البثرات التى تظهر فوق الجلد على حين يمور الجوف بأسباب الداء .

إنه يعنى بالجانب الاقتصادى فى الحياة ، والجانب المادى فى الإنسان ، ويعنى عناية كبيرة بتدبير المعيشة ، وزيادة الإنتاج ، والمحافظة على الأموال التى جعلها اللّه للناس قياماً ، والعمل على تنمية الثروة ، والعدل فى توزيعها ، ويعمل على تحقيق التأمين الاجتماعى والتكافل الاجتماعى ، كما يهتم بالجسم الإنسانى وصحته وقوته ، ولكن لا يرتضى ذلك غاية للمسلم ومحوراً لحياته ، ولا يجعله أكبر همه ومبلغ علمه .

---

(١) الفلسفة الخُلُقية - نشأتها وتطورها - للدكتور توفيق الطويل .

الحياة ليست اقتصاداً فحسب ، وليست كل مشكلتها نقص الإنتاج ، أو سوء التوزيع . وليس الإنسان مجرد « حيوان اقتصادى » كما يزعم المتطرفون ، كل همة إشباع رغباته المادية ، وكل عمله البحث عن وسائل إشباعها ، فإذا زدنا الإنتاج ، ونظمنا توزيع السلع والخدمات ، فقد انحلت العقدة ، وارتفعت الشكوى ، وطابت الحياة وسعد الإنسان !

لقد نسى هؤلاء أن النفس الإنسانية ، وما تملكه من فكرة عن الوجود ونظرة إلى الحياة ، ومثل للسلوك ، هى العامل الأول ، الذى بدونه يفشل كل حل ، وينتكس كل علاج ، ولقد كان الشاعر العربى القديم أدق نظرة وأعمق فكرة ، من هؤلاء الذين يدّعون العلم والخبرة بشئون الناس والحياة ، حيث قال :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !

وما أصدق القرآن الكريم حين بيّن سُنّة اللّه تعالى : أن التغيير المادى للجماعات إنما يتبع تغيير أنفسها (على عكس الماركسية تماماً) . فإذا أردنا تغيير حياتنا الاقتصادية إلى حياة أفضل فلنغير حياتنا النفسية ، فلنغير أخلاقنا وأفكارنا وسلوكنا أولاً إلى ما هو أهدى وأقوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [1] ..

إن عيب تلك الحلول المستوردة كلها أنها حلول مادية محض ، لا يهمها فى الحياة إلا الجانب الاقتصادى ، ولا يعنيها من الإنسان إلا دنياه العاجلة ، وإلا غلافه الجسدى وغرائزه الحيوانية ، فأما الدار الآخرة وحسابها ، وأما الروح وأشواقها وتطلعاتها إلى عالم الخلود والكمال ، وظمؤها إلى الاتصال بالملأ الأعلى ، والقُرب من رب العالمين ، الرحمن الرحيم - فهذا شىء لا يخطر لهذه الأنظمة والمذاهب الجديدة على بال ، هذا إن لم تنكره وتطارده وتضطهده وتُضيِّق عليه الخناق فكراً وعملاً .

---

(١) الرعد : ١١

عيب تلك الحلول البَشرية أنها دائماً قاصرة وعاجزة عن النظرة الشاملة ، والنفاذ إلى الأعماق ، والإحاطة بجميع الجوانب ، فهى جزئية ، ووقتية وموضعية وسطحية وناقصة ، وهذا شيء « ذاتى » فيها لا أمر عارض لها ، وما بالذات لا يتخلف ، كما يقول أهل المنطق . ذلك لأن هذا القصور يرجع إلى طبيعة الذين وضعوها وإلى حدود طاقتهم وإمكاناتهم ، أى يرجع إلى طبيعة الإنسان .

« فالإنسان لأنه أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان ، إذ هو حادث فى زمن ، يبدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث ، ومتحيز فى مكان ، سواء أكان فرداً ، أو كان جيلاً ، أو كان جنساً ، لا يوجد إلا فى مكانه ، ولا ينطلق وراء المكان ، كما أنه لا يوجد إلا فى زمان - ولا ينطلق وراء الزمان ، ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة ، والإدراك ، يبدأ علمه بعد حدوثه ، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كينونته فى الزمان والمكان ، وحدود وظيفته كذلك ، ولأنه - فوق أنه محدود الكينونة بهذه الاعتبارات كلها - محكوم بضعفه وميله ورغبته ، فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله .

« الإنسان - وهذه ظروفه - حينما يفكر فى إنشاء تصور اعتقادى من ذات نفسه ، أو فى إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك - يجىء تفكيره محكوماً بهذه السمة التى تحكم كينونته كلها ، يجىء تفكيره جزئياً : يصلح لزمان ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر ، ويصلح لحال ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر .. فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه ، وجميع ملابساته وأطواره ، وجميع مقوماته وأسبابه ، لأن هذه كلها ممتدة فى الزمان والمكان ، وممتدة فى الأسباب والعلل ، وراء كينونة الإنسان ذاته ، ومجال إدراكه .. وذلك فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى ، وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان .

« لذلك لا يمكن أن تجىء فكرة بَشرية ، ولا أن يجىء منهج من صنع البَشرية ، يتمثل فيه الشمول أبداً ، إنما هو تفكير جزئى وتفكير وقتى ، ومن جزئيته يقع

النقص ، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذى يحتم التغيير ، ويتمثل فى الأفكار التى استقل البَشر بصنعها ، وفى المناهج التى استقل البشر بوضعها دوام « التناقص » أو دوام « الجدل » المتمثل فى التاريخ الأوروبى .

فأما حين يتولى الله سبحانه - ذلك كله .. فإن التصور الاعتقادى ، وكذلك المنهج الحيوى المنبثق منه ، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصفة البَشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت » [١] .

وهكذا كان الحل الإسلامى - وهو ربانى المصدر - متميزاً بشمول النظرة وعمقها إلى الحياة بجميع جوانبها ، وإلى الإنسان بجميع خصائصه وجميع حاجاته الظاهرة والباطنة ، المادية والروحية ، الفردية والاجتماعية ، لأنه لا يحيط بجميع خصائص الإنسان ، وجميع حاجاته إلا خالق الإنسان ، ورب الإنسان : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [٢] ..

الحل الإسلامى هو الذى يتجاوز الجانب المادى إلى الجانب النفسى والمعنوى ، فيوجه عناية بالغة إلى « الكائن الداخلى » فى الإنسان ، إلى تلك المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

القلب هو تلك اللطيفة الربانية التى بها يحس الإنسان ويشعر ، ويحلّق ويدرك بالبصيرة ما لا يدرك بالبصر ، ويفقه من الحقائق ما لا يستوعبه المنطق : ﴿ فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ [٣] .. ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [٤] .. ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٥] .. « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٦] ..

---

(١) خصائص التصور الإسلامى للشهيد سيد قطب ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) الملك : ١٤ (٣) الحج : ٤٦ (٤) سورة ق : ٣٧

(٥) الشعراء : ٨٨ -٨٩ (٦) رواه مسلم .

ذلك القلب الذى لا يستشعر الطمأنينة إلا بمعرفة الله تعالى وذكره ، والاعتصام به ، ولا تهب عليه نسمات السكينة المنعشة إلا من رياض الإيمان بالله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٢) ..

الحل الإسلامى هو الحل الوحيد الذى يقوم على أساس من العلم بحقيقة الإنسان والاعتراف بالواقع والفطرة ، ولهذا يعترف بهذا الكائن المعنوى فى الإنسان « القلب » أو « الروح » أو « الضمير » ويسعى لرى ظمئه ، وإشباع نهمه ، وقضاء وطره ، بذكر الله تعالى وشكره ، وحُسن عبادته ، ويعده لحياة الخلود فى الآخرة ، فهو حل يصل الدين بالدنيا ، وينير العقل والقلب ، ويبنى المسجد مع المصنع ، ويُعلى المئذنة كما يُعلى المدخنة ، وبهذا تتكامل الحياة ويسود التوازن ، وتسير فيها الروح والمادة جنباً إلى جنب ، والاقتصاد والعبادة كتفاً إلى كتف ، والدنيا والآخرة قدماً إلى قدم : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (٣) ..

إن أثمن ما على هذه الأرض وما فيها ليس قمحها وفاكهتها ، ولا نفطها وحديدها ، ولا فضتها وذهبها ، إن أثمن ما فى الأرض وما عليها هو الإنسان ، الإنسان الذى كرّمه الله وجعله فى الأرض خليفة ، الإنسان الذى سَخَّر كل ما فى الأرض وما فوقها لخدمته ومنفعته . وأثمن ما فى الإنسان ليس هيكله العظمى وما يكسوه من لحم ، وما يحتويه من عصب ، وما يجرى فى عروقه وشعيراته من دم ، فربما كان لبعض الحيوانات هياكل أقوى وأضخم مما للإنسان .

---

(١) الرعد : ٢٨ — (٢) الفتح : ٤ — (٣) النور : ٣٧

إن أثمن ما فى الإنسان روحه وقلبه الذى ميّزه اللّه به على غيره وجعله جهازالاتصال الذى يصله بالسماء ، ويدنيه من ربه الذى فتح له بابه ، ولم يجعل عليه حارساً يرد الطارقين أو يزجر السائلين ، بل يقول فى كتابه الخالد : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (١) .. ويقول فى حديثه القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرّب إلىّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعاً تقرّبتُ إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » (٢)

قد يقول السطحيون : ما دخل هذا الكلام فى علاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ؟

ونقول : إن أساس المشكلة كلها هو الإنسان . وكل علاج لها يتجاهل حقيقة الإنسان وحاجات روحه وأشواق قلبه ، إنما هو علاج سطحى ، أشبه بالأقراص المسكنة ، والأدوية المخدرة ، التى تهدىء الألم ساعات من الزمن ، ولكنها لا تقتلع جرثومة الداء ، ولا تصل بالمريض إلى نهاية الشفاء .

إن الذين نظروا إلى الإنسان باعتباره « حيواناً منتجاً » أو « كائناً اقتصادياً » لا غير (٣) ، كل عمله أن ينتج ويستهلك ، وكل همه أن يأكل ويتمتع ، قد جهلوا الإنسان أكبر الجهل ، وبخسوه حقه أعظم البخس ، وأساءوا إليه أعظم الإساءة ، وكان من نتيجة جهلهم بحقيقة الإنسان أنهم لم يستطيعوا أن

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) رواه البخارى .

(٣) أقام ماركس نظريته على أساس أن الإنسان حيوان منتج ، وبالتالى أصبح الإنتاج أعظم مقومات الحياة فى المجتمعات البشرية ، وأصبح أسلوب الانتاج الذى يتألف من القوى المنتجة وعلاقات الانتاج هو العامل الحاسم فى سير التاريخ وتوجيه أحداثه . ولكن بعض نقاد ماركس قد لاحظوا أن الانتاج نفسه تميزه صفات للإنسان تجعله ممكناً ، منها أن تكون للإنسان مطالب غير مطالب الحيوان ، وقدرة تمكنه تدبير مطالبه بالإنتاج ، وإنتاج ما يريد وفقاً لمطالبه وكفاياته . وهذه مقدمات ينشأ عنها الإنتاج ، ولا يكون سبباً فى وجودها !

يحققوا له السكينة والسعادة التى ينشدها ، بل زادوا حياته بؤساً ونكداً ، وزادوا بحلولهم القاصرة مشكلاته تعقيداً على تعقيد .

إذا استشفيتَ من داء بداءٍ　　　فأقتل ما أعلّك ما شفاك

إن الإسلام - كما قال عالم هندى مسلم - يذهب إلى أبعد مما تذهب إليه الرأسمالية والشيوعية ، حين ينظر إلى الإنسان نظرة تسمو به عن أن يكون مجرد « محصلة » كيماوية لغدده الصماء . والمفهوم البلشفى (الشيوعى) للفردوس الاجتماعى لا يذهب إلى أبعد من إقامة « حديقة حيوان » يضمن لكل واحد فيها - بعد اعتناقه البلشفي - أن يطعم ويتناسل ، وأمام قضبان كل قفص تصطنع مشاهد فجة للتسلية والترفيه ، بعد أن تجيزها رقابة صارمة !! أما الإسلام فهو يضمن فردوساً كاملاً دون حواجز أو عراقيل مكدرة .

* *

● الحل الأول هو الحل الأخير :

وهذا الذى نقوله قد قاله وأعلنه بعض الزعماء العرب الذين يدعون اليوم إلى الحل الاشتراكى الثورى ، ويرونه حتماً لازماً لعلاج مشكلات أمتنا ، وأكتفى هنا بما كتبه الرئيس المصرى الراحل فى مقدمة كتاب « العدالة الاجتماعية وحقوق الفرد » الذى صدر فى سلسلة « اخترنا لك » سنة ١٩٥٤ فكان مما قال :

« ثم يميل بعضهم إلى هذا الجانب ، ويميل بعضهم إلى ذلك ، وتتعدد الآراء ، وتتعارض المذاهب ، وتصطرع العقول والقلوب ، وتنشأ الجماعات المختلفة تدعو كل جماعة منها لمذهب ويشتغل الفلاسفة وأهل الفكر فى كل أمة ليخترعوا « نظاماً » يفض المشكلة ، ويحل العقدة ، ثم نسمع عن : الرأسمالية والاشتراكية والنازية والفاشية والشيوعية والفوضوية ، وعن نظم مادية أخرى لا يكاد يبلغها الإحصاء وليس فى واحد منها حل صحيح لمشكلة الفرد والمجتمع ، لأن مشكلة الفرد والمجتمع مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة مادية ،

فلا سبيل إلى حلها إلا بتربية الشعور الإنسانى فى نفوس الجماهير ، وتوثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البَشر .

ونقف نحن العرب والمسلمين فى هذا الجانب من العالم نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية المبتدعة ، ونرقب المعارك الناشبة بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب ، فنعجب أشد العجب ، من تلك المذاهب والذاهبين فى سبيلها من الحكومات ومن الشعوب على السواء ، لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيَّرت كل المفكرين والفلاسفة ، فى أوروبا منذ قرنين أو منذ قرون ، قد وجدت الحل الصحيح فى بلادنا ، منذ ألف وثلاثمائة سنة ، منذ نزل القرآن على محمد بن عبد اللّه ، يدعو إلى الأخوة الإنسانية ، ويفصِّل مبادىء العدالة الاجتماعية ، على أساس من التراحم والتكافل الأخوى ، والإيثار على النفس فى سبيل النفع العام للجماعة ، من غير طغيان على حرية الفرد ، ولا إذلال له ، ولا إنكار لذاتيته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْىِ ﴾ (١) ..

« ذلك هو النظام .

« فليكتف المفكرون والفلاسفة بما بذلوا من جهد ، ولا يبحثوا منذ اليوم عن حلول أخرى لمشكلة الفرد والمجتمع .

« إن عندنا الحل .

« الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة ، هو الحل الأخير لمشكلة الإنسان » .

فليت شعرى أين من هذا الكلام النابض بالحياة ، الزاخر بالأصالة ، ما يقال اليوم عن « حتمية الحل الاشتراكى » وضرورة التغيير الثورى ، والسيطرة الكاملة على وسائل الإنتاج ، وتصفية الرجعية ، وأن « الاشتراكية العلمية »

---

(١) النحل : ٩٠ .

- أى الماركسية - هى الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم .. وأن أى منهج آخر لا يستطيع - بالقطع - أن يحقق التقدم المنشود (ص٧٣ من الميثاق) وأن الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره (ص٦٣ منه) .

ترى هل نسخت الاشتراكية العلمية التى جاء بها اليهودى العريق « ماركس » الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة ؟!!

* * *

٤ - تكوين الإنسان الصالح

إن الليبرالية الديمقراطية غفلت - أو عجزت - عن شيء جد مهم ، وجد ضرورى ، وهو : تكوين « الإنسان الصالح » ، الذى عليه يقوم الحكم الصالح ، الإنسان الذى يحسن اختيار ممثليه إذا كان منتخباً ، ويحسن تمثيل منتخبيه إذا كان نائباً ، ويحسن القيام بأمانة المسئولية إذا كان حاكماً ، وبدون هذا الإنسان الصالح لا تصلح حكومة ولا يصلح مجتمع ، وإن أجرى الانتخابات ، وأقام البرلمانات .

لهذا نظر كثير من المؤرخين والمفكرين إلى الديمقراطية باعتبارها وهماً لا حقيقة ، حتى قال جان جاك روسو : « إن الديمقراطية الحقيقة هى حكم الآلهة لا حكم البَشر » [١] !

وقال جاك مارينان : « إن مأساة الديمقراطيات الحديثة ، هى أنها لم تنجح فى تحقيق الديمقراطية » !

وما غفلت ، أو عجزت عنه الديمقراطية ، لم تنتبه له أو تقدر عليه الاشتراكية ، إن لم تكن أكثر غفلة وعجزاً عنه .

---

(١) انظر : الإسلام وتحديات العصر ص ١٢٦

أما النظام الإسلامى فإن أول ما يعنى به هو تكوين الإنسان الصالح ، وعلى هذا الأساس تقوم أجهزته كلها فى جوانب التربية والتثقيف والإعلام والتوجيه والتشريع والتنظيم .

ومن هنا نجد « الحل الإسلامى » لا يعتمد على سيف السلطان ، وسوط القانون ، ورقابة الحكومة فحسب ، كما هو شأن الحلول البَشرية الأخرى ، إنما يعتمد بجوار ذلك على الضمائر الحية ، والقلوب المؤمنة ، التى تحوطه وترعاه وتستجيب لأوامره ، وتنهى عن محظوراته ، ذلك لأنه ليس حلاً ناشئاً من الأرض ، ولكنه منزّل من السماء ، ليس حلاً صادراً عن عقل بَشر ، ولكن من عند اللّه رب العالمين .

والحل الذى لا يقوم إلا على إرهاب السُلطة التنفيذية ، حل فاشل عاجز ، فإن الإفلات من قبضة هذه السُلطة مع ارتكاب أشنع الجرائم ، أمر مستطاع وميسور ، وماذا يستطيع أن يعمل القانون أمام لص أو مرتش أو مزوِّر أو مخرِّب يتصرف فى جريمته بإحكام واحتيال ، بحيث لا تراه عين ، ولا تضبطه يد ، فلا يجد القانون إليه سبيلاً ؟؟ وخاصة إذا كان الأمر أمر عصابة ، متعاونة على الشر ، تدبر أمرها بإحكام ، وتخفى جرائمها بدهاء ومكر ، إن صمام الأمان هنا هو الضمير ، هو الخُلق ، ولا ضمير ولا خُلُق بلا إيمان .

لقد أنشأ النظام الاشتراكى فى مصر جمعيات تعاونية استهلاكية ، كان الهدف منها - كما قالوا - خدمة الشعب ، وتقديم أجود السلع له بأرخص الأسعار ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة سرقات هائلة ، وخيانات شنيعة ، بأرقام مذهلة ، واحتيالات عجيبة ، للإثراء على حساب الشعب ، وممن ؟ من القائمين على أمر هذه الجمعيات أنفسهم من المديرين ومَن وراءهم ، مما جعل الشعب المصرى الساخر يردد المثل القائل : « حاميها حراميها » وكما قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟؟

وأنشئت مصانع ضخمة وأُعِدت لها أفخم المبانى ، وأُحْضِرت لها أرقى الأجهزة ولم تمض سنوات قليلة حتى عطل كثير من الماكينات ، وخرب كثير من الأدوات ، وأصبح المشروع يخسر أكثر مما ينتج ويربح ، وقال فى ذلك الرئيس المصرى : ماذا نفعل أكثر مما فعلنا ؟ لقد استوردنا المصانع ، واستوردنا الأدوات ، واستوردنا الأساليب ، فهل نستورد الرجال أيضاً ؟ هل نستورد الضمائر والأخلاق ؟

ولكن مما لا حيلة فيه أن الضمائر والأخلاق لا تُشترَى ولا تُستورَد ، لأنها صناعة محلية ذاتية ، ولا يصنعها فى ديارنا إلا شيء واحد مجرب ، هو الإيمان ، الإيمان بالله تعالى ورسالاته والدار الآخرة ، وبعبارة موجزة : « الإيمان برسالة الإسلام » .

كثيراً ما كتب الكاتبون عن فقدان الشعور بالمسئولية ، وأنه الداء الكامن وراء كل إهمال للواجبات وكل تعطيل للطاقات ، وكل تعويق للمشروعات وكل تأخير للعمل ، وكل خيانة للأمانات

وكثيراً ما كتب الكاتبون كذلك أن دواء هذا الداء المنتشر انتشار النار فى الحطب إنما هو غرس هذا الشعور الراقى فى أنفس المواطنين وتوجيههم له وتوعيتهم به ..

ولكنى أسأل : أى مسئولية تلك التى نريد أن نغرسها فى نفس المواطن ؟ أهى المسئولية أمام الوطن أو المجتمع أو التاريخ ؟ ألا ما أجملها من عبارات حلوة الوقع على الأسماع ! ولكنها لا تنتج فى مجال السلوك عفافاً ولا أمانة ولا فضيلة .. فما الوطن وما التاريخ وما المجتمع بالنسبة للفرد العادى ؟ إنها ألفاظ جوفاء ، لا مدلول لها عنده ولا أثر .

سيقول بعض الناس : إن هذه الأشياء يمكن أن تتجسد فى جهاز إدارى أو فضائى يراقب كل عمل ، ويسأل كل مقصر عن تقصيره ، وكل مسرف عن إسرافه ، وكل معوِّق عن تعويقه .

ولكن هل هذا يغنى : ما دام فى الناس الشطار والأذكياء الذين يعدون لكل أمر عُدّته ، ويحضّرون لكل سؤال جواباً ، ويعفون على آثار كل جريمة ، وفى التمويه مجال ، وفى الكذب متسع ، وفى إلقاء التبعة على الغير فرصة ، وخاصة إذا كان وراء الأمر عصابة تخطط له وتحكمه وتنظمه .

ثم يزداد الطين بلّة ، والداء علّة ، إذا عمّ البلاء وطفح الكيل ، واستشرى الفساد هنا وهناك وهنالك .. حينئذ يستعصى الأمر على مَن يريد إصلاحه من السطح لا من الجذور . لقد اقترح أحد المحافظين فى الجمهورية العربية المتحدة على وزير الإسكان نقل القائمين على شئون الإسكان فى محافظته بعد أن كثرت فيهم الشكوى ، وعُرِف منهم الخيانة ، فقال الوزير للمحافظ بصراحة : إذا كان الكل هكذا ، فمن أين آتيك بالشرفاء والطيبين ؟!!

لا بد إذن من غرس المسئولية أمام الله فى الآخرة . هذه وحدها هى التى تجدى ، وتصنع الضمائر الزاكية ، والأنفس اليقظة . إنه لا بد لاستقرار المجتمع من سيادة القانون ، ولا يمكن سيادة القانون إلا بسيادة الأخلاق ، ولا يمكن أن تسود الأخلاق إلا فى رحاب الإيمان (١) .

* * *

٥ - تحقيق الاستقرار والطمأنينة فى حياة الأمة

ومن مزايا الحل الإسلامى : أنه الحل الذى يحقق للأمة الاستقرار والطمأنينة ، ويرسى حياتها على دعائم ثابتة لا تهن ولا تتزلزل ، لأنها من صنع الله ووحى السماء ، وبذلك تأمن الاضطراب بين المذاهب والنزعات ، والتقلب بين اليمين واليسار ، والتأرجح بين هذا المعسكر وذاك .

ذلك أن هذا الحل هو الحل الفذ الذى تتلقاه طبقات الأمة كلها بالقبول ، وتستقبله بالرضا ، لأنه نابع من روحها ، مطابق لعقيدتها ، نابت من أرضها ،

---

(١) راجع فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » .

متجاوب مع مشاعرها ، متصل بأعماقها ، وليس دخيلاً عليها ، ولا غريباً عنها . ومن هنا لا يجد عداءً ولا مقتاً ولا مقاومة ولا سخطاً ، ما يجده أى حل آخر يُستورد من الشرق أو الغرب ، ويُفرض على الأمة فرضاً بغير اختيارها ولا رضاها ، بل بسلطان القوة وقوة السلطان . ولهذا يجر غالباً إلى الصراع والعنف ، والصدام الدموى بين الشعب والسُلطة الحاكمة ، وقد تستكين أغلبية الشعب لسُلطة الحديد والنار ، وتغضى على القذى كرهاً ، ولكن المرجل سيظل يغلى حتى ينفجر بعد حين يقصر أو يطول . وهذا هو سر الهزات الاقتصادية المتكررة ، والقلاقل الاجتماعية الدائمة ، والاضطرابات السياسية المتتابعة ، والانقلابات العسكرية المتوالية ، مما جعل كثيراً من البلاد الإسلامية تخوض بحراً من الدم ، وتعبر جسوراً من الجماجم ، وتجتاز كثباناً من أشلاء الضحايا ، الذين يُعدمون أو يُسجنون ، أو يُطردون ، أو يُعزلون من مناصبهم ، أو يُحرمون من حق المشاركة فى توجيه وطنهم ومصير أمتهم ، وأصبحنا لا نكاد نسمع نشرة فى إذاعة الصباح إلا ونتوقع نبأ ثورة أو انقلاب يطيح بجماعة ويأتى بآخرين ، يقومون بتكميل الرواية على نفس المسرح ، رواية المادية القومية العلمانية ، ما تغير شئ إلا الأشخاص والأسماء ، وقد تتغير قليلاً طريقة التمثيل واكتساب إعجاب المتفرجين !

وأصبحنا نسمع ونقرأ الحين بعد الحين أنباء ثورة أُخمدت ، أو مؤامرة اكتُشِفت صدقاً أو كذباً ، لتكون مبرراً لاضطهاد الألوف وعشرات الألوف وتسجير تنور العذاب عليهم ، وشىّ جلودهم بالسياط والحديد المحمى .

وما يكاد يمضى وقت يسير على محنة هؤلاء حتى يُعْلَن ضبط فئة أخرى ، ومؤامرة جديدة ، يُساق فيها آخرون إلى ما سيق إليه الأولون .

وهكذا دواليك ، لا تزال الرحى دائرة ، ولكنها لا تطحن الحَبّ ، بل تطحن البَشر ، وحرية البَشر ، وأمن البَشر ، وسعادة البَشر !

وسيظل العالم الإسلامى كذلك ، ما دام القائمون على حكمه يطلبون حلول

مشكلاتهم من غير هدى الإسلام ، وشريعة الإسلام .. لأنهم سيظلون فى واد وشعوبهم فى واد ، فمما لا جدال فيه أن « خامة » هذه الشعوب وأرضيتها « إسلامية » ومهما يحاول المتسلطون العلمانيون إخفاء هذه الحقيقة وطمسها بالقوة أو الدعاية ، فلن يفلحوا ، وستنتصر طبيعة الشعوب كما رأينا ذلك فى « أندونيسيا » وثورتها على يسارية « سوكارنو » وأعوانه الشيوعيين الذين بلغوا درجة من القوة يُخشى خطرها . وأحدث من ذلك ما رأيناه من ثورة الشعب والجيش السودانى على حكم الشيوعيين الذى لم يستطع أن يستمر أكثر من ثلاثة أيام . وهذا أوضح برهان على أن الإسلام فى نظرة هذه الشعوب المسلمة أقوى من كل مذهب دخيل .

وهذا ما يؤكده المراقبون الأجانب والمؤرخون الغربيون ، بالنسبة لكل بلد إسلامى كما نرى ذلك فيما كتبه « برنارد لويس » :

« حتى فى تركيا .. فى المجتمع المتغرب العلمانى المترفع .. مجتمع الجمهورية الكمالية .. قامت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية ، وكان على زعامتها الأخوة الدراويش ، ولم يكن فيها العلماء لأنهم كانوا موظفين رسميين ففى حياة كمال أتاتورك كانت الحركة النقشبندية رأس حربة المعارضة الدينية إذ قاد عدد غير قليل من أفرادها ثورات مسلحة وأهمها فى المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٩٢٥ وفى مينمين سنة ١٩٣٠ ، أما حديثاً فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتان تبشران وتدعوان لمناهضة الثورة الكمالية .. ولكنهما لم تحملا السلاح بعد ، والسنوات الأخيرة توحى بأن المنظمات الدينية هى فى طريق الزوال ، فلقد مُنعت فى بلاد كثيرة وضُغط عليها فى بلاد أخرى . ومن غير المشكوك فيه أن هذه المنظمات لا تزال قائمة تعمل فى الخفاء ، وأنها تلقى صدى مستحباً عند غالبية الجماهير الشعبية من الطبقات الكادحة فى المجتمعات الإسلامية حتى إن الحكومات - برغم علمانيتها - تجد نفسها ملزمة - لمصلحتها - بتقدير المشاعر والولاءات

الإسلامية فمسايرة الرجعية التركية من قِبَل عدنان مندريس وإقامة المؤتمر الإسلامى فى الجمهورية العربية المتحدة هما مثلان على ذلك »[1] .

أجل فرغم المؤامرات الضخمة على خنق التيار الإسلامى فى تركيا ، فقد أصبح اليوم أقوى التيارات الشعبية المؤثرة هناك ، فهو يستمد قوته من العقيدة الإسلامية الخالدة ، ومن إيمان الشعب التركى المسلم بهذه العقيدة ، ولا زال هذا التيار يصارع - بقوته الذاتية - الدعوات الدخيلة التى تحملها الماركسية والماسونية والعلمانية ، التى تساندها من الخارج الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية ، والصليبية الاستعمارية .

ولا زالت أنباء هذا الصراع تتوالى وتترى ، ولا زالت ضحاياه تسقط بين حين وآخر ، ولا ندرى ماذا يخبئه الغد لهذا الشعب الذى يريد العودة إلى شريعته ورسالته ومواريثه ويريد المضللون والمشبوهون أن يقاوموا إرادته ، ويثنوا عنانه ؟

والذى يحدث فى تركيا يحدث مثله فى بلاد كثيرة ، ولشعوبٍ إسلامية شتّى من عرب وعجم .

والسبب واحد والنتيجة واحدة .

السبب هو محاولة فئة قليلة مؤيدة من القوى الخارجية السيطرة على الحكم وتوجيه المجتمع وجهة غير إسلامية ، والسير به فى طريق العلمانية ، يمينية أو يسارية .

والنتيجة : هى مقاومة الشعب لهذا الحكم ، فإن لم يستطع المقاومة العلنية فهى الكراهية والحقد والنفور ، والفجوة الواسعة التى تفصل بين الشعب والحكم والصراع الذى لا يثمر إلا ضعف الفريقين ، وتمزيق قوى الشعب كله ، لمصلحة الأعداء المتربصين الحاقدين الطامعين .

ولا سبيل إلى الاستقرار - السياسى والاجتماعى والفكرى والنفسى - فى

---

(١) الغرب والشرق الأوسط - للأستاذ برنارد لويس - ص ١٧٧

بلد ما ، إلا إذا استمدت الأمة من مواريثها العريقة العميقة ، ما تقيم عليه بناء حياتها الجديدة ، فيصل حاضرها بماضيها ، ولا يفصلها عن جذورها وفطرتها وخاصة إذا كانت مواريث هذه الأمة متميزة بسموها وكمالها وشمولها وتوازنها لأن أصولها ليست من ابتكار البَشر ، بل من وحى اللّه اللطيف الخبير ، الذى لا يضل ولا ينسى .

فإن أبت أمة – أو بعبارة أدق : أبى قادتها وساستها وموجهو زمامها – إلا أن تنسلخ من أصولها ، وتنقلع من جذورها ، وتتعرى من مواريثها ، فإنها صائره – حتماً – إلى بلبلة لا تستقر ، واضطراب لا ينتهى .

يقول الأديب الباحث المعروف الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى محاضرة له عن « مواريثنا الثقافية » ألقاها بقاعة المحاضرات بالأزهر :

« قد سبق أن بينّا فى ثنايا هذا الحديث ، ما ينطوى عليه مبدأ « نبذ المواريث » من مغالطة فى المنطق ..

فلننظر الآن إلى ما ينطوى عليه هذا المبدأ من الخطر الفعلى فى الناحية التطبيقية ..

من المعلوم أن جماهير الشعوب تميل دائماً إلى المحافظة على اتجاهها ، ما لم توجد عوامل قوية تعمل على تغيير هذا الاتجاه .

فقانون القصور الذاتى الذى ينطبق عليها كما ينطبق على كل شىء فى الوجود . الساكن يبقى ساكناً ما لم يحركه محرك ، والمتحرك يحتفظ باتجاهه ما لم تصدمه قوة مخالفة لاتجاهه ، فيغيِّر وجهته ، أو يفقد حركته .

وقد تقدم أن العدول عن المواريث الثقافية إنما هو هدم وإزالة يقتضيان بذل مجهود ضخم لإفناء قوتها وتغيير اتجاهها .

ومعنى هذا أن محاولة القضاء على مواريثنا يتطلب بذل جهود النهضة فى عملية الهدم ، وهذا يؤدى إلى إضاعة الجهود فى محاولة سلبية نتيجتها الهدم وحده ..

ويعقب هذا - لو فرضنا إمكانه - مرحلة ذبذبة وبلبلة ، يفقد فيها المجتمع إيمانه بمقدساته ، ويفقد فيها مقاييسه جميعاً .

ثم هو لم يصل إلى إقامة هيكل جديد يحل محل تلك المقدسات ، فماذا ينشأ عن هذا سوى الفوضى فى كل شئ ؟

انفراط العقد ، وزوال الرابطة التى كانت تربط الأفراد ، وتحدد علاقاتهم فيما بينهم ، أو بينهم وبين المجتمع الشامل الذى يعيشون فيه .

فلا يكون لتلك الحال من علاج سوى وجود قوة مسيطرة من فرد واحد أو مجموعة أفراد تسلب حريات الآخرين وتفرض سلطانها على الجميع ، للمحافظة على كيان هذا المجتمع المفتعل .

وليست الأمثلة بعيدة عنا ؛ فإن بعض الدول الإسلامية تعرضت لمثل هذا الخطر، وما تزال تعانى منه أكبر الأحزان .

فسلامة النهضات لا تكون بهدم المواريث الثقافية التى حفظت كيان الأمة فى العصور الماضية ، بل تكون بإعادة تطبيق تلك المواريث بحيث تلائم ظروف الحياة الجديدة ، وهى هى فى جوهرها صافية .

ثم إن التاريخ يدلنا على أن الأمم التى تقاسى مثل هذه المحن لا تصل إلى نتيجة إيجابية من وراء نهضاتها ، بل لا تلبث أن تتبين خطأها وتعود لتلتمس النهضة من المواريث التى نبذتها ، ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان . لأن النهضة تكون قد استهلكت نفسها فى وجود الهدم ، ووجود السيطرة التى يجرها الهدم من ورائه » أ . هـ .

وهذا كلام واضح كالشمس . وأوضح وأقرب مثل لذلك هو « تركيا » التى كانت أقوى وأعظم دولة فى الشرق ، ماذا ربحت من وراء الجمهورية الكمالية العلمانية ، وارتمائها فى أحضان الحضارة الغربية ، وتمرغها على عتبة الفكر الغربى ، وضربها عُرض الحائط بالثقافة الإسلامية والشريعة الإسلامية ؟

إنها لم تحقق - خلال نصف قرن - تقدماً اقتصادياً ولا تكنولوچياً يُذكر .. ولم تزل - من الناحية العسكرية والسياسية - ذيلاً مهيناً للمعسكر الغربى .

* * *

٦ - حفظ وحدة الأمة والإخاء بين أبنائها

إن هذا الحل هو الذى يحفظ على كل بلد إسلامى وحدة طبقاته وتعاونها ، ويوثق عرى الأخوة فيما بينها ، ويحيى روح الحب فيما بين أفراده وجماعاته .. ويجنبها التسلط والبغى والعلو فى الأرض الذى يصحب الرأسمالية ، وتنقسم به الأمة إلى مُلاَّك وأجراء ، وطاعمين ومحرومين ، أو كما قال الكاتب الساخر « برنارد شو » : « أناس يبحثون عن طعام لمعداتهم ، وآخرين يبحثون عن معدات لطعامهم » .

كما يجنبها حرب الطبقات وإثارة الأحقاد ، ودموية الصراع الذى تقوم عليه الاشتراكية الماركسية ، وتنادى به سبيلاً فذاً للخلاص ، وأمراً لا مفر منه ، وبذلك ينقسم الوطن الواحد ، بل البلدة الواحدة ، بل الأسرة الواحدة ، إلى أعداء متنازعين يكره بعضهم بعضاً ، ويحارب بعضهم بعضاً .

وإذا كان الصراع والعداء بين الناس حتمية تاريخية فى الاشتراكية الماركسية كان من الضرورى - عند دعاتها - أن يؤججوا نيرانه ، ويهيئوا له الحطب والفحم والبترول : بإثارة الكراهية والحسد وإيغار الصدور والتحريش بين الناس ، تمهيداً للثورة البلشفية التى تريق الدماء وتنتهك الحرمات ، وتدق الأعناق وتقتلع كل شىء من الجذور .

يقول « ماركس » منكراً على مدّعى الإخاء بين الناس والدعاة إليه :

« لم يكن الناس إخوة فى حال من الأحوال ، بل أعداء طبقيين يتصارعون » .

ويقول « زينوفييف » أحد الشُرَّاح البارزين للعقيدة الشيوعية : « إن صرخة الغضب المشحونة بالحقد هى لذتنا ومتعتنا » .

ويقول « لينين » فى كتاب وجّهه إلى « مكسيم چوركى » : « إنه لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم ليصير الربع الباقى شيوعياً » .

ومَن قرأ ما صنعه الشيوعيون أنفسهم بعضهم ببعض من اضطهاد وتنكيل وتشريد وتعذيب وتقتيل ، بالألوف وعشرات الألوف ومئات الألوف ، يرى العجب العجاب .

أما الإسلام فينكر كل الإنكار حتمية الصراع بين الطبقات ، ويعلن الأخوة مبدأً ، وينادى بها فريضة ترتقى إلى درجة العقيدة ، الأخوة بين المؤمنين أولاً وبين الناس كلهم ثانياً . يقول الله تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [(١)] ، ويقول مخاطباً الناس جميعاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ﴾ [(٢)] ..

ويعلن الرسول ﷺ الأخوة بين البَشر مع أركان العقيدة الإسلامية الصحيحة فكان يقول فى دبر صلاته : « اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا أشهد أنك الله وحدك لا شريك لك ، اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا أشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » [(٣)] .

وإذا كان « ماركس » - تبعاً لفلسفته الخبيثة فى تقسيم البَشر إلى طبقات متعادية - يوجه نداءه فى ختام البيان الشيوعى المشهور إلى العمال وحدهم قائلاً : « يا عمال العالم اتحدوا » أى ضد الطبقات الأخرى فى المجتمع ، فإن محمداً ﷺ يوجه نداءه إلى البَشر كافة عمالاً وتجاراً وملاكاً وحكاماً ومحكومين ، فيقول : « لا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً » [(٤)] .

وإذا كان « ماركس » يرى إشاعة الحقد والعداوة والبغضاء بين العمال وبين

---

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) الحجرات : ١٣

(٣) رواه أحمد فى حديث زيد بن أرقم .

(٤) متفق عليه .

سائر الطبقات ، ويعد ذلك فضيلة بل فريضة ، فإن الإسلام يُحرِّم أشد التحريم إثارة العداوة والبغضاء بين الأفراد والطبقات ، ويعد ذلك من أرذل الرذائل وأكبر الكبائر ، التى يروِّج لها إبليس وجنوده ، لتأكل فضائل الناس وحسناتهم ، كما تأكل النار الحطب ، وينذر بخطرها الداهم على الأفراد والأمم ، ويعتبرها داءً وبيلاً موبقاً .

يقول الرسول ﷺ فى ذلك : « دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » ، ويقول موصياً أمته فى حجة الوداع : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم وجوه بعض » .

وإذا كان الإسلام يُحرِّم كل التحريم إثارة الحقد والبغضاء والصراع بين الناس ، فإنه يوجب آكد الإيجاب التدخل بكل طاقة ممكنة ، لوقف الخصومة وطرد شيطان العداوة ، وزرع الحب بدل البغض ، وإحلال الوئام محل الخصام والسلام محل النزاع . يقول القرآن الكريم : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إن كُنتُم مُّؤمنينَ ﴾ [1] .. ويقول : ﴿ لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَو مَعْرُوفٍ أَوْ إِصلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [2] .. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [3] ..

ويقول الرسول ﷺ : « ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول اللّه قال : إصلاح ذات البَيْن ، فإن فساد ذات البَيْن هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » .

بل نجد القرآن يطالب جماعة المؤمنين بالتدخل للإصلاح بين المتخاصمين ولو باستعمال القوة ، وأن يعملوا على وقف النزاع ، وإنهاء الصراع ، وسيادة التفاهم ، وتحكيم العدل ، فيقول : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى

(١) الأنفال : ١ (٢) النساء : ١١٤ (٣) الحجرات : ١٠ .

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ * إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١) ..

وتجعل الشريعة الإسلامية سهماً فى مصارف الزكاة لذوى الضمائر الحية والقلوب الكبيرة الذين يقدّمون من أموالهم الخاصة للإصلاح بين الأفراد والجماعات ، فيُعَانون من مال الزكاة على سداد ما غرموا ، تشجيعاً لهم ولغيرهم على المضى دائماً فى سبيل الإصلاح بين الناس .

ومن هنا نجد اختلافاً جوهرياً بين الفلسفتين : فلسفة اليهودى « ماركس » القائمة على حتمية الصراع الطبقى ، وضرورة العداوة فيما بين الناس ، ووجوب الاستعانة بهذا الصراع وتقويته ، لتحقيق الحلم المنشود .

وفلسفة الإسلام القائمة على فرضية الإخاء ، ووجوب تقويته وتوسيع نطاقه وتوثيق عراه ، وتحريم التعادى والتباغض وفساد ذات البَيْن ، وسد كل باب يؤدى إليه ، ووجوب الإصلاح بين الناس (٢) .

وإذا كان هذا الحل هو الذى تتلقاه طبقات الأمة كلها بالرضا والارتياح والقبول فلا غرو أن يكون هو الحل الذى تضحى الأمة من أجله راضية ، وتبذل فى سبيله راغبة ، وتدافع عنه بالدم والمال مقتنعة ، وتقاوم كل مَنْ يعاديه مستبسلة ، وتصبر على الشظف والتقشف لإنجاحه مغتبطة .

وذلك أنها تعتقد أنها تبذل لدينها ، وتضحى لعقيدتها ، تبتغى وجه ربها وتجاهد فى سبيله ، والأمة تصبر على الحرمان والحصار إذا كان ذلك فى سبيل الله . أما إذا كان ذلك من أجل ملك أو رئيس يدعم سلطانه ، ويقوى مركز حكومته ، أو من أجل مبدأ مستورد من الشرق أو الغرب ، فإن الناس سرعان

---

(١) الحجرات : ٩ - ١٠ .

(٢) انظر بحث « الإسلام والصراع الطبقى » - للدكتور معروف الدواليبى .

ما يتضجرون ويسخطون إذا شعروا بشيء من الغلاء أو أزمة التموين أو نحو ذلك ، نتيجة حصار اقتصادى ، أو تدهور مالى ، أو ضعف إنتاجى ، ويشتد الضيق والتذمر وتعلو موجات السخط والاستنكار إذا اضطرت الدولة إلى حرب بينها وبين خصومها ، تلتهم المال كما تلتهم الرجال ، فما أسرع ما يقول الناس : فيم نُساق إلى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟

نعم .. إن أجهزة الدعاية والإعلام تعمل ليل نهار ، بشتَّى الأساليب ، مجندة كل الطاقات البَشرية والمادية ، مستخدمة أحدث الوسائل الفنية والعلمية ، لإقناع الأمة بالحلول الدخيلة المستوردة ، عسى أن تستقر فى عقلها ، وتنفذ إلى أعماق وجدانها ، ولكن هيهات هيهات لما يبتغون . إنهم يضيعون هذه الجهود سدى ، وينفقونها بلا ثمرة ، إلا إرهاق مالية الدولة بعشرات الملايين التى تُنفق فى كل عام على هذه الدعاية الفارغة ، التى لا تزيد الشعوب إلا تذمراً وغضباً ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى الدينار والدرهم ، ليُنفق على الجائعين والعراة ، والمرضى والعاطلين والأميين .

وحقاً إن السلطات الحاكمة ، ستُسْكِت بالعنف كل صوت حرّ ، وتكسر كل قلم حر ، وتحطم كل قوة معارضة ، وتسخِّر أجهزة الدولة - حتى جيشها المُعَد لأعدائها - لتقوم بتصفية المناوئين ، وتجرب فيهم عمليات « غسيل المخ » المستورَدة من بلاد الاشتراكية الأم . ولكن هذه المحاولات الدموية لا تجدى فتيلاً ، ولا تزيد الشعب إلا نقمة ، ولا المعارضة إلا شدة ، ولا الحكومة إلا فشلاً ، وستزيد مسافة الخلف بين الأمة والسُلطة ، فهيهات أن تحصل يوماً على رضاها أو تحلم بالتعبير عن إرادتها .

هى الشمس مسكنها فى السما فعزِّ الفؤاد عزاءً جميــــلا !

فلن تستطيع إليــــها الصعــــود ولن تستطيع إليك النزولا !

* * *

٧ - جمع كلمة الأمة العربية الإسلامية

والحل الإسلامى هو الذى يمكن أن تجتمع عليه الأمة العربية والإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى آسيا وإفريقيا ، وهو القادر وحده على إنشاء الكتلة العالمية الثالثة التى تحفظ التوازن بين الروح والمادة ، بين الدين والدنيا ، بين الفرد والمجتمع ، بين الشرق والغرب ، ويبرز للبَشرية أمة وسطاً ، ومذهباً وسطاً .

إن الأخذ بالحلول الأخرى المستورَدة سيمزق الأمة الإسلامية ، ويفرقها بدداً ، ويحول بينها وبين الوحدة المنشودة التى فرضها الله عليها . إن بعض الأمة عندئذ سيتجه إلى اليمين الليبرالى ، وبعضها سيتجه إلى اليسار الماركسى . واليمين نفسه مراتب ودرجات ، واليسار كذلك مراتب ودرجات ، تختلف وتتنوع وتتقارب وتتباعد ، من يمين اليمين ، إلى يسار اليسار . كما أن القِبْلة ليست واحدة ، لا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء . فمن ناحية تجد قوماً يولون وجوههم شطر لندن وآخرين شطر واشنطن ، وغيرهم شطر باريس .. ومن ناحية أخرى تجد بين اليساريين « الحُمر » الذين اتخذوا كعبتهم موسكو ، و « الصُفر » الذين اتخذوها بكين !

وهكذا تتعدد ألوان التبعية ، وأنواع الولاء . ومع هذه الألوان والأنواع يتنوع الصراع ويتعدد الانقسام ، ويتوالى الانشقاق .

وعاقبة ذلك كله ، تفريق الأمة الواحدة الكبيرة إلى أمم صغيرة متنازعة وتمزيق الدولة الواحدة إلى دويلات ، وإن شئت فقُلْ : إلى لقيمات يسهل ابتلاعها وازدرادها .

وهذا الخلاف والتفرق والانقسام نتيجة حتمية لاختلاف المناهج والسُبل وتبعاً للابتعاد عن منهج الله وهداه وهذا ما حذَّر منه كتاب الإسلام ورسول الإسلام .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : خَطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده . ثم قال :

« هذا سبيل الله مستقيماً » وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » [١] ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [٢] ..

فهذه السُّبل الشيطانية – يمينية كانت أو يسارية – لا بد أن تُفرِّق كلمة الأمة ، وتمزِّق شملها ، ومعنى ذلك هو الهلاك والبوار ، الذى لا ينجى منه إلا الرجوع إلى المحجة البيضاء التى تركنا عليها رسول الله ﷺ ، فعن العرباض بن سارية رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » [٣] .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بُسنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضواً عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » [٤] .

ففى ظل الإسلام وحده يمكن أن تذوب العصبيات القومية والإقليمية وتذوب الفوارق اللونية واللغوية والطبقية ، ويجتمع هؤلاء المئات من الملايين من المسلمين على نظام واحد ، كما اجتمعوا على عقيدة واحدة ، وكما يتجهون جميعاً فى كل يوم خمس مرات إلى قِبْلة واحدة ، وكما يجتمع مئات الألوف منهم كل عام فى مكان واحد وزمان واحد ، لأداء فريضة واحدة ، هى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وقد لاحظ كثير من الأجانب قوة الترابط الفكرى والعاطفى بين المسلمين ، ومدى الاستفادة منه فى مواجهة التطور الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .

يقول « چاك أوسترِوى » فى كتابه عن « الإسلام والتنمية الاقتصادية » :

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده فى ابن كثير .　　(٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) قال فى الترغيب : رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السُّنَّة بإسناد حسن .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه – مقدمة ٦ ، ٧

« هناك حوالى . . ٤ مليون [1] مسلم ، وإذا ذكر أن واحداً من كل أربعة رجال فى العالم هو صينى ، كذلك فبإمكاننا القول إن فى العالم الحاضر مسلماً واحداً فى كل ستة رجال .

« هذه الكتلة التى تجتمع فى صلاة واحدة بدأت تعى مدى قوتها والتحامها الذى لفت منذ زمن طويل أنظار كل زائر .

« خمس مرات فى اليوم ، فى جميع أنحاء العالم ، أربعمائة مليون إنسان يخرون ساجدين قِبْلتهم مكة ، يشكّلون دائرة واسعة كوردة ، كل ورقة فيها تكوّن كائناً حياً يركعون ويسجدون ، وأنا أتصور - لو كان بإمكان النظر أن يحدهم جميعاً - أن الصورة التى تقدمها هذه الزهرة الجبارة تتفتح ثم تغلق بترتيب نظامى مشكّلة فى مجموعات غير محدودة من المؤمنين ، زهرة غريبة تنفتح على أكثر من قارة ، تفقد أوراقها كل ليلة لتستجمعها عند نداء المؤذن فى الفجر ، زهرة كل ورقة فيها مربوطة إلى الأخرى بوشائج الصلاة المتينة ، تتجمع كلها فى الكعبة الكثيفة السواد ، هذا الإحساس العظيم الذى يشير إليه حماس بعض الموجهين فى الشرق الأوسط يفسر - جزئياً - هذه الوجهة فى السياسة الاقتصادية ، الوجهة الرامية إلى الأهداف الجسام » [2] .

وإن هذه الوحدة الروحية العاطفية الفكرية ، لتزداد قوة وأصالة ووضوحاً حين يكون وراءها نظام واحد ، ومنهج واحد ، يلتقى الجميع عليه ، ويتبعون هداه ، إن وحدة المنهج بعد وحدة العقيدة - هى التى تجعل الأمة كالبنيان المرصوص ، بل الجسد الواحد ، وتباعد بينها وبين أسباب الفُرقة والتنازع .

إنه ليس من الهين ولا الأمر البسيط أن يجتمع سبعمائة أو ثمانمائة مليون

---

(١) الواقع أن المسلمين فى العالم اليوم يقاربون . . ٨ مليون ، كما تشير إلى ذلك أحصائية حديثة من الأمم المتحدة ولكن الغربيين دائماً يحاولون تقليل عدد المسلمين !

(٢) ترجمة الدكتور نبيل الطويل .

على نظام واحد يخضعون لقوانينه ووصاياه ، ويقدسون أوامره ونواهيه ، لأنها من عند الله .

إن مجرد خطور هذا الحلم الجميل بالبال لأمر مخوف كل الخوف ، ترتعد له فرائص الاستعمار الأسود ، والإلحاد الأحمر ، والصهيونية الرقطاء .

وكان أكبر هم الاستعمار الصليبى الذى حكم معظم الديار الإسلامية فى العصر الحديث ، أن يحول بين مثقفى الأمة وقادة التوجيه فيها . وبين التفكير فى الإسلام والعودة إلى نظامه وأحكامه ومُثُله ، وأن يصطنع سدوداً فكرية ونفسية تحجب عنهم تعاليم الإسلام الحقة وثقافته الصحيحة .

وكان من أعظم أهدافه ألا تجتمع الأمة الإسلامية على منهج واحد تعتصم به ولا تنصرف عنه ، وخاصة إذا كان هذا المنهج هو الإسلام .

وكان من أساليبها فى ذلك :

(أ) خلق الاتجاهات القومية الضيقة التى من شأنها أن تجعل من الأمة الإسلامية الواحدة أمماً وجماعات ودولاً . فهذه قومية طورانية تركية ، وثانية فينيقية سورية ، وثالثة فرعونية مصرية ، ورابعة آشورية عراقية ، وخامسة قومية عربية ، وسادسة بربرية ، وسابعة إيرانية .. وهلم جراً .

(ب) إثارة النعرات الوطنية الإقليمية . فآسيا للآسيويين ، وإفريقيا للإفريقيين ، ثم سوريا للسوريين ، ومصر للمصريين ، والسودان للسودانيين ، ولبنان للبنانيين .. وهكذا .

(جـ) خلق المدارس الفكرية المتناحرة فى الأدب والفلسفة والتربية والسياسة وسائر مجالات الفكر والثقافة ، فهنا صراع بين القديم والحديث فى الأدب ، وبين المدرسة السكسونية والمدرسة اللاتينية فى الثقافة ، وبين الماديين والمثاليين فى الفلسفة ، وبين اليمين واليسار فى الاقتصاد والاجتماع ، وبين المحافظين والأحرار فى السياسة ، إلى غير ذلك من ألوان الخلاف والصراع .

(د) توسيع الهوة بين الثقافة الدينية القديمة التى كانت أساس الثقافة القومية الأصيلة ، وبين الثقافة الحديثة التى اتسعت لكل معارف العصر وآدابه وفنونه والعمل بكل وسيلة على عزل القديم عن الحياة ، وإبقائه معصوب العينين عما يدور فى الدنيا الجديدة ، وإظهاره بمظهر المتخلف المتحجر الذى يقاوم النور وحركة التاريخ .

ومن جهة أخرى يعمل على تعميم ثقافته الجديدة ، وترسيخها فى العقول ، وتحبيبها إلى الأنفس ، وهى ثقافة تحمل فى طياتها احتقار كل قديم ، وتمجيد كل جديد ، والشك فى « الغيبيات » ، وتشيع فى أنحائها بوجه عام النظرة القومية والعلمانية والمادية .

* * *

٨ - تجديد روح الحياة والقوة فى الأمة

إن الحل الإسلامى هو الحل الوحيد الذى يجدد فى الأمة ما بُلى من شبابها ، ويحيى ما شاخ من عزائمها ، ويحرك ما همد من طاقاتها الخلاّقة ، وينفخ فيها روح الحياة ، ويجرى فى عروقها دم البطولة ، ويصب فى كيانها كله روح القوة وقوة الروح .

ذلك أن هذه الأمة أمة مؤمنة بفطرتها وبتجاربها وبتاريخها .. والإيمان هو أول ملامحها ، وأبرز المعالم فى حضارتها ، وهو صانع أمجادها وصاحب الفضل الأول فى تاريخها ، وقائدها فى معاركها الكبرى إلى النصر ، به فتحت البلاد وسادت العباد ، وحطمت مُلْك كسرى ، وقصّت أجنحة قيصر ، وبه شرّقت وغرّبت فأخرجت الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق العيش إلى سعة الحياة ، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام .

بهذا الإيمان انتصرت فى حطين .. وعين جالوت .. والمنصورة ، وانتصرت على جيوش التتار وحملات الصليبيين ، وبه صمدت فى هذا العصر أمام الغزو

الاستعمارى الصليبى ، حتى كان آخر نصرها فى الجزائر بعد قرن وثلث من الاحتلال ومحاولة التغريب والتنصير .

إن لكل أمة شخصية متميزة ، ولكل شخصية مفتاحاً خاصاً تستطيع به أن تدفعها بلمسة منه إلى الأمام ما شاء الله ، كما يصنع مفتاح السيارة الذى لا تندفع بغيره ، ولا تتحرك إلا به .

ومفتاح شخصية هذه الأمة هو الإيمان ، به تُصنع المعجزات ، وتتخطّى المستحيلات ، وتستهين بالعقبات والمعوقات .

فإذا أرادت أمتنا فى طريق تحريرها ووحدتها وبناء نهضتها : الإنسان القوى الذى يدوس الشهوة ، والمنتج الذى يحترم الوقت ، والصابر الذى يتحمل الشظف ، والسخى الذى يبذل المال ، والفدائى الذى يحلم بالموت ، فلن يصنع ذلك كله إلا الإيمان ، إيمان الإسلام .

ذكرنا فى كتابنا « درس النكبة الثانية » ما قاله المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « جوستاف لوبون » عن طبيعة هذه الأمة وتأثير الدين فيها ، ولا بأس أن نعيد هذه الكلمات تبصرة وتذكرة . يقول :

« تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً ، أجل .. قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ولكنك لن ترى مَنْ يجرؤ منهم على انتهاك حُرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقيا. ومن ذلك : أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين فى الأصفاد ، ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم – وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين

الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبى ، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدونه .

« وعلى مَن يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها . وللدين - ذى التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر فى نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين ، منذ الثورة التى ضرجت مصر بالدماء » (يعنى ثورة ١٩١٩) .

إلى أن يقول :

« إن الرجل الذى يخاطب العرب باسم الله يُطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً .

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق ، الذى استطاع العرب أن يفتحوا العالَم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير » [(١)] .

تلك هى طبيعة هذه الأمة ، وذلك هو تأثير الإسلام فى أبنائها : العرب وغيرهم من « العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها » .

والمؤرخون قديماً وحديثاً متفقون على هذا الرأى .

يقول الأستاذ : « كليرنج » فى كتابه عن « الشرق الأدنى .. مجتمعه وثقافته » :

« إن الدين مرآة تنطبع عليها القيم الروحية والثقافية للشعوب بأجلى صورها وهو للجماعة كالحدقة من العين . ترتسم عليها صور الحقائق التى توليها الاهتمام » .

---

(١) من كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون - تعريب عادل زعيتر ص ٤١٧

أما الأستاذ « أليسون » فيؤكد استناداً إلى وقائع التاريخ ذاته بأن الاستقرار لدى الآسيويين - على الأخص - فى حاجة دائماً إلى الاستناد إلى الدين .

وهذا موافق لما ذهب إليه « ابن خلدون » فى شأن العرب والترك وغيرهم من شعوب الشرق من حيث قوة تأثير الدين فيهم ، حيث يصبح الوازع لهم من أنفسهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس [١] .

فمَن أراد أن يصنع بهذه الأمة العجائب ، ويقتحم بها المخاطر ، ويخوض بها لجج المعارك ، ويعيد بها أيام خالد وصلاح الدين ، فليخاطبها باسم الله ، وليقدها بزمام الإيمان ، وليجمعها تحت راية القرآن وكلمة التوحيد ، وقيادة معلّمها الأول محمد عليه الصلاة والسلام . وليربطها بأيام الإسلام ، وتراث الإسلام ، وأبطال الإسلام .

بهذا تكشف الأمة عن خصائصها وأصالة معدنها ، ويتجلى ما تنطوى عليه أعماقها من إيمان غطّاه طلاء الحضارة الزائف ، ومن فضائل ران عليها الصدأ بفعل المذاهب الدخيلة والأنظمة العميلة ، التى أضلّتها عن طريقها ، وتركتها فى حيرة وفراغ .

إن أمتنا التى تواجه اليوم الصهيونية العالمية العاتية الطامعة ، ومن ورائها قوى الإمبريالية الغربية والشرقية ، التى ساندتها فى إقامة دولتها « إسرائيل » لهى أحوج ما تكون إلى استثارة دفائنها المكنونة ، وطاقاتها المذخورة ، واستخراج أقصى ما تملكه من الإمكانات النفسية ، لتواجه بها أعداءها ، ولن يثيرها ويدفعها ويحركها إلا كلمة الإيمان ونداء الإسلام .

إن مؤلفات فرويد ، ودوركايم ، وچون ديوى ، أو مؤلفات ماركس ولينين وماو - لا تهز وتراً فى قلب أمتنا ، ولا ينبض بها عِرق فى كياننا ، ولن يدع بها

---

(١) مقدمة ابن خلدون - الكتاب الأول - الفصل : ٢١ - ٢٧

أنانى أنانيته ، ولا كسلان كسله ، ولا ماجن مجونه ، ولن تحرك جندياً لإقدام ، ولن تقود جيشاً إلى نصر ، ولكن كلمة « الله أكبر » أو « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » أو « هَبِّى يا رياح الجنة » تفعل فى الأنفس فعل السحر ، وتؤثر فى القلوب تأثير الكهرباء ، وتقلب ميزان القوى فى المعارك الكبرى .

إن صيحة « واإسلاماه » كانت وراء النصر فى « عين جالوت » . وكلمة « الله أكبر » فى العاشر من رمضان ، والتى اتخذها الجيش المصرى شعاراً له ، كانت وراء ما حققنا من العبور الخاطف ، وتحطيم خط بارليف ، وهزيمة الجيش الذى زعم – لفترة طويلة – أنه القوة التى لا تُقهر . وستظل كلمة الإسلام سر النصر فى كل معركة حاسمة بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن العودة إلى الإسلام هى ماء الحياة ، الذى يرد على الأمة روحها ، ويُجرى فى أوصالها العافية والقوة ، كما أنه المصل الواقى الذى يمنحها المناعة ضد الجراثيم الفتاكة التى يبثها أعداؤها .

العودة إلى الإسلام هى التى تصلح ما فسد من هذه الأمة ، وتنشئها خلقاً آخر [(١)] ، وتسلمها من جديد زمام التاريخ .

وهذا فى الواقع هو ما يخشاه أعداؤها ، وما حسبوا – ويحسبون له دائماً – ألف حساب وحساب .

إنهم ساعدوا – ويساعدون – على خلق التيارات العلمانية والمادية التى تعزل الأمة عن دينها ، وتفصلها عن مصدر قوتها ، ثم على تغذيتها بعد خلقها وإنشائها ، فهذه التيارات والنزعات – ليبرالية كانت أو اشتراكية – كلها من خلق الاستعمار والصهيونية ، بواسطة أو بغير واسطة .

يقول « لورنس براون » فى كتاب صدر سنة ١٩٤٤ هذه العبارات الصريحة :

« لقد كنا نُخوِّف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا

---

(١) راجع فصل « الإيمان والإصلاح » من كتابنا « الإيمان والحياة » .

الخوف .. لقد كنا نُخوَّف بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر (اليابان والصين) والخطر البلشفى . إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أن البلاشفة (الشيوعيين) حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفراء فهناك دول ديمقراطية كبرى تقاومها .. ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قوته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى » [١] .

وهكذا يرى الكاتب أن فى نظام الإسلام قوة كامنة رغم ضعف أهله وتفرقهم ، وأن هذه القوة المذخورة لا يؤمن خطرها على الاستعمار الأوروبى ، وأنها هى التى يجب أن يُحسب حسابها فى السياسة الأوروبية ، وأن كل ما يخوِّف به المخوِّفون من أخطار أخر ليست أخطاراً فى الحقيقة ، بما فى ذلك الخطر اليهودى والخطر الشيوعى ، والخطر الصينى ، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام .

كتب المستشرق البريطانى البروفسور « مونتجومرى وات » مقالاً فى صحيفة « التايمز » اللندنية فى ٨ مارس (آزار) قال فى نهايته [٢] :

« إذا وُجِدَ القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإنه من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسة العظمى فى العالم مرة أخرى » .

وبعدها استطرد معبراً عن قلقه ، بتأكيد قول أحد زملائه ، وهو المستشرق السير « هـ . أ . جب » فيقول :

« وكما نوَّه السير « هاملتون جب » فإن هناك احتمالاً - من الحكمة للغرب ألا يقلل من شأنه - ألا وهو ظهور الإسلام من جديد ، كقوة عالمية » .

---

(١) من كتاب « التبشير والاستعمار » للدكتور مصطفى الخالدى وعمر فروخ ص ١٨٤ - طبعة ثانية .

(٢) الترجمة من مجلة « الغرباء » اللندنية التى تصدرها جمعية الطلاَّب المسلمين فى المملكة المتحدة - عدد مايو ١٩٦٨

ولعله يشير إلى تلك الكلمة التى كتبها « جب » من قبل فى مقدمته لكتاب « إلى أين يتجه الإسلام » ؟ وكان فيها ما يشبه التنبيه والإنذار إلى العالم الغربى ليأخذ حذره ويكيد كيده ، وذلك حين قال :

« ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية ، ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها فى المدارس ، ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً ، ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود ، مع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة ولا يزال حفّاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين . وربما كان تقديس شخصية « محمد » وما يثيره ذكره من حماس فى سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة » .

ثم يقول « جب » كلمة المراقب اليقظ :

« إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تتفجر انفجاراً مفاجئاً ، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها ، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة ، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد » [(١)] .

* * *

٩ - تحقيق الأصالة والاستقلال للأمة

ومزية أخرى نضيفها للحل الإسلامى ، فهو الحل الذى يحقق لأمتنا كرامتها ، وشخصيتها ، ويبرز أصالتها واستقلالها ، بل يضعها موضع الأستاذية للأمم الأخرى ، حيث تحمل إليها حلاً جديداً لعُقَد الحياة ، ومشكلات الكون والإنسان . حلاً غير تلك الحلول اليمينية أو اليسارية التى جرفت الإنسانية إلى شفا الهاوية ،

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية للدكتور م . محمد حسين ص ٢ و ص ٢٠٦ .

وجلبت عليها الشقاء والدمار والقلق والرعب ، فباتت فى ذعر وأصبحت فى خوف ، وأمست فى اضطراب ، ونامت فى أحلام مزعجة .

هذا الحل الذى يمزج بين الروح والمادة ، ويجمع بين الدين والدنيا ، ويوازن بين الفرد والمجتمع ، ويعدل بين الرجل والمرأة ، ويؤلف بين الغريزة والعقل ، ويسوى بين الأبيض والأسود ، ويؤاخى بين الإنسان والإنسان ، هو الحل الذى يجعل لأمتنا رسالة فوق هذه البسيطة ، رسالة تحمل أمانة تنفيذها فى خاصة مجتمعها ، وأمانة تبليغها إلى الناس كافة .

فإنها أمة لم يخلقها اللّه لتعلق بغيرها كالطفيليات ، ولم يخرجها اللّه لتنحصر فى نفسها كحيوان القواقع ، وإنما أخرجها لنفع الناس وهدايتهم ، وإقامة الحُجّة عليهم بتنفيذ رسالة اللّه أولاً ، وإبلاغها إليهم ثانياً . قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .. فهى أمة لم تنبت من نفسها كالنبات البرى أو الشيطانى بل أخرجها اللّه تعالى ، وأخرجها لهدف هو نفع البشرية جمعاء (الناس) عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المرتبطين باللّه .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٢) ..

إن أى حل آخر نستورده من هناك أو هنالك سيحرمنا من هذه الأستاذية للبَشرية وهذه الشهادة على الأمم ، بل سيحرمنا من الأصالة ، والاستقلال ، ويفرغ علينا معنى التبعية ، ويجعلنا أذناباً بعد أن نكون رؤوساً ، فهل يجوز هذا - ديناً أو عقلاً أو عُرْفاً - ونحن نملك أعظم حل لمشكلات الإنسانية ؟

وإذا كان تسول الأغنياء القادرين شيئاً تستبشعه الأخلاق ، وتعاقب عليه القوانين ، فكيف يسوغ لنا - قانوناً أو خُلُقاً - أن نتسول حلاً لمشكلات حياتنا

---

(١) آل عمران : ١١٠ .　　(٢) البقرة : ١٤٣

من عند غيرنا ، بل من عند خصومنا ، وبين أيدينا الحل الناجع من كتاب الله وهدى نبيه ، وتراثنا الفكرى والتشريعى العريض ؟ وما أصدق ما قال المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام !

* *

١ - الحل الذى جُرِّب فى هذه الأمة فآتى أطيب الثمرات

وأخيراً ...

إن الحل الإسلامى هو الحل الذى جُرِّب فى هذه الأمة من قبل ، فأعطى نتائج باهرة ، وحقق نجاحاً منقطع النظير ، وسعدت تحت سلطانه بالطمأنينة والعدل والاستقرار ، وأطعمها الله به من جوع ، وآمنها من خوف ، وأعزها بعد ذل ، وعلّمها بعد جهل ، وهداها بعد ضلال ، واجتمعت عليه بعد فُرقة ، وتآخت فى ظله بعد عداوة وشحناء ، ومَن أنكر هذا فقد كذّب التاريخ ، ونفى الواقع ، وجحد نعمة الله ، وتنكر لآيات الله فقد مَنَّ الله فى كتابه على المؤمنين فقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ..

وهكذا كانت الأمة العربية على شفا الهلاك والدمار في عقائدها وأخلاقها ومجتمعها ، حتى أنقذها بالإسلام وأخرجها من بين الضلال إلى الهدى ، ومن

---

(١) آل عمران : ١٦٤ (٢) آل عمران : ١٠٣

الجهل إلى العلم ، ومن العصبية إلى الأخوة . ومن الفوضى إلى النظام ، وبعبارة موجزة : من الظلام إلى النور .

يقول الإمام التابعى المفسِّر قتادة بن دعامة فى تفسير : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ :

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم ، لا والله ما فى بلادهم يومئذ من شىء يُحسدون عليه ، مَن عاش منهم عاش شقياً ، ومَن مات ردّى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق فيها شأناً منهم حتى جاء الله عزَّ وجلَّ بالإسلام فورثكم به الكتاب ، وأحلّ لكم به دار الجهاد ، ووضع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين ، وإن أهل الشكر فى مزيد الله ، فتعالى ربنا وتبارك » (١) .

إن المجتمعات الإنسانية تحاول اليوم جاهدة القضاء على الفقر ، وإغناء الفقراء عن الحاجة ، ولم تستطع أن تحقق ذلك ، لا فى مجتمعات الرأسمالية ولا الاشتراكية . أما الإسلام قد استطاع – حين أُحسن تطبيقه ، وحين استقر الوضع السياسى للمسلمين ، وتهيأ لهم حكم عادل ، وخلافة راشدة – أن يمحو الفقر المذل ، حتى يتحير صاحب الصدقة أين يضعها ، مما أظل الناس من عدل الإسلام ، وفضل الإسلام .

روى البيهقى فى « الدلائل » عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد

---

(١) من كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ – جـ ٤ ص ٢٥ – المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق بمصر سنة ١٣٢٤ هـ – فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

ابن الخطاب قال : « إنما ولى عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً ، لا واللهِ ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر مَنْ يضعه فيه فلا يجده ، قد أغنى عمر الناس » (١) .

وقال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ، ولم نجد مَنْ يأخذ منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس » (٢) .

وأسبق من عهد عمر بن عبد العزيز أن بعض الأقاليم التى سعدت بحكم الإسلام وعدله فى عهد عمر بن الخطاب ، أدركت حظاً عظيماً من هذا الغنى الذى عمّت بركته أهل الأقاليم كافة ، فلم يجد معاذ بن جبل مبعوث رسول الله ﷺ إلى اليمن والذى أقره أبو بكر وعمر من بعده على ما كان عليه - أقول : - لم يجد معاذ باليمن بعد سنوات قليلة من حكم الإسلام بها واحداً يأخذ منه الزكاة ، مما جعله يبعث بها إلى عمر فى عاصمة الخلافة ، وحاضرة الدولة الإسلامية بالمدينة (٣) . بعد حوار ومراجعة بينه وبين أمير المؤمنين فى ذلك .

فى ظل النظام الإسلامى حققت هذه الأمة رخاءً منقطع النظير ، لا بزيادة الإنتاج فحسب ، بل بعدالة التوزيع أيضاً . فلا خير فى تدفق الغنى والثروة على أمةٍ ، إذا نعمت به طائفة أو طوائف ، وحُرِم منه آخرون .

إن أفضل أنواع العلاج هو ما جرّبه المريض ، فحسم داءه ، وعجّل شفاءه ، والأحمق من الناس هو الذى يدع الدواء المجرّب الموفور عنده ، ليبحث عن دواء جديد ، عند الأجانب عنه ، بل عند خصومه وأعداء دينه وأمته ، مع أن هذا

---

(١) انظر عمدة القارى للعينى : ١٦/١٣٥ (٢) سيرة ابن عبد الحكم .

(٣) راجع كتاب « مشكلة الفقر .. وكيف عالجها الإسلام » للمؤلف . فصل « انتصار الإسلام على الفقر » طبعة ثانية - مكتبة وهبة - القاهرة .

الدواء الذى يلتمسه لم يشف أصحابه ، ولم يهيىء لهم العافية ، ولم يزدهم إلا خبالاً .

أجل .. إن الحلول الأخرى - سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية - لم تجلب السعادة لأهلها ، ولم تحقق لهم رغد العيش وطيب الحياة ، ولا يزال أصحابها بين حين وآخر يُغيِّرون فيها ويُعدِّلون ، وينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، وبخاصة « الاشتراكية العلمية » الماركسية التى فُتِن بها قلّة من قومنا ، وأعطوها ما يعطى المتدينون لوحى السماء من القداسة والخلود أو أكثر ، ثم لم تمض السنون حتى أصبح دعاتها أنفسهم يتراجعون عن كثير من مبادئها ، على كره منهم ، ومعارضة من متعصبيهم ، ولكن نزولاً على حكم الضرورة ، وخضوعاً لمنطق الفطرة ، وانقياداً للغة الأرقام نفسها

إن « ماركس » رفض « جنة الأديان » التى وعد الله بها المؤمنين فى دار الخلود ، أملاً فى « جنة دنيوية » تقيمها الاشتراكية الشيوعية على هذه الأرض ، ومضى ما يزيد على خمسين سنة على قيام النظام الماركسى فى روسيا ، ولم ير الناس من الجنة الموعودة شيئاً ، ولم يذوقوا فى ظل « الشيوعية » برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغسّاقاً .

لقد خسروا نعمة الحرية ، ونعمة الملكية ، ونعمة الأمن والسكينة النفسية ، ونعمة الإيمان بالله ورسله ، ونعمة الأمل فى جنة الآخرة ، ولم يكسبوا فى مقابل ذلك ما كان يُتوقع من وفرة الإنتاج ، وعدالة التوزيع ، ورفاهية الحياة .

لقد عاشت روسيا أشْهُرَ الثورة الأولى فى شِبْهِ حلم بالدنيا الجديدة السعيدة ، وغرقت فى حماسة غريبة تقارب « الهيستريا » .

أعلن « لينين » مباشرة بعد تسلم السُلطة ، أن المجتمع الشيوعى « اللاطبقى » أصبح فى متناول اليد ، ولن يتأخر أكثر من ستة أشهر كى يتحقق ويتبلور .

أما « تروتسكى » فترك التعابير الاقتصادية العلمية جانباً ، وأخذ يتكلم بشكل تجاوز نبوءات الأنبياء حماسة - فى وصف الدنيا الجديدة المنشودة ،

فتراه يقول : « إن الكهنة فى جميع الأديان يستطيعون أن يقولوا ما يحلو لهم عن الجنة المقبلة التى يبشرون بها فى عالم آخر ، ولكننا نحن نعلن بأننا سوف نعطى الجنس البَشرى جنة هنا على هذه الأرض ، لذا يجب ألا ننسى دقيقة واحدة ، المثال الذى نضعه لأنفسنا . إنه أسمى قصد تطلعت إليه الإنسانية فى تاريخها ، وهو يعبِّر عن أشرف وأجمل ما يوجد فى جميع العقائد الفائتة » !

ومما قاله « تروتسكى » فى وصف المجتمع الجديد : « إن الإنسان سيصبح فيه - سريعاً - أقوى وأذكى وأكثر حساسية عما كان . وإن الجسم سينمو بانسجام أكبر ، وإن الصوت ذاته سيصبح أكثر جمالاً ، وإن الإنسان العادى نفسه سيرتفع إلى مستوى « أرسطو » أو « جوته » » !

ولكن هذه الأحلام اللذيذة سرعان ما تبددت ، وواجه الناس ظلام الواقع وظلمه ، وداهمتهم المجاعات المتعاقبة ، والأزمات المتوالية ، وليت الأمر اقتصر على أزمة الغذاء والكساء ، وجوع البطون ، وعرى الأجساد ، ولكن تبع ذلك حملات « التطهير » وحمامات الدم ، وكبت الحريات ، وتكميم الأفواه ، وراح ضحية ذلك ألوف وملايين ، منهم « تروتسكى » نفسه !!! وبذلك أصيبوا بشر مصيبتين يصيبان البَشر فى دنياهم ، وهما : الجوع والخوف : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) ..

ولقد صدم هذا الواقع المرّ بعض الأدباء والمفكرين الذين آمنوا يوماً ما بالشيوعية وقدرتها على حلّ مشكلات البَشر ، وتفادى ما ولدته الرأسمالية من شرور وويلات وانحرافات ، فلما رأوا بأعينهم حصاد المذهب الجديد ، وما حفل به من آثام وأضرار ومنكرات ، يندى لها جبين الإنسان ، وتقشعر من هولها الأبدان ، رجعوا يترحمون على الرأسمالية وأيامها (٢) مرددين ما قال الشاعر :

---

(١) النحل : ١١٢

(٢) اقرأ على سبيل المثال : كتاب « الصنم الذى هوى » ترجمة فؤاد حمودة . وهو مجموعة مقالات لستة من كبار كتّاب الغرب آمنوا بالشيوعية أول الأمر ، ثم كفروا بها حين تبين لهم واقعها المر الأليم .

رُبَّ يوم بكيتُ منه فلما   صرتُ فى غيره بكيتُ عليه !

والعجيب أن الناس فى النظام الرأسمالى الديمقراطى يستطعيون أن يُروِّحوا عن أنفسهم بالاحتجاج والاستنكار ، أو بالتأوه والصراخ على الأقل ، ولكنهم تحت وطأة النظام الماركسى لا يُباح لهم أن يتأوهوا أو يشكوا ، فضلاً عن أن يحتجوا أو يقولوا : « لِمَ » ؟ و « كيف » ؟ فما بالك بـ « لا » ؟!

وقد أراد الشعب المجري يوماً أن يجرب قول « لا » وقالها فعلاً ، فردت عليه الدبابات الروسية تدك دياره دكاً ، وتطحنه طحناً !! وبعدها تجربة الشعب التشيكى .. وما تجربة بولندا – منا – ببعيد !!

إن قول « آه » قد يخفف ألم المريض ، وإن صراخ المظلوم فى وجه ظالمه ، إن لم يشف صدره ، قد ينقع بعض غُلّته ، ولا عجب أن حرّم اللّه الجهر بالسوء من القول إلا من المظلوم ينتفض فى وجه ظالمه ثائراً شاكياً : ﴿ لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ ، وكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾[1] ..

لقد ذاق الغرب الويل على يدى الرأسمالية الفاجرة ، والماركسية الكافرة ، ومن المحال أن تفشل هذه المذاهب والأنظمة فى بلادها ، وتفلح عندنا نحن ، وهى غريبة عنا كل الغُربة : عن ديننا وقِيَمنا وشريعتنا وتراثنا وتاريخنا . فإن ظننا أننا سنحل بمذهب نستورده مشكلات مجتمعاتنا ، ونعالج به فساد أوضاعنا ، فنحن كالذى يريد أن يطفىء النار فيرميها بالخشب ، فيسكت لسانها المندلع لحظات ، ثم يمتد لهيبها فلا يبقى ولا يَذَر

إن من حمق الإنسان أن يعالج مشكلة بخلق مشكلات ، وأن يتفادى خطأً فيقع فى أخطاء ، فيكون كالذى يقضى الدَّيْنَ بالدَّيْنِ ، أو الذى يستشفى من داء بداء ، وقد قال الشاعر :

إذا ما قضيتَ الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن   قضاءً ، ولكن كان غُرماً على غُرمِ !

---

(١) النساء : ١٤٨

وقال آخر :

إذا استشفيتَ من داءٍ بداء فأقْتَلُ ما أعلَّكَ ما شَفاكَ !

إن الحل الوحيد المجرَّب لهذه الأمة هو الإسلام ، ولا شيء غير الإسلام .

بهذ الحل نحفظ ديننا ، وأعراضنا ، وأموالنا ، وأخلاقنا ، وتقاليدنا .

بهذا الحل نربح دنيانا ونربح آخرتنا ، ونرضى ضمائرنا ، كما نرضى ربنا ، ونرتبط بماضينا ولا ننفصل عن حاضرنا ، كما لا نغفل مستقبلنا .

إنه الحل الحتمى ، والحل العادل ، والحل الوحيد .

لأنه الحل الذى وضعه الله لعباده دستوراً ومنهاجاً ، وحكم به دواءً وعلاجاً .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ؟! [1] .

* * *

(١) المائدة : ٥٠ .

السبيل إلى تحقيق الحل الإسلامي

إذا كان الحل الإسلامي يعني قيام مجتمع إسلامي متكامل ، فما السبيل إلى تحقيق هذا المجتمع المنشود ، والانتقال به من عالم الأحلام والأماني إلى عالم الحقائق والواقع ؟

هناك عدة سبل وطرائق سلكتها فئات من الناس . لكل سبيل منها دعاته وأنصاره ، فلنناقش هذه السبل واحداً بعد الآخر .

أولاً : سبيل القرارات الحكومية

يتصور فريق من الناس أن الحل الإسلامي - أو المجتمع الإسلامي - يتحقق في عالم الواقع ، إذا قام حاكم ما : ملك أو رئيس أو أمير ، وأصدر قرارات أو أوامر أو مراسيم - سمِّها ما شئت - باتخاذ الإسلام أساساً للحياة ، وتكوين لجنة أو لجان لتغيير قوانين الدولة الوضعية ، بما يتفق مع الشريعة الإسلامية ، وإن لم يكن لهذا الحاكم أعوان مؤمنون بفكرته ، مخلصون لتنفيذها ، ولم يكن وراءه قاعدة شعبية صلبة تشد أزره ، وتنتصر له . ولا شك أن الحاكم المخلص يستطيع - بما له من سُلطة - أن يزيل كثيراً من المفاسد ، وأن يمنع كثيراً من المنكرات ، وأن يحقق كثيراً من المصالح . وأن يساعد كثيراً من دعاة الخير . ولكن إقامة المجتمع الإسلامي ، واستئناف حياة إسلامية متكاملة ، شيء أكبر وأعمق من ذلك كله .

ولا شك كذلك أن الذين ظنوا أن القرارات الحكومية - وحدها - قادرة على تغيير المجتمعات الإنسانية أو بنائها من جديد ، - هؤلاء قوم حَسَنُو النيَّة ، ولكن غابت عنهم حقائق مهمة في هذا المجال وهي :

١ - معنى أو مدلول مجتمع إسلامى ، وسعته .

٢ - مدى التخريب الذى أحدثه الاستعمار فى ديارنا وما خلّف من آثار .

٣ - مدى قدرة الحاكم الفرد على تغيير مجتمع ما ، وبنائه من جديد .

٤- مدى إرادة الحكّام الحاليين لتطبيق الإسلام ، وإقامة مجتمع إسلامى حقيقى .

٥- مدى خطورة قيام مجتمع إسلامى حقيقى فى عصرنا ، وأثره فى العالم ، وكل عنصر من هذه العناصر الخمسة فى حاجة إلى أن نلقى عليه ضوءاً .

١ - مدلول « مجتمع إسلامى » :

(أ) ليس المجتمع الإسلامى هو الذى ينص فى دستوره على أن دين دولته هو الإسلام ، ثم يسير كل شىء له أهمية فى الدولة بعيداً عن الإسلام .

(ب) وليس هو الذى يعطل دواوينه ووزاراته ومصالحه فى أيام الجُمَع ، ويحتفل بالأعياد الإسلامية ، ويذيع من إذاعته الأذان والقرآن ، ومع هذا لا يشجع المصلين على إقامة الصلاة ، ولا يعاقب المقصرين على ترك الصلاة ، وهو كذلك لا يحكم بشريعة القرآن ، ولا يأخذ المجتمع بآداب القرآن .

(جـ) وليس هو الذى يضع قوانين شرعية إسلامية ، أو يعدل قوانينه بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية . ثم يدع الحياة الاجتماعية والفكرية والسلوكية تمضى فى غير اتجاه الإسلام .

إن المجتمع الإسلامى- كما قلنا ونقول - هو الذى توجهه عقائد الإسلام وتحكمه شرائع الإسلام ، وتقوده مفاهيم الإسلام ، وتسوده أخلاق الإسلام ، وتسيطر عليه تقاليد الإسلام ، وتسرى فى كل جنباته روح الإسلام ، ويصبغ كل شىء فيه بصبغة الإسلام : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [1] ..

---

(١) البقرة : ١٣٨

وحسبنا أن نعود إلى ما كتبناه عن « معالم الحل الإسلامى » ، و « شروط الحل الإسلامى » لنعرف بعض ما يجب معرفته عن حقيقة المجتمع المطلوب .

إنه مجتمع عقيدة وفكرة ، مجتمع دعوة ورسالة ، فلا بد أن تتمثل ذلك فى جميع نواحى حياته ، روحية ومادية ، فكرية وسلوكية ، تربوية وثقافية ، نفسية واجتماعية ، واقتصادية وسياسية .

وقد رأينا نماذج من المجتمعات العقائدية فى عصرنا ، كما فى الاتحاد السوفييتى والصين وغيرهما من بلدان المعسكر الاشتراكى . ورأينا كيف عملوا على صبغ الحياة الاجتماعية كلها بصبغتهم المذهبية فى السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم والإعلام والثقافة والفنون ، وباستخدام شتىّ الوسائل ومختلف الأساليب التى أتاحها العصر لأبنائه .

* *

٢ - مدى التخريب الذى أحدثه الاستعمار فى بلاد الإسلام :

إن التخريب الذى أحدثه الاستعمار فى ديارنا الإسلامية ليس هيّناً ولا سطحياً . إنه - من غير شك - تخريب هائل وعميق . ولا أعنى التخريب فى الحياة المادية والاقتصادية . فهذا يهون بجوار التخريب الآخر .. التخريب فى الأنفس والضمائر والعقول والحياة الروحية والاجتماعية

لقد غيّر المفاهيم الأصيلة فى الأمة ، مستبدلاً بها مفاهيم غربية مستوردة لا تمت إلى تراث الأمة بصلة ، حتى وجدنا فى أبناء الأمة مَن ينكر أن يكون للإسلام علاقة بالدولة ، وسياسة الحكم أو سياسة المال .

ووجدنا فى أبناء المسلمين مَن يدعو إلى إباحة الربا ، ومَن يستنكر تحريم الخمر ، ومَن يُحرِّض على إباحة الجنس ، ومَن يسمى الفضيلة « تزمتاً » والتدين « رجعية » والانحلال « حرية » والتبعية لهذا المعسكر أو ذاك « تقدمية » .

ووجدنا من بنات المسلمين مَن تمشى عارية المنكبين والساقين والركبتين ، وما فوق الركبتين متأبطة ذراع رفيق ، لا تخشى من خالق ، ولا تستحى من مخلوق ، ولا تتهيب من شىء .

ووجدنا من رجال المسلمين مَن يطالب بتقييد تعدد الزوجات فى الحلال ، فى حين يبيح القانون الوضعى تعدد الخليلات فى الحرام ، ورأينا مَن جرأ على المناداة بالمساواة بين الذكر والأنثى فى الميراث .

بل وجدنا من زعماء بعض البلاد العربية مَن يحمل على فريضة الصيام ، لأنها تقلّل - فى نظره - الإنتاج ، ويحمل على شعيرة الحج ، لأن فيها بقايا من الجاهلية فى زعمه كرمى الجمار ! بل يحمل على كتاب الله ، لأنه يحوى أفكاراً لا يصدقها العقل ، كقصة أهل الكهف وعصا موسى . ويتهم الأمة الإسلامية بتأليه محمد ﷺ ، يقول ذلك علناً وفى مؤتمر ، دون أن يُحكم عليه بالرِّدَة ، وينال عقوبة المرتد !!

ووجدنا فى بلاد المسلمين كتباً تُطبع ، ومجلات تظهر ، وصحفاً تُنشر ، وأفلاماً تُعرض ، وبرامج تُذاع ، تناوىء الإسلام ، وتتحدى شريعة الإسلام ، وعقيدة الإسلام !

وجدنا من أبناء المسلمين - ممن اسمه محمد وأحمد ومحمود وعمر وعلىّ وخالد وصلاح الدين - دعاة إلى اليسار ، ودعاة إلى اليمين ، إلى قِبْلة الشرق وإلى قِبْلة الغرب ، وإلى كل جهة وكل قِبْلة ، إلا قِبلة الإسلام !

ووجدنا مَن يحاضر فى مدينة عربية فيقول : أنا عدوّ الأصالة فى الفكر والثقافة ! لماذا ؟ لأن الأصالة تربطه بتراث المسلمين ، وهو لا يريد الارتباط إلا بفكر سادته الغربيين !

لقد استطاع المستعمر الدخيل الذى سيطر على بلاد الإسلام أن يغيِّر القوانين ويغيِّر التقاليد ، ويغيِّر المفاهيم ، ويغيِّر القِيَم ، وذلك بواسطة وسائل وأساليب استخدمها بمهارة وذكاء حتى نجح إلى حد كبير فيما أراد . وقد تحدثنا عنها فى كتابنا الأول « الحلول المستوردة » فلتراجع فى الفصل الأول هناك .

وأهم ما نجح فيه ذلك المستعمر البغيض أنه ربّى أجيالاً تؤمن بمفاهيمه وقِيَمه وتقاليده ، وتعيشها بالفعل ، شبَّ عليها الصغير ، وهرم عليها الكبير ، حتى

أصبحت هى « الأصل » وغيرها هو « الطارىء » وباتت هى « المعروف » وما عداها هو « المنكر » وهذا شر ما يصيب المجتمع المسلم ، أن تنقلب فيه موازين القِيَم ، فيصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً . ثم يتفاقم الأمر ، حتى يُؤمر بالمنكر ، ويُنهى عن المعروف ، بل يُكرّم الآمر بالمنكر ، فيكتب فى كبريات الصحف ، ويبرز على شاشة التليفزيون ، ويمنح جوائز الدولة . على حين يكون نصيب الداعى إلى الله ، والآمر بالمعروف الناهى عن المنكر « حبل المشنقة » فإن رفقوا به فـ « زنزانة في السجن » يتمنى أن يُعامَل فيها معاملة القتلة المجرمين !

وفوق هذا كله صنع المستعمر على عينه قيادات فكرية وسياسية ، سلّم إليها الزمام ، وهو مستريح الخاطر ، هادىء البال ، مطمئن إلى أن خطه مستمر ، وأنه إن رحل بجسمه فروحه باقية ، بفضل ما غرس من أفكار ، وما خلّف من آثار ، وما ربّى من تلاميذ أوفياء لمبادئه ، أكثر من وفائه هو لها ، غربيين أكثر من الغرب نفسه .

وإلى جوار هذا الفساد العريض الذى تركه الاستعمار المخرب ، لا ننسى فساداً آخر ، تركته عصور الانحطاط الأخيرة فى بلاد المسلمين ، يتمثل فى :

الإيمان بالخرافات والأوهام من الناحية العقلية .

وشيوع الروح الجبرية والاتكالية والسلبية من الناحية الخُلُقية .

التزام التشديد والتزمت والتضييق فى الناحية الأسرية والاجتماعية .

ورفض الاجتهاد والتجديد الصحيح فى الناحية التشريعية والفقهية .

وقبول البِدع والغلو والتحريف فى الناحية العبادية .

وهذا كله يدلنا بجلاء على أن تغيير مثل هذا المجتمع لا يأتى بجرة قلم ، ولا بإصدار قرار . إنه يحتاج إلى عملية شاقة مستمرة من الهدم والبناء ، حتى يقوم صَرحه المكين على تقوى من الله ورضوان . وإن طريق العودة إلى الإسلام

ليس مفروشاً بالأزهار ، بل هو طريق وعر المسالك ، مفروش بالأشواك ، محفوف بالمكاره ، مليء بالمخاطر والصعوبات .

* *

٣ - مدى قدرة الحاكم على تغيير المجتمع :

لقد أثبت حكيم المؤرخين ابن خلدون أن الحكم - أو المُلك على حد تعبيره - لا بد له من عصبية ، أى كتلة أو جماعة قوية تسنده وتحميه ، وبدونه لا يبقى ، بل بدونه لا يصل صاحب الحكم إلى الحكم ابتداء .

وهذا أمر يشهد له قراءة الواقع ، كما يشهد له استقراء التاريخ .

والحاكم لا يصل إلى مقعد الحكم فى ظل كوكبة من ملائكة السماء ، بل فى ظل كتلة من أهل الأرض . بواسطتها يصل ، وبمساندتها يستمر . سواء أكانت هذه الكتلة أو الجماعة دينية كالمهاجرين والأنصار فى عهد الراشدين ، أو قَبَلية كبنى أمية ومَن معهم فى عهد الأمويين ، أو عسكرية كالمماليك فى العصر المملوكى ، وكالجيوش فى بلاد الديكتاتوريات العسكرية إلى اليوم ، أو فكرية سياسية مثل كثير من رؤساء الدول فى الشرق والغرب اليوم ، ممن تسندهم أحزاب عقائدية ، أو سياسية .

المهم أن الحاكم لا يصل إلى سُلطان الحكم إلا بجماعة ، ولا يستمر فيه إلا بجماعة ، وهذا فى حاكم عادى كل همه أن يحفظ أمن البلاد فى الداخل ، ويحميها من الغزو والانتقاص من الخارج ، ويُسيِّر دفة الأمور على ما هى عليه .

فكيف إذا كان الحاكم صاحب عقيدة ، يريد نشرها وسيادتها ، وحامل منهاج يريد تحقيقه فى حياة الناس ؟ وكيف إذا كان هذا المنهاج يتضمن مُثُلاً عليا ، يتطلب تنفيذها إرادةً وصبراً وجهاداً ؟ وكيف إذا كان لهذا المنهاج خصوم متربصون وأعداء كثر سافرون ومقنعون ؟! وكيف إذا كان المجتمع الذى تحقق فيه ذلك قد كثر فيه التخريب إلى حد يريد بناءه من جديد ؟

إن هذا يجعل مهمة الحاكم مستحيلة ما لم تكن له أسناد قوية تنصره إذا خُذِل ، وتحميه إذا هُدِّد ، وتقوية إذا ضَعُف ، وترشده إذا أخطأ ، وتقوِّمه إذا اعوج . وما لم يكن معه أعوان مخلصون يؤمنون بما يؤمن به ، ويدعون إلى ما يدعو إليه ، يجمعون القوة إلى الأمانة ، والكفاية إلى الديانة ، يراهم الناس فيرون فيهم فكرة الحكم ماثلة ، وعقيدة الدولة مجسّدة .

وبدون هؤلاء الأقوياء الأمناء تظل الأفكار النظرية للحكم المنشود ، والدولة المثالية المرتقبة ، حبراً على ورق مصقول ، أو مواد مرتبة فى دستور مجمّد !

ولقد رأينا دساتير بالفعل ، هى أقرب ما تكون إلى الإسلام ، ومع هذا لم يقم المجتمع الإسلامى المنشود بمجرد وضعها أو إقرارها .

ومن هنا نعلم أن تصور حاكم ما لنفسه ، أو تصور بعض الناس له ، أنه قادر على تغيير صورة المجتمع وحقيقته بقرارات ثورية ، أو مراسيم دستورية ، تصور غير صحيح ، لأنه مبنى على عدم الإحاطة بإمكانية الحاكم ، وبتعقيد المجتمع .

إن تغيير الأسلحة والأجهزة والأدوات وكل ما يتعلق بشئون المادة ميسور .. وإن بناء الحصون والمدارس والمصانع مقدور عليه . ولكن الصعب حقاً هو تغيير الإنسان وبناء الإنسان !

* *

٤ - مدى إرادة الحكّام الحاليين لتطبيق الإسلام :

وهناك شئ آخر غير قُدرة الحاكم على التغيير الجذرى المطلوب ، هو مدى إرادة حكام المسلمين الحاليين لتطبيق أحكام الإسلام ، وإقامة مجتمع إسلامى حقيقى ، واستئناف حياة إسلامية صحيحة .

هل تتوافر لدى هؤلاء الحكام النية الصادقة ، والإرادة الحازمة للعودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة ؟

إن المرء ليشك كثيراً فى ذلك ، رغم أن فيهم مَن يصلى ويصوم ويحج ويعتمر ، ولكنهم لا يذهبون فى التدين إلى أبعد من ذلك .

فمنهم مَن تصوّر الدين علاقة فردية بين المرء وربه . ولا صلة له بالسياسة

ولا شأن له بالدولة ، فالسياسة مكر ونفاق ، والدين طُهر ونقاء ، فكيف يلتقيان ؟!

ومنهم مَن وقر فى نفسه بعض ما قرأه عن الغرب ونهضته الحديثة ، وكيف فصل الدين عن الدولة ، وعزل الكنيسة عن السياسة ، فطبق على الإسلام ما جرى فى المسيحية ، وتوهم أن الشرق لا ينهض إلا بما نهض به الغرب .

ومنهم مَن يشك فى صلاحية الإسلام لقيادة الدولة المعاصرة ، وتوجيه المجتمع الحديث ، ومواكبة التطور العالمى ، نظراً لضعف معرفته بحقيقة الإسلام ، وربما كوّن فكرته عنه من خصومه أنفسهم .

ومنهم مَن لا ينقصه الفهم للإسلام ، وصلاحيته لقيادة النهضة ، وإصلاح الأمة ، وبناء الدولة ، ولكنه أعجز من أن يتبناه منهجاً للحياة ، يدعو إليه ، ويصر عليه ، ويغالى به ، ويذود عنه ، فهذا التبنى فى الواقع فى حاجة إلى مصلح ذى رسالة ، لا إلى مجرد حاكم ذى سلطان .

ومنهم مَن يخشى عاقبة الرجوع إلى الإسلام ، فتغضب عليه القُوَى المعارضة للإسلام فى الخارج والداخل فيهتز كرسى الحكم تحته . وهو حريص عليه حرصه على الحياة .

ولهذا يصعب على الدارس أن يصدّق أنه يوجد فى هؤلاء الحكام القائمين اليوم على أمر الشعوب الإسلامية مَن يريد - بصدق - الرجعة إلى الإسلام ، فيعيش به ، ويعيش له ، أو يموت فى سبيله .

إن الأمر يحتاج إلى تربية وإعداد وتكوين ، لم يتهيأ لهؤلاء ، ولم يتهيأ له بعد . يحتاج إلى إيمان قوى تهون معه كل تضحية ، ويرخص معه كل غال من أعراض الدنيا . ولمأ نرى هذا الإيمان فى أحد منهم بعد .

* *

٥ – خطورة قيام مجتمع إسلامى حقيقى على القُوَى العالمية :

وهذا شيء آخر لا ينبغى إغفاله أو التهوين منه . وهو مدى خطورة قيام مجتمع إسلامى حقيقى فى عصرنا ، وتأثيره فى ميزان القُوَى العالمية .

إن قيام هذا المجتمع فى أى رقعة من أرض الإسلام ولو صغيرة ، أمر يُحسب له ألف حساب وحساب .

من قِبَل اليهودية العالمية .

ومن قِبَل الصليبية الغربية .

ومن قِبَل الشيوعية الدولية .

ومن قِبَل الطامعين والحاقدين فى كل مكان .

إنهم يخشون أن يتسع هذا المجتمع ويمتد سلطانه من بلد إلى بلد ، حتى يتطور إلى الشيء الخطر المخوف لديهم : الخلافة الإسلامية .

وهم يخشون أن يجدد هذا شباب الإسلام ، فيفيق العملاق من غفوته ، ويخرج من قمقمه ، ويتصل أمسه بغده ، ويعود من جديد خالد وأبو عبيدة وصلاح الدين ومحمد الفاتح وقطز !

وهم يخشون أن يعود المسلمون مسلمين ، فتكسد كثير من تجاراتهم المحرَّمة ، ولا تجد لها فى بلاد الإسلام سوقاً .

وهم يخشون أن يتعاون المسلمون فيما بينهم ، على تحقيق الاكتفاء الذاتى ، والتكامل الاقتصادى ، كإقامة صناعات ثقيلة ، تسد حاجتهم وتغنيهم عن الاستيراد من غيرهم ، فلا يتحكم فيهم معسكر شرقى ولا غربى . وفى هذا من الخسارة على القُوَى المصدِّرة لبلاد الإسلام ما فيه !

ولا عجب أن نراهم يقاومون بكل قوة كل حركة إسلامية يخافون أن تتحول يوماً إلى دولة ، ولا يكتفون بالسجن والاعتقال والاضطهاد والتضييق ، بل يصبغون أيديهم بالدم إذا احتاج الأمر إلى الدم . وإلا ، فلماذا ، قُتِل

حسن البنا ، وعبد القادر عودة ومحمد فرغلى وسيد قطب ، وأحمدو بللو ، ومالكولم إكس ، وغيرهم من رجال الدعوة إلى الإسلام ؟!

وهذا يجعل مهمة أى حاكم يحتضن فكرة الإسلام ، مهمة صعبة للغاية ، لأنه سيواجه مؤامرات على مستوى عالمى ، قد تتفق عليها المعسكرات المختلفة فيما بينها ، ما دام العدو هو الإسلام ، العدو المشترك للجميع ، ووراء هذا أزمات ومضايق ، ومحن ، لا يقدر عليها إلا أولو العزم من الرجال وقليل ما هم .

فما لم يكن للحكم « عصبية » تحميه وتفديه ، وشعبية تناصره وتعضده ، تجاه المؤامرات والفتن ، لم يستطع الثبات والصبر طويلاً أمام ضغطها وتحديها . وقد قال عنه الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .. فكما أيّده الله تعالى بنصره وبملائكته ، أيّده كذلك بالمؤمنين المتآخين من أنصاره وأتباعه . وفى هذا إشارة واضحة إلى أهمية وجود المؤمنين المؤتلفين المترابطين مع كل صاحب دعوة ، وحامل فكرة ، ولو كان هو النبى ﷺ ، فكيف بمن دونه ؟!

هذه هى الحقائق الخمس التى قد تغيب عن ذهن مَن يتصور قيام المجتمع الإسلامى المرتقب بإصدار القرارات أو القوانين .

* * *

ثانياً : سبيل الانقلابات العسكرية

ويتصور آخرون أن السبيل إلى الحل الإسلامى ، وإقامة المجتمع الإسلامى ، يتمثل فى انقلاب عسكرى تقوم به فئة عسكرية مسلحة من الشعب أو من الجيش أو منهما معاً ، تنقض على السُلطة ، وتستولى على الحكم ، وتُسيِّر كل شىء بعد ذلك وفق حكم الله وشرعه .

(١) الأنفال : ٦٢ - ٦٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

• مستند أصحاب هذا الرأى :

ويستند هؤلاء فى تأييد فكرتهم إلى أمور :

١ - إن تغيير المنكر باليد - أى بالقوة المادية - واجب لا يسقط إلا بالعجز عنه ، وأى منكر أكبر من استحلال الحكم بغير ما أنزل الله ، وهو كفر وظلم وفسوق بنص القرآن ؟

٢ - إن القوة هى أضمن طريق لإحقاق الحق ، ومَن لم يخضع لقوة المنطق ، خضع لمنطق القوة .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

وكما أن القوة أضمن الطرق . هى أيضاً أسرعها للتغيير المطلوب .

٣ - إن الجهاد لإقامة الحكم الإسلامى فريضة على المسلمين ، بل الجهاد لإقامته فى حال فقده أوجب من الجهاد للدفاع عنه حال وجوده . ومن الجهل استعمال القوة العسكرية .

٤ - إن النبى ﷺ استخدم القوة لقهر أعدائه عندما لم يجد مناصاً من ذلك ، وأذن الله له فى قتال مَن ظلموه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

٥ - إن أحاديث النبى ﷺ تأمرنا بمعصية الحاكم ومقاومته إذا رأينا منه كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان . وكيف يمكن مقاومته بغير القوة ؟ وفى حديث عن أمراء الجور ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم بالسيف ؟ قال : « لا ، ما صلُّوا » . ومفهومه : أنهم إذا أضاعوا الصلاة نابذوهم السيف .

٦ - إن أهل الباطل نجحوا فى استخدام القوة العسكرية ، واستولوا بها على السُلطة ، لخدمة باطلهم ونشر كفرهم وعصيانهم . أوَ ليس أهل الحق أولى باستخدامها لنُصرة حقهم منهم ؟

٧ - إن الحرية السياسية فى عالمنا العربى والإسلامى مفقودة تماماً فى معظم

البلدان ، وشبه مفقودة فى البعض الآخر ، وأصبح التحرك أو التجمع الإسلامى الصحيح عملاً ضد الدولة أو النظام . فلا أمل إذن فى الوصول إلى الحكم الإسلامى بالكفاح السلمى وبالوسائل الديمقراطية . ولم يبق أمامنا إلا الحل العسكرى ، لتغيير هذا الوضع ، وتنحية هذا الطوق . إما لصالح الفكرة الإسلامية ، أو لصالح الحريات « مرحلياً » وإذا فرض على القلم أن يسكت وجب على المدفع أن ينطق

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها !

٨ - إن بلادنا تواجه أعداء من كل جانب ، وتعانى مشكلات لا يفصل فيها غير الحديد والنار ، مثل مشكلة كشمير ، ومشكلة فلسطين ، ومسلمى الفلبين ، ومسلمى أريتريا والحبشة وغيرهم . فلا بد من الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الأعداء ، استجابة لأمره تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١) ..

٩ - إن الحركة الإسلامية فى حاجة دائمة إلى قوة عسكرية تحميها من بطش الطغاة من الحاكمين ، وهى بدون ذلك ، معرّضة لأن تُضرب ضربات قاتلة ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ، لأنها عزلاء . ولا يفل الحديد إلا الحديد . وهذا يتطلب من الحركة إعداد قوة مستعدة للدفاع عن النفس - على الأقل - إن لم يكن للوثوب لتحقيق النصر .

١٠ - إن التدريب العسكرى فى حد ذاته مطلوب للمسلم ، وخصوصاً عضو الحركة الإسلامية ، لأنه ينمى فيه معانى القوة والخشونة والاحتمال والثقة بالنفس وغيرها من الفضائل التى لا تستغنى عنها أمة فى نهضتها . لا سيما

---

(١) الأنفال : ٦٠.

إذا كان لها عدو يهدد أمنها ، أو يحتل جزءاً من أرضها ، كما هو شأن العرب مع إسرائيل ، التى قام كيانها أساساً على الاغتصاب والعدوان .

* *

● مناقشة هذا الرأى :

ورغم ما لهذا الرأى من بريق ، وما لبعض الاعتبارات التى استند إليها من وجاهة ، يؤخذ عليه أنه أسقط من اعتباره عدة أمور على جانب كبير من الأهمية ، منها :

١ - إن النجاح فى الاستيلاء على السُلطة بالقوة ، لا يعنى النجاح فى تطبيق المبادىء التى قام الانقلاب من أجلها . وكم من فئات حزبية انقضت على السُلطة ، وتمكنت من أزمّتها ، وظلت تحكم عدة سنين ، ومع هذا ظلت معزولة عن الشعب مبغضة إليه ، وكلما طال بقاؤها ، زادت كراهية الناس لها .

إن ما قلناه فى مناقشة الطريق السابق يقال هنا أيضاً ، وزيادة . فالتغيير الجذرى - الذى يقوم على دعائم روحية وعقلية ونفسية وأخلاقية ، مما لا يتحقق بقرارات حكومية - لا يمكن أن يأتي بانقلاب عسكرى ، من باب أولى .

٢ - إن تغيير المنكر باليد - أى بالقوة المادية - هو فى الأصل واجب كل ذى سلطان فى سلطانه ، كالأب مع أطفاله ، والزوج مع زوجته ، والحاكم مع رعيته ، أما العكس ، كالابن مع أبيه ، والمرأة مع زوجها ، والرعية مع حاكمها ، فالأمر يحتاج إلى أناة وحذر وحكمة ، ولا يُفتح الباب فيه على مصراعيه لكل أحد ، دون قيد .

ولهذا اتفق فقهاء المسلمين على أن إزالة المنكر وتغييره باليد إنما تُشْرع لمن يملك القُدرة على التغيير ، وبشرط ألا يترتب على إزالة المنكر منكراً أكبر منه وإلاّ ، فالواجب هو التغيير ، باللسان أو بالقلب حسب الاستطاعة ، وإلى أن تحين الفرصة .

وهذا مبنى على القاعدة الشرعية المقررة : ارتكاب أخف الضررين ، وتفويت أدنى المصلحتين ، وهو مبنى كذلك على ما جاءت به الأحاديث من الصبر على أمراء الجور، وإن ضربوا الظهر وأخذوا المال ، وذلك خشية الصدوع والانشقاقات فى الدولة الإسلامية ، نتيجة للثورات المسلحة التى يقوم بها رجال مخلصون متحمسون ينشدون المثل الأعلى ، غير مقدِّرين للنتائج والعواقب . ولكن هذه الأحاديث استثنت حالة واحدة : « أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من اللّه برهان » .

٣ - إن هذا الرأى أغفل الأضرار والأخطار التى تنشأ عادة من جرّاء إعداد قوة شعبية عسكرية مسلحة ، فضلاً عن استخدامها فى الوصول إلى الحكم .

ومن هذه الأخطار أو الأضرار :

(أ) الخروج على القانون : فالقوانين الوضعية السائدة تحرِّم حمل السلاح بغير إذن ، وتحظر تكوين أى جماعة عسكرية . وهذا يؤدى عاجلاً أو آجلاً إلى الاصطدام الحتمى بالسُلطة ، وتعريض الحركة لأخطار غير مأمونة العواقب .

(ب) اللجوء إلى السرية : فما دام تكوين الجماعات ممنوعاً قانوناً ، فلا بد من السرية المطلقة ، التى تقتضى إخفاء التنظيم وقيادته وأفراده ، إلا فى أضيق الحدود . وفى سراديب السرية كثيراً ما تتسرب عناصر غير مأمونة ولا معروفة ، لم تُجرَّب فى النور ، ولم تُختبر تحت أشعة الشمس .

وكثيراً ما تكون هذه السرية جماعة داخل الجماعة الكبرى ، وقيادة وراء القيادة الظاهرة العليا . فيؤدى هذا إلى الثنائية والازدواج والتناقض .

على أن « التكنولوجيا » الحديثة قد أمدت رجال المخابرات والمباحث بأجهزة للتعذيب ، وأدوات للتأثير على المخ ، وأساليب للحرب النفسية ، جعلتهم أقدر كثيراً على اكتشاف أى تنظيم سرى بمجرد العثور على بعض أفراده ولو عشوائياً . ولا سيما إذا تولت ذلك فئة لا تخشى خالقاً ، ولا ترحم مخلوقاً .

(جـ) الاستعجال قبل النضوج . وهذه آفة التفكير العسكرى غالباً ، إن هذا النوع بمجرد أن يملك قدراً من السلاح ، وعدداً من الجنود المخلصين المطيعين ، لا يطيق الانتظار . إنه يتهم المتريثين بالتردد ، والمعارضين بالجبن ، إنه يريد أن يضرب ضربته بسرعة ، وليكن ما يكون ، وهو يُقدِّر دائماً النجاح ، وقلَّما يُقدِّر الفشل .

إن الحركة الصبيانية الطائشة التى أذيع عنها فى مصر أخيراً – وهى حركة الكلية الفنية العسكرية – تدلنا بوضوح على خفة هذا اللون من التفكير ، الذى لا يكاد ينظر إلى موضع قدميه . كما يدلنا على مبلغ ما يمكن أن تجنيه السرية المطلقة على شباب مؤمنين مخلصين ، يقودهم مَن لا يعرفون ، إلى ما لا يعلمون !

٤ – إننا إذا غضضنا الطرف عن هذا كله ، وافترضنا تفادى هذه الأخطار ، فإن استخدام القوة العسكرية يجب التضييق فيه إلى أبعد حد مستطاع ، فلا يجوز إلا لإزالة الكفر البواح ، كما سمَّاه رسول الله ﷺ ، لا لمجرد تقويم انحرافات جزئية . أو تغيير منكرات عادية . ولا بد من انسداد كل الطرق الأخرى ، بحيث يكون اللجوء إلى القوة من باب الضرورة التى تُقدَّر بقدرها .

ولا بد من تهيئة الرأى العام لتقبل هذه الخطوة ومناصرتها ، بل للمناداة بها قبل أن تقع . ولا بد من استكمال كل عناصر القوة الأخرى اللازمة : من روحية وأخلاقية وتنظيمية وشعبية ، قبل اللجوء إلى القوة العسكرية .

وما أوضح وأبلغ ما قاله فى هذه المعانى مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة فى مصر والعالم العربى ، الشهيد حسن البنا ، حين قال فى « رسالة المؤتمر الخامس » :

« ويتساءل كثير من الناس : هل فى عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر ؟ ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين فى حيرة ، بل إنى أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا فى وضوح وفى جلاء ، فليسمع مَن يشاء ..

أما القوة فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادى فى وضوح وجلاء : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [1] .. والنبى ﷺ يقول : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » .

فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ، ولا بد أن يعملوا فى قوة .

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر ، فلا يغوصوا إلى أعماقها ، ولا يزنوا نتائجها ، وما يُقصد منها وما يُراد بها ، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ، ويلى ذلك قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدها قوة الساعد والسلاح - ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعانى جميعاً ، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككة الأوصال ، مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان ، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك - هذه نظرة .

ونظرة أخرى ، هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره - باستخدام القوة فى كل الظروف والأحوال ؟ أم حدَّد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجَّه القوة توجيهاً محدوداً ؟

ونظرة ثالثة - هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكى ؟

وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟ أو من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون ؟!

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه - والثورة أعنف مظاهر القوة ، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

وأعمق وبخاصة فى وطن كمصر جرّب حظه فى الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون » [1] .

٥ – ونضيف هنا شيئاً علمتناه تجارب عقود السنين الأخيرة ، وهو : أن أية قوة عسكرية شعبية ، لم تعد تكفى – فى عصرنا – لمواجهة قوات الدولة المسلحة ، لبُعد المسافة بين قدرة كل من الطرفين ومدى إمكاناته .

فالجيوش الرسمية اليوم – بما تملك من مدرعات وطيران وأسلحة صاروخية وغيرها – أصبحت قادرة على سحق أية فئة عسكرية مهما يكن تدريبها وتنظيمها .

وأمامنا أمثلة وتجارب عديدة فى ذلك قريبة العهد ، ولا يزال صداها يدوى فى الأسماع .

فى أندونيسيا تجربة حزب « دار الإسلام » الذى تحصن بالجبال وقاتل رجاله قتال الأبطال سنين عديدة ، صنعوا فيها روائع الأمثلة ، ونوادر البطولة ، ثم دحرهم سلاح الطيران .

وأقرب من ذلك زماناً ومكاناً تجربة الفدائيين مع الجيش الأردنى . بعد أن بلغوا مبلغاً عظيماً من القوة والعدد وتخزين السلاح و « التمركز » فى داخل العاصمة « عمان » والانتشار بين أهليها ، مع التأييد المحلى والعربى ، ومناصرة دول كثيرة أخرى . ومع هذا كله استطاع الجيش النظامى الأردنى أن يقضى على هذه القوة الهائلة فى أيام قليلة . وإن فى ذلك لعبرة .

وهناك تجربة جزيرة « أبا » فى السودان : تجربة « الأنصار » مع جيش الحكومة .

وهناك تجارب أخرى في كل منها دروس وعظات يجب الاستفادة منها . فالسعيد مَن وُعِظَ بغيره .

---

(١) مجموعة وسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٢٦٨ – ٢٧. – طبعة دار الأندلس – بيروت .

وهذا يؤكد لنا أن محاولة القيام بانقلاب عسكرى لا يؤيده الجيش ، محاولة محكوم عليها بالفشل .

والواجب - إذن - على دعاة الإسلام ، أو يولوا الجيش عناية أكبر ، وأن يعملوا بكل سبيل مشروع لنشر الفكرة الإسلامية الصحيحة بين ضباط الجيش وجنوده ، وكسبهم إلى جانب الاتجاه الإسلامى ، فما هم إلا جزء من أبناء الشعب ، قبل أن يدخلوا الجيش ، وبعد أن دخلوا فيه ، وإذا كان الانضمام إلى الجماعات محظوراً عليهم ، فإن قراءة الكتب والرسائل ، والمجلات وحضور الندوات والمساجد ، والاستماع إلى الخطب والمحاضرات ، أمر غير محظور على أحد .

إن الواجب أن يكون الجيش فى البلاد الإسلامية حامياً للإسلام ، لا أداة تُتخذ لضربه .

ولا أقصد بالحماية : أن يقوم الجيش بانقلاب لصالح الإسلام ، بل منع أى انقلاب يقوم ضده .

فكثيراً ما استُخدمت الجيوش - للأسف - لضرب الاتجاه الإسلامى الشعبى ، فى كثير من الأقطار التى يدين أغلبية أهلها بالإسلام . ومن أمثله ذلك ما حدث فى تركيا فى زمن حكومة « عدنان مندريس » ، حين برز المد الإسلامى الشعبى ، وأثبت وجوده فى الانتخابات ، وأسقط حزب « الكماليين » وجاء بخصومهم إلى الحكم ، بعد أن وعدوا الناخبين بأمور فى صالح الإسلام . فما كان من الجيش - أو كبار ضباطه على الأصح - إلا أن تحرك ، لإسقاط الحكومة ، والاستيلاء على السُلطة ومقاومة الحركة الإسلامية الشعبية .

٦ - إن القول بأن الحل العسكرى هو الطريق الأوحد لإزالة الاستبداد وفرض الحرية المفقودة - قول غير مُسَلَّم ، وغير واقعى .

فالاستبداد لم يكن ولن يكون طريقاً للحرية ، والقوة العسكرية لن تفرض الحرية ، بل غالباً ما تكون هى التى تخنق الحرية !

إن الرجل العسكرى بحكم تربيته الخشنة الصارمة ، القائمة على « الضبط والربط » وبحكم ما تحت يديه من قوة ، لا يعتد بالمنطق والدليل ، ولا يفهم لغة الحوار والمعارضة ، إنما يفهم لغة واحدة هى الأمر والتنفيذ ، أو القوة والتهديد . فإذا تمكنت فئة عسكرية من الوصول إلى الحكم كانت هذه هى لغتها الوحيدة فى معاملة المعارضين والمحايدين ، بل الأتباع والأنصار أيضاً . لأنها لا تطيق قول « لِمَ » ؟ فضلاً عن « لا » .

فالحرية لا يفرضها العسكر بل يفرضها الشعب نفسه ، إذا بلغ درجة من الوعى والنضوج لا يسمح فيها أن يُقاد كما تُقاد الأنعام !

٧ - بقى ما يقال من الحاجة إلى القوة العسكرية لمقاومة أعداء المسلمين من جهة ، ولحماية الحركة من جهة ثانية ، ولتدريب أعضائها على معانى القوة والجهاد من ناحية أخرى .

فأما مواجهة الأعداء فأمر لا يخص الحركة وحدها ويجب أن تقوم به الأمة كلها ، وتدخل فيه الدولة بثقلها .

وأما الحماية فما ذكرناه من تجارب السنين الماضية يكفى فى الرد على هذه الدعوى . وقد كان للحركة الإسلامية في بعض البلاد فى وقت ما ، قوة عسكرية شعبية منظمة مدربة ، فلم تغن عنها شيئاً ، ولم تستطع الدفاع عنها أمام طغيان السُلطة .

ولعلها كانت سبباً فى عنف الضربات الموجهة إليها . أو - على الأقل - اتخذوها حُجّة يبررون بها هذه الضربات الوحشية .

وأما التدريب العسكرى فلا ننكر أهميته وضرورته لتكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة . ولكن مع وجود التجنيد الإجبارى ، وقيام منظمات للفتوة والحرس الوطنى ، وغيرها ، يمكن أن يتم التدريب المطلوب فى إطار الأوضاع السائدة ، دون التعرض لمخالفة القانون ، ومعارضة السُلطة بغير حاجة مُلّحة .

٨ - إن الانقلاب العسكرى . حتى لو قام به الجيش ونجح فى تسلم زمام السُلطة ، لا يؤمن أن يطيح به انقلاب عسكرى مثله ، ومعنى هذا أن تعيش الأمة فى بلبلة وفوضى ، لا مكان معها لطمأنينة أو استقرار ، كما كان هو الحال فى معظم عالمنا العربى طوال ربع القرن الماضى ، منذ سنة ١٩٤٩ ، حتى اليوم .

والحركة الإسلامية يجب أن تنكر هذه الظاهرة الخطرة ، لا أن تسهم فى بقائها واتساعها ، وقد كنتُ كتبتُ بحثاً عن هذه الظاهرة منذ سنوات ، لأضعه فى مكان من كتاب « الحلول المستوردة » ولكن الطبعة المسبقة سبقته . ولعل وضعه هنا - ببعض تصرف - أليق وأوفق .

* *

● ظاهرة الانقلابات العسكرية :

لا يستطيع باحث يتعرض لتقويم هذه المرحلة من تاريخ أمتنا دون أن يتحدث عن هذه الظاهرة الخطيرة التى تميزت بها تلك المرحلة ، تلك الظاهرة التى لم تنبت فى أرض المنطقة نباتاً طبيعياً ، بل صُدِّرت إليه تصديراً ، والتى كان لها نتائج بعيدة الغور فى سياستها واقتصادها وادياتها ومعنوياتها ، تلك هى ظاهرة الانقلابات العسكرية .

١ - إن الانقلابات العسكرية ، وإقحام الجيوش فى السياسة كانت له آثار خطيرة في حياتنا كلها . أول آثاره أن حياتنا - مع اعتياد هذه الانقلابات واستسهالها - لم يعد يُرجَى لها استقرار . فكلما التقت مجموعة من الضباط المغامرين كان أول ما يفكرون فيه الإطاحة بالنظام القائم ، ليتسلموا منه الزمام ويظهروا هم على مسرح الأحداث !

ولا تمضى مدة طويلة حتى يجتمع آخرون فيفكروا فى نفس ما فكر فيه الأولون : أن يقوموا بحركة « تصحيح » للمنحرفين بالثورة ، أو « تأديب » لأصحاب « ردّة » شباط ، أو آذار أو تشرين ، أو ما شئتَ من شهور العام ! وبعد مدة قد لا تطول ، تقوم فئة أخرى تمثل نفس الدور على نفس المسرح .

وهكذا تصبح « الانقلابات » هى « اللعبة المفضّلة » فى بلادنا ، بحيث أصبح المواطن العربى يتوقع كلما فتح المذياع فى الصباح أن يسمع الموسيقى العسكرية والبيان رقم ١ لمجلس قيادة الثورة ، والأمر بحظر التجول ، واعتقال المتآمرين والمنحرفين ، الذين كانوا بالأمس صُنّاع المجد ، وأبطال النضال !

والأمر بسيط حسبما وصفته « القيادة القومية لحزب البعث » [١] بعد أن طردها العسكريون القطريون من أعضاء الحزب واستأثروا بالسُلطة . قالت القيادة ساخرة : « قم بتشكيل قوة عسكرية ضاربة سريعة الحركة ، تستولى على الإذاعة ، وتعلن نجاح الانقلاب ، والقبض على أعضاء القيادة التى لا تعجبك ثم أبعد عدداً من الضباط الذين لا يرون رأيك ، وقرِّب أولئك الذين يدينون لك بالطاعة والولاء ، وإذا أنت على رأس السُلطة » !!

لقد أصبحت الانقلابات العسكرية « مودة » العصر فى العالَم العربى - أو فى العالم الثالث - كما يسمونه ، الذى قدّر « إدوار لوتواك » أن سبعين بلداً فيه تعرضت لانقلابات ناجحة . خلال ثلاث وعشرين سنة مضت . وهذا غير الانقلابات التى لم يُقدَّر لها النجاح . وقد كان نصيب العالَم العربى والإسلامى منها غير قليل [٢] . حتى إن سوريا وحدها قام فيها منذ ١٩٤٩ بضعة عشر انقلاباً ، ابتداء من حسنى الزعيم إلى حافظ الأسد .

وأصبح « الانقلاب » فنا خاصاً يؤلف فيه مثل « لوتواك » - الذى كان آخر عمل له فى حقل الشئون العسكرية والدفاعية فى الولايات المتحدة ! - ليعلِّم الطامحين والمغامرين كيف يخططون للانقلاب ؟ كيف ينفذونه ؟ وما شروط نجاحه ؟ وما أسباب فشله ؟ .. إلخ ، خدمة مجانية - لوجه اللّه - يقدمها خبراء الشئون العسكرية فى الولايات المتحدة ، للدول النامية ، لا تريد منها

---

(١) فى بيانها الصادر فى بيروت فى ٣٠ إبريل ١٩٦٦

(٢) راجع « الانقلاب » لـ « إدوار لوتواك » ملحق ص ٣٢١ وما بعدها . ترجمة : مأمون سعيد - دار النفائس - بيروت .

جزاءً ولا شكوراً !! وهى خدمة للتصدير فقط ، لا للاستهلاك المحلى ، فأمريكا الشمالية مثل أوروبا ، أغنى الناس عن هذه البضاعة « الانقلابية الثورية » فلتقدم شعوبنا الشكر إلى « الولايات المتحدة » ورجالها أمثال : « كوبلاند » جزاء ما ورّدوه إلى بلادنا من « نِعَم » بغير مقابل ، بل بغير طلب أيضاً !!

٢ - إن الانقلابات كثيراً ما تقذف إلى سدة الحكم بأناس ليس لهم « هُوِيّة » تُعرف ، ولا سوابق تُذكر ، ولا تاريخ يُعلم . يقفزون فجأة من الظلام إلى الأضواء ، وعلى الشعوب أن تُسلّم لهؤلاء « المجهولين » قياد حياتها ، والتصرف فى أخطر شئونها ، والبت فى قضايا مصيرها ، إن « السياسى » عادة لا يصل إلى القمة إلا بعد أن يبلوه الناس لزمن طويل ، ويسبروا غوره ، ويعرفوا أصله وفصله واتجاهاته وولاءاته وارتباطاته فى الداخل والخارج ، وعلى أساس هذه المعرفة يحكمون له أو عليه .

أما « العسكرى » فهو بطبيعة عمله ، وبحكم عزلته ، لا يعرفه الشعب ولا يختلط به ، ولهذا لا يستطيع أن يحكم له أو عليه ، إلا بعد سنين من حكمه .

وهذه هى الخطورة فى الحكم الذى يأتى به انقلاب عسكرى ، يُفْرَض على الشعب بحكم الثورة . إن الأمر خاضع للمصادفة ، فربما ظهر طيباً و « ابن حلال » وربما ظهر خبيثاً و « ابن حرام » .

وهذا بخلاف الحاكم الذى يأتى نتيجة اختيار حر ، وبيعة عامة ، بعد أن ترشحه مواهبه وسوابقه لهذا المنصب الجلل . فأقرب مزاياه : أنه شخص معروف للناس .

٣ - ولا يقف الأمر عند الحاكم العام أو رئيس الدولة فقط . إن كثيراً من المناصب السياسية والمدنية تُعطَى - بحق الفتح والانتصار فى ليلة الانقلاب - لضباط أقل ما يقال فيهم : أنهم - بحكم سنهم وخبرتهم - غير محنكين ، وغير مدربين على العمل فى هذه الميادين ، وفى هذا عدة أضرار جسيمة منها :

(أ) إفساد المناصب المدنية والسياسية بإعطائها لمن لا يحسنها . وفى هذا خيانة للأمة ، وتعريضها للهلكة . وفى الحديث : « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[1] .

(ب) إغضاب العناصر المدنية التى ترى أن هذا المجال مجالها ، وبذر بذور « النقمة » عندها على هؤلاء « المغيرين على مواقعها » بغير حق .

(جـ) فتح باب « التطلعات » لهذه المناصب أمام فئات العسكريين الآخرين ، وإلا غضبوا علانية ، أو حقدوا سراً على الطبقة المدللة من زملائهم ، الذين يتمتعون بالحياة الناعمة ، والمكاسب الكبيرة فى أجهزة الحكم ، والمؤسسات المؤممة ونحوها .

(د) إفساد الجيوش نفسها ، بحرمانها من العناصر القادرة التى تفرّغت للسياسة من ناحية ، وزرع الحقد والنقمة لدى زملائهم من ناحية أخرى . هذا الحقد الذى غالباً ما ينتهى بتصفيات وتطهيرات ، يُحرم بها الجيش من الكفايات والمواهب والخبرات . وهذا كله على حساب قوة الجيش وتفوقه ووحدته .

وهذا - بلا ريب - من أسباب ضعف الجيوش العربية فى عهود الانقلابات العسكرية .

٤ - وأكثر من ذلك وأخطر : أن يُستخدم الجيش « بوليساً » سياسياً أو جهاز مخابرات ، أو نحو ذلك ، فتغدو صورته هى إرهاب الشعب ، لا الدفاع عنه ضد المغيرين عليه . وتصبح مهمته هى حماية « النظام » وبعبارة أصرح : حماية الفئة الحاكمة لا حماية « الوطن » .

وفى دراسة لـ « هيئة العمل لتأسيس الحركة العربية الشعبية »[2] بدمشق عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ حملت الدول الثورية النصيب الأكبر من تبعتها لما

---

(١) رواه البخارى .

(٢) يراجع فى « وثائق النكسة » ص ٩١ - ٩٦

ارتكبته من أخطاء وانحرافات أهمها : « دخول الجيوش كقوة سياسية فى الأنظمة الجديدة وابتلاعها جميع القوى السياسية الأخرى ، وخروجها - كجيوش - من طبيعتها العسكرية ، وإضفاء هذه الطبيعة بروحها ومظهرها على هذه الأنظمة بحيث أصبحت قطب الرحى ومركز القوى فيها ، ودولة ضمن دولتها ، إن لم تصبح كل الدولة ، وبحيث فرضت سيطرتها المباشرة وغير المباشرة على الحكم وتسلطها على شئون البلاد والعباد ، حسب شريعة الفتح وقانون القوة ، ونتيجة طبيعية لذلك يأتى تغير طبيعة الجيش ودوره وتحوله من مؤسسة عسكرية منوط بها درء الأخطار الخارجية عن الوطن ، إلى بوليس سياسى وجهاز مخابرات يحصى على الناس داخل الجيش وبين صفوف الشعب حركاتهم وسكناتهم ويسوقهم إلى غياهب السجون وأقبية التعذيب وحتى إلى الموت .

« ونتيجة أخرى لذلك يأتى تغيير بنية الجيش بالتصفيات المتعاقبة التى رمت خارجه ألوف الضباط الوطنيين القوميين الأكفاء ، وبروز طبقة جديدة - من الضباط الموالين - بيروقراطية وبوليسية - وجدت فى هذه الأنظمة سبيل الهروب من حياة الجندية الشريفة ، ومن واجب الدفاع عن شرف الأمة وتراب الوطن ، إلى حياة ملؤها التمتع بالملذات والنفوذ ونعومة العيش والحفاظ على الامتيازات التى حصلت عليها عنوة واقتداراً ، والحصول على المزيد منها.

« إن حلول هذه الطبقة العسكرية ، وصنيعتها الطبقة البيروقراطية التى خلقتها فى أجهزة الدولة وفى القطاع المؤمم ، كان من شأنه تعطيل الحياة السياسة وإلغاء المؤسسات الديمقراطية الشعبية ، وفرض وصاية شاملة وجائرة على الشعب كله ، وقيام ديكتاتورية طبقية جديدة ذهبت فى توكيد وتبرير وجودها مذاهب شتّى : من شرعية ثورية مزعومة مستمدة من الحق المقدس للانقلاب العسكرى ، إلى مذهبية عمياء فى عبادة الإرهاب باسم الثورة ، إلى ملء أجواء الأثير بلغو الكلام عن الثورة الاشتراكية وحرب التحرير الشعبية .

« إن هذا الانحراف الذى وقعت فيه هذه الأنظمة كان له أثره الماحق فى داخل الجيش الذى داهمته حرب « حزيران » وهو مشغول بكل شىء إلا بأمر

الحرب ، وسلاحه مشهور بتار فى وجه كل مواطن ولكنه معقم ومغلول فى وجه العدو ، وألويته خفَّاقة للحفاظ على نظام الحكم ودولة المخابرات ولو على حساب تراب الوطن وكرامة الشعب » [١]

٥ - إن الانقلاب العسكرى معناه فرض اتجاه معيَّن أو رأى معيَّن أو شخص معيَّن ، بقوة السلاح ، لا بالحُجَّة ولا بالإقناع . فالغلبة للقوة لا للمنطق ، والكلمة للأقوى لا للأصلح ولا للأحق . الكلمة لمن معه الدبابة والمدرعة لا لمن معه الشعب ، ومَن معه الحق . ويزيد الأمر خطورة أن بعض العسكريين الذين يشغلون مناصب سياسية يظلون يحتفظون بمناصبهم ورتبهم العسكرية ، فهذا نائب لرئيس الجمهورية أو مدير لمكتبه ، أو نائب لرئيس الوزراء ، أو وزير أو عضو مجلس القيادة ، وهو فى الوقت ذاته قائد عام للقوات المسلحة ، أو لواء أو عميد بسلاح المدرعات ، أو سلاح الطيران أو غيرها .

وإن من شر ما يؤذى الإنسان ويعذبه أن يحكمه مَن لا يرضى عنه ، وشر من ذلك أن يُرغَم - تحت تهديد القوة الباطشة - على تأييد مَن يكره ، والتصفيق لمن يلعنه بلسانه وقلبه .

لقد جاء فى الحديث : « إذا رأيتَ أُمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تُودع منهم » [٢] . فكيف إذا أُجبرت الأمة على أن تقول للظالم : أيها المنقذ ، أو المحرِّر ، أو البطل العظيم ؟!

٦ - يضاف إلى ذلك أن العقل العسكرى - بحكم تكوينه ، وطبيعة عمله وظروف عزلته - يميل إلى الاستعلاء ، والاستبداد والعنف والسرعة فى إصدار القرارات ، ولو كانت مصيرية ، دون استماع إلى آراء الخبراء والمجربين ، وهذا مما يجعل الحكم العسكرى فى عزلة عن الشعب - وبخاصة الأحرار المثقفين - ويحفر بينهما هوة تعمق وتتسع بمضى الزمن . ولهذا كثر الحديث عن « أزمة المثقفين » وموقفهم السلبى من الحكم العسكرى الثورى .

---

(١) وثائق النكسة ص ١٨٥ - ١٨٦

(٢) رواه الحاكم وصححه وأقره المنذرى والذهبى .

وسكوت الشعوب على الحكم العسكرى كارهة وعلى مضض ، لا يعنى رضاها أو استسلامها للأمر الواقع ، فإن النقمة ستظل تعتمل وتغلى فى صدورها ، وكلما زاد الضغط زاد الغليان ، حتى تنفجر القِدْر يوماً ، أو تتكسر ، ويومئذ يحدث ما لا يعلم إلا الله نتائجه ومداه .

هذا مع أن الحكام العسكريين هم أكثر الناس حديثاً عن « الشعب » و « الشعبية » و « الجماهير » وما شابهها من العبارات التى يتخذونها ستاراً للديكتاتورية المستبدة ، التى تنفذ ما تراه وما تريده ، بدون التفات إلى أحد .

ولهذا لا يسمح الحكم العسكرى للمواطنين بحرية التفكير ، وحرية التعبير . بإنشاء صحافة حرّة ونحوها . وحرية التجمع السياسى ، وحرية النقد والمعارضة لسياسة الحكومة ، مستخدماً سلاح الاتهام - لكل مَن يعارضه - بالعمالة والرجعية ومعاونة الاستعمار والإمبريالية وغيرها من « الأكليشيهات » المحفوظة ! بل رأينا العسكريين من الحزبيين العقائديين ، حين لاحت لهم الفرصة وثبوا على الحكم ، وطردوا منه زمرة المدنيين من « رفقائهم » فى الحزب والعقيدة . وعاملوهم معامة الخصوم الأعداء .

٧ - ويترتب على عزلة الحكم الانقلابى العسكرى عن الشعب : شعوره دائماً بالحاجة إلى حماية (من داخل الجيش (أو) من خارج الوطن فى كثير من الأحيان) ضد أى حركة معارضة تنبع من بين الشعب ، تقول للحاكمين : لماذا ؟ أو : لا .

وهذا يجعل الحاكم نفسه يعتمد على مراكز القوى فى الجيش ، وفى أجهزة المخابرات ، وهو فى نفس الوقت يخافها ويخشى من مطامعها وتقلباتها . ولهذا يتملقها ، ويتغاضى عن أخطائها ، بل خطاياها وانحرافاتها . ويرضى أطماعها بما تطلب لنفسها ولأتباعها ومحاسيبها من مكاسب وامتيازات ، على طريقة « أطعم الفم ، تستح العين » !!

وهذا ليس أمراً عارضاً ، بل هو كامن فى طبيعة الأنظمة العسكرية الثورية ، التى تستند فى قيامها وفى بقائها على حماية القوات المسلحة .

٨ - وهذا الذى قلناه يسلمنا إلى خطر آخر من أهم ما يُذكر من أخطار الانقلابات العسكرية وهو أن الانقلاب إذا فشل فى تحويل نظام البلد إلى شرعية مستقرة ، لها أصول راسخة فى الحكم والمعارضة ، وتغيير الحكام ، وأصبح الانقلابيون مكروهين من الشعب ، فلا تبقى وسيلة لتغيير هذا الوضع إلا أن يقوم انقلاب عسكرى آخر . ومعنى هذا أن الانقلاب لا يُعالَج إلا بانقلاب ، على نحو ما قال أبو نواس : وداونى بالتى كانت هى الداء !!

لذلك نرى سلسلة الانقلابات مستمرة ، وخاصة فى دول العالم الثالث - مسرح تجارب الإمبرياليات القديمة والجديدة : الإنجليزية والأمريكية والروسية والصهيونية وغيرها - حيث ينقض فريق من الانقلابيين على فريق سابق ، ويفقد البلد بسبب ذلك عدداً كبيراً من الخبرات والكفايات ، من شبابه ، ورجاله ، والعناصر النشطة الفعَّالة فيه ، من عسكريين ومدنيين ممن أنفق عليهم الوطن الكثير حتى تعلَّموا وتخرَّجوا وتدربوا ، ووصلوا إلى مستوى عالٍ من الكفاية الفنية ، فإذا هم يُعدَمون أو يُسجَنون أو يُعزَلون أو يهربون !

إن بعض العسكريين يندفعون بإخلاص لتحرير وطنهم من حكم ظالم أو فساد عريض ، وقد لا يكون الحكم هو هدفهم فى أول الأمر ، ولكن سحر السُلطة يشدهم إليه ، وبريق النفوذ والجاه يخطف أبصارهم ، فلا يقبلون التنازل عن السُلطة وقد أمست فى أيديهم ، وهذا معناه ، أن الشعب بقيام أول انقلاب عسكرى ، يدخل قمقم الأحكام العسكرية ، فلا يخرج منه ، ولا أمل فى خروجه منه لأن كلمة السرّ - التى يفتح بها « سمسم » غطاء القمقم - فى يد الحاكم العسكرى الذى لا يعطيها - طوعاً أو كرهاً - إلا لعسكرى مثله .

ويصدق هنا ما قاله شاعر مجيد فى وصف جماعة انقلابية من هذا النوع :

أغاروا على الحكم فى ليلة ففر الصباح ولم يرجع !

فكيف النجاة من هذه الحلقة المفرغة ؟

إن من الصعب أن تقوم ثورة شعبية شاملة تُسقط الحكم العسكري ، لأنه بقوة الجيش سيسحقها . ولم يتكرر - فيما علمنا - مثل ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤

فى السودان ، تلك الثورة الشعبية الإجماعية التى أسقطت حكم « عبود » العسكرى الخامل ، ولكن يُلاحَظ أنه لم يكن ثورياً ولا اشتراكياً ولا عقائدياً .

إن الخطر سيظل قائماً ، والاستقرار سيظل معدوماً ، والشرعية ستظل حلماً بعيد المنال ، ما لم يعد إلى الجيش يقينه بأن مهمته الدفاع عن حدود البلاد لا الحكم والسياسة .

ومن الناس مَن يقبل تدخل الجيش فى حالة واحدة : حالة تفريط السُلطة القائمة فى أرض الوطن أو فى وحدته ، أو فى عقيدة الشعب ودينه ، أو نحو ذلك مما يتعلق بكيانه ومصيره ، وعجز القُوَى المدنية المخلصة عن مواجهة السُلطة وتقويمها . فهنا - من باب الضرورة كما يقول الفقهاء - يتدخل الجيش للإنقاذ على شرط أن تكون مهمته رد السُلطة إلى الشعب ، أى إلى المدنيين ، ثم يرجع الجيش إلى مواقعه مشكوراً .

فالتدخل العسكرى يجب ألا يُباح إلا لضرورة تُقدَّر بقدرها .

ولكن المخوف فى مثل تلك الحالة دائماً أن العسكريين بعد أن تصبح السُلطة فى قبضتهم ، ويذوقوا لذة الحكم ، يصعب عليهم أن يسلّموها لغيرهم راضين مختارين ، وهم فى رأى أنفسهم ليسوا أقل من غيرهم مواهب ومقدرة على تصريف الأمور .

وهنا تكمن المشكلة ، فما لم يكن هناك وعى عام فى الجيش كله يؤمن بضرورة الابتعاد عن السياسة ، وتركها لأهلها ، والحرص على سيادة الشرعية فلا يُرجَى تراجع العسكريين عن موقفهم .

ولا يتم ذلك إلا بوجود فئة مخلصة من الضباط والقادة العسكريين يؤمنون بأن مهمة الجيش الدفاع عن حدود الوطن فقط ، ويؤثرون مصلحته العامة على مكاسبهم الخاصة ، فيحاربون فكرة الانقلابات ، ولعبة السياسة ، ويعملون لتعميم هذا الوعى بين الضباط ، بُغْية استقرار وطنهم ، ودعوته إلى الأوضاع الطبيعية والشرعية .

كما أنه لا بد - بجانب ذلك - من توعية الشعب نفسه ، بحيث يرفض الانقلابات والحكم العسكرى أياً كان اتجاهه والقائمون به ، ولا بد من تعميق هذا الوعى حتى يغدو عقيدة سياسية توقن بها جماهير الأمة ، ولا تفرِّط فيها ، ولا تبغى عنها حولاً ، ومن الشعب تنتقل إلى العسكريين ، ويلتقى الجميع على إقرار الشرعية والولاء لها . وبدون هذا وذاك لا أمل فى استقرار .

* * *

ثالثاً : سبيل الوعظ والإرشاد

ويتصور آخرون من المتدينين أن تغيير المجتمع القائم ، وتحويله إلى مجتمع إسلامى ملتزم ، يمكن أن يتم عن طريق الوعظ والتذكير ، والتبليغ والإرشاد فى المساجد والجوامع ، فعن طريق الكلمة المخلصة ، والخطبة المؤثرة ، ورقائق الترغيب والترهيب ، التى ترَّطب القلوب بالرجاء ، وترقق الأفئدة بالخشية ، يمكن أن يتوب العصاة ، وينتبه الغافلون ، ويعود الناس إلى رحاب الله .

ولا ريب أن الوعظ والإرشاد وسيلة هامة من وسائل الدعوة إلى الله ، لا يُستغنَى عنها بحال ، ولا يجوز التهوين من تأثيرها على كثير من الناس ، ولا سيما إذا قام بها داعية ذو قلب حى ، وعقل نيِّر ، فإن الله قد يهدى به الألوف من الناس ، فإن الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلوب ، وكثيراً ما رأينا وقرأنا وسمعنا عن « مشايخ » و « مرشدين » من ذوى الإخلاص ، أخرج الله بهم كثيرين من ظلمات المعصية والانحراف إلى نور الطاعة والاستقامة .

وقد كان الإرشاد والوعظ جزءاً من مهمة الأنبياء والمرسلين ، الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين . وستظل جزءاً من مهمة ورثة الأنبياء وحملة دعوتهم فى كل زمان ومكان : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] ..

---

(١) الذاريات : ٥٥

• الوعظ والإرشاد لا يكفى :

ولكن هذه الوسيلة وحدها - برغم جلالها وتأثيرها - لا تكفى لتحقيق الهدف المراد . وذلك لأسباب :

١ - إن تأثيرها محصور فى روَّاد المساجد وأشباههم ممن لا يزالون على اتصال بالتدين والعبادة . وإن كان فيهم بعض تقصير أو غفلة عن الله والآخرة . أما الملاحدة والإباحيون وحملة الأفكار الهدَّامة ، والعقائد الضالة ، فهؤلاء لا يحضرون أماكن الوعظ أصلاً ، ولو حضروا ما انتفعوا به ، لأن الخراب الذى فى عقولهم أعمق من أن تؤثر فيه كلمة أو خطبة ، إلا ما شاء الله .

٢ - إن تأثير الواعظ الجيد محدود من حيث الزمان أيضاً ، بجوار محدوديته من حيث المكان والنوعية . فالمستمعون يتأثرون بالواعظ عند السماع ، وقد تذرف أعينهم الدمع ، وقد تقشعر منهم الجلود خشية لله ، ثم ينصرف الواعظ والموعوظون كل إلى حال سبيله ، فالواعظ لا يملك متابعة موعوظيه ، ولا يربطهم برباط واحد . وسرعان ما يتبخر أثر وعظه إذا دخل الناس فى لجة الحياة ، وألهتهم مشاغلها . وقديماً شكا الناس من ذلك فقالوا :

نراع بذكر الموت عند سماعه ونخرج للدنيا فنلهو ونلعبُ !

٣ - إن الوعظ والإرشاد وسيلة يُقصد بها التأثير على الأفراد . أما تغيير المجتمعات بتبديل مفاهيمها وقيمها وتقاليدها وقوانينها ، رغم مَن يسند هذه الأوضاع من رجالات كبار على مستوى السياسة ، ومستوى الفكر ، ورغم ما يغذيها ويحميها من مؤسسات وقُوَى منظورة وغير منظورة - فى الداخل وفى الخارج - فهذا أمر فوق قُدرة الوعظ ، وفوق طاقة الواعظ .

٤ - إن أجهزة التأثير المضادة لمنبر الوعظ أصبحت أعظم خطراً ، وأبعد أثراً فلم تعد الكلمة المسموعة - بصفة عامة - وحدها هى العنصر المؤثر فى التوجيه والتغيير . فهناك الكلمة المكتوبة ، تفيض بها أنهار الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية ، والكتب الدورية وغير الدورية ، مما تقذف به المطابع للقراء فى كل مكان .

وهناك الكلمة المسموعة مع الصورة المشاهَدة فى التليفزيون والسينما والمسرح ، وتأثيرها أفعل وأقوى وأنفذ ، لاجتماع حاستى السمع والبصر على التأثر بها ، ولتكرارها اليومى ، ومصاحبتها للناس ساعات طويلة كل يوم ، حتى فى مخادعهم .

حتى الكلمة المسموعة نفسها لم تعد مقصورة على خطبة المنبر أو درس المسجد ، بل أصبحت تذاع على الناس من خلال المذياع فى صورة برامج متنوعة : إخبارية ، وثقافية ، وترفيهية . يُستخدم فيها الشعر والنثر ، والقصص والحوار ، مع التمثيل والغناء والموسيقى ، وكل ما يحوطها بقوة التأثير والنفاذ إلى العقول والقلوب .

فليت شعرى ماذا عسى أن تصنع خطبة الخطيب أو درس الواعظ أمام هذا السيل من الكلام المسموع والمقروء والمكتوب ؟ ماذا يغنى المنبر أمام المذياع والتلفاز والمسرح والسينما والصحيفة والمجلة وسائر أجهزة الإعلام والتأثير ؟ وكم يكون تأثير الواعظ البليغ إذا كانت هذه الأدوات الجبارة والأجهزة المخدومة ، تسير فى اتجاه غير اتجاهه ، وتعمل لمهمة غير مهمته وقديماً قال الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنتَ تبنيه وغيرك يهدم ؟

وهذا لو تساوت طاقة البناء وطاقة الهدم ، فكيف إذا كان عدد الهدّامين أكثر ، وطاقتهم أكبر ، وطريقهم أيسر ؟ فالهدم بطبيعته أخف وأسهل حتى قال الشاعر :

ولو ألف بانٍ خلفهم هادم كفى فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم ؟!

وقد قال الشاعر ذلك فى هدّامين أدواتهم المعاول والفؤوس . فكيف لو رأى الهدّامين فى عصرنا وأدواتهم الألغام والمواد الناسفة ، التى تحيل ناطحة السحاب ، فى لحظات إلى تراب ؟!

وما أشبه الهدم فى المعنويات بالهدم فى الماديات !

٥ - إن الواعظ قد يحتاج إلى أن يقول كلمة الحق فى وجه الحكام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وكيف يستطيع ذلك ، وقوته وقوت عياله بيد هؤلاء الحاكمين ، الذين استغنوا عن دينه واحتاج هو إلى دنياهم فهو موظف

لديهم ، وأسير دنياهم ومعاشهم . وقديماً قال أحد الأمراء فى شأن الحسن البصرى ، وسر شدته عليهم ، ومكانته لديهم : احتجنا إلى دينه ، واستغنى عن دنيانا !

ولكن إذا انعكس الوضع كما هو اليوم ، فإن الواعظ المخلص يواجه محنة شديدة لا يصبر عليها إلا أولو العزم . وقليل ما هم !

٦ - وحتى الواعظ المتطوع لا يجد الحرية دائماً ليقول ما يريد ، ففى عهود الديكتاتوريات يصبح المنبر موجَّهاً ، شأنه شأن الاقتصاد والإعلام والسياسة . فمَن لم يسر فى خط الحاكم لم يبق له مكان ، إلا فى السجون والمعتقلات .

٧ - ثم من أين لنا العدد الكافى من الوعّاظ الموهوبين المؤثرين ؟! إنك قد تذرع قُطراً بأكمله طولاً وعرضاً ، فلا تجد إلا واحداً أو اثنين أو ثلاثة ، وقد لا تجد أحداً يملأ سمعك وقلبك وعقلك ، فلا تملك إلا أن تردد قول الشاعر :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ، ولكن لا أرى أحداً !

* * *

رابعاً - سبيل الخدمات الاجتماعية

● سبل العمل الاجتماعى :

ويخيل إلى فئة أخرى من الناس أن المجتمع الإسلامى يمكن أن يتحقق إذا نشط أهل الدين ، وعشاق الخير ، فى إنشاء المؤسسات الاجتماعية ، والجماعات الخيرية ، التى تُسهم فى تخفيف البؤس ، وإشاعة البر ، ومساعدة المحتاج ، ومحاربة الأعداء الثلاثة : الفقر والجهل والمرض .

ولهذا يسعون إلى إنشاء جمعيات أو لجان خيرية شتّى :

فجمعية أو منشأة أو لجنة لجمع الزكاة أو تنظيم الإحسان .

وأخرى : لإنشاء المساجد أو ترميمها .

وثالثة : لتكفين موتى الفقراء ودفنهم .

ورابعة : لعمل مستوصفات طبية مجانية أو شبه مجانية .

وخامسة : لبناء مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم الدين .

وسادسة : لكفالة الأرامل والعجزة .

وسابعة : لإيواء الأطفال المشردين والأيتام وتعليمهم .

وثامنة : لمحو الأمية .

وتاسعة : لمكافحة المخدرات والآفات الاجتماعية .

وعاشرة : لإصلاح ذات البَيْن .

وغير ذلك كثير وكثير .

* *

● اتجاهان متباينان فى تقدير الخدمات الاجتماعية :

وأود أن أبين هنا أن فى هذه القضية اتجاهين متناقضين تماماً لا يلتقيان ولا يتفاهمان .

الاتجاه الأول : اتجاه يبالغ فى تقدير أهمية الأعمال والخدمات الاجتماعية ويجعلها أكبر همه ، ومحور نشاطه ، وفى رأيه أنها لو اتسع نطاقها ، وكثر عشاقها ، لأمكن أن تغيِّر المجتمع بغير انقلاب ولا ضجيج .

وينسى هؤلاء أموراً ثلاثة فى غاية الأهمية :

أولها : أن الفساد الاجتماعى الذى نشكو منه ، قد تغلغل فى أعماق المجتمع وسرى فى كيانه كله مسرى السم فى البدن ، فلم يعد يجدى فيه الترقيع الجزئى ، والإصلاح الجانبى ، فإن هذا أشبه ما يكون بإعطاء « المسكّنات » للمريض بمرض يحتاج علاجه إلى عملية جراحية ، أو إقامة طويلة فى مستشفى معيَّن تحت إشراف خاص .

إن العاطل لا يكفى أن تعطيه دريهمات يقضى بها حاجة عاجلة لشخصه أو لأسرته ، وإنما يجب أن يُهيأ له عمل مناسب يكسب منه ما يكفيه وأسرته كفاية تامة . وهذا لا تقدر عليه جمعية أو لجنة . إنما هو من وظيفة الدولة المسئولة .

وقيام لجنة بجمع الزكاة من عشرة أو مئة من متوسطى الحال أو المستورين من الناس لا يغنى غناء قيام « مؤسسة للزكاة » تحت إشراف الدولة المسلمة ، تأخذ من كل مالك للنصاب ، وبخاصة أصحاب الألوف والملايين ، لا بد إذن من إصلاح كلى شامل .

والثانى : أن المجتمع وحدة لا تتجزأ أشبه بجسم الشخص الواحد ، ذى الأجهزة والأعضاء والخلايا المتعددة ، فكلها يؤثر بعضها فى بعض صحة وسقماً واستقامة وانحرافاً . ولهذا نرى من الخطأ النظر إلى النواحى الخيرية والاجتماعية مفصولة عن جوانب المجتمع الأخرى .

فهناك ارتباط متين بين الفساد الاجتماعى ، والفساد الفكرى ، والفساد الخُلُقى ، والفساد التشريعى ، والفساد التعليمى ، والفساد الإدارى ، والفساد السياسى ، والفساد الاقتصادى ، ومحاولة إصلاح جانب واحد من هذه الجوانب مع إغفال الأخري ، عبث وغفلة عن طبيعة المجتمع والحياة .

والثالث : أن الذى نريده من المجتمع شىء أكبر من محاربة الفقر أو المرض أو الجهل وإن كان ذلك من أهم ما نهدف إليه .

لقد قلنا وأكدنا من قبل : إننا نريد مجتمعاً جديداً ، مجتمعاً إسلامياً بمعنى الكلمة ، مجتمعاً يعيش بالإسلام ، ويعيش للإسلام ، لرسالة الإسلام الكبرى وأمة الإسلام العظمى . فيجاهد من أجل تبليغ الدعوة الإسلامية ، وتحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة ، والخلافة الإسلامية المفقودة ، حتى يتخلص

المسلمون من الإثم الذى لحقهم بإضاعة هذا الواجب سنين عديدة ، مع أن رسولهم ﷺ يقول : « مَن لقى اللّه وليس فى عنقه بيعة لإمام ، مات ميتة جاهلية » [1] .

وهذا المجتمع العقائدى المتميز بأهدافه ومناهجه ، ومقوماته وخصائصه ، وأفكاره ومشاعره ، وأخلاقه وآدابه ، ونظمه وتشريعاته ، لا يُتصور أن يقيمه مجرد الإكثار من منشآت خيرية ، وإصلاحات اجتماعية جزئية .

* *

● الاتجاه الثانى ومناقشته :

والاتجاه الثانى : يرفض مجرد المشاركة فى أعمال الخير ، ومؤسسات البر ، والخدمات الاجتماعية ، ويرى ذلك صارفاً عن الهدف الأساسى وهو إقامة الدولة الإسلامية ، وعن العمل الأساسى وهو نشر الدعوة ، وتجميع الأنصار والجنود عليها . كما أنها تخدر الجمهور عن الإصلاح الجذرى الذى يجب أن يتم عن طريق الحكم الإسلامى .

وهذا هو رأى حزب التحرير كما سمعته من بعض رجالاتهم فى الأردن منذ اثنين وعشرين عاماً ، فقد ناقشونى مناقشة حارة فى ذلك ، واستنكروا أشد الاستنكار أن يشغل أصحاب الدعوة أنفسهم بغير الدعوة . وكان ردى عليهم يتلخص فيما يأتى :

١ - إن فعل الخير جزء من مهمة المسلم فى الحياة ، كما أمره اللّه . فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [2] .. فعلاقة المسلم بربه العبادة ، وعلاقته بمجتمعه فعل الخير ، وعلاقته بأعدائه الجهاد فى اللّه . وفعل الخير داخل فى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [3] .. ولا يسع المسلم أن يعيش فى قرية لا يجد مرضاها العلاج ، أو لا يجد أيتامها

---

(١) رواه مسلم . (٢) الحج : ٧٧ - ٧٨ (٣) المائدة : ٢

الكفالة ، أو لا يجد فقراؤها القوت ، ثم يقف متفرجاً ، لا يمد إليهم بالعون يداً ، ولا يضمد لهم جرحاً ، ولا يمسح دمعة !

٢ - إن هذا جزء من نشر الدعوة أيضاً ، فنشر الدعوة لا يتخذ صورة المحاضرة أو الحديث أو الكتاب فقط . فإن مما يحبب فكرتك إلى الناس أن تقدّم إليهم عملاً صالحاً ، أو تُسدى إليهم معروفاً ، فتفتح قلوبهم لحبك ، وعقولهم لفهمك ، وآذانهم للإصغاء إليك . وقديماً قالوا : الإنسان أسير الإحسان . وقال أبو الفتح البستى :

أَحْسِن إلى الناس تستعبد قلوبهمو فطالما استعبد الإنسان إحسان !

وروى عن الإمام الشافعى قوله : « اللهم لا تجعل لفاجر علىّ مِنَّة ، فتجعل له فى قلبى محبة » !

ولقد رأينا إرساليات التبشير المسيحى تعتمد اعتماداً كثيراً على هذا الأسلوب فتؤسس مشروعاً خيرياً أو مستشفى أو نحو ذلك ، لتنفذ من ورائه إلى نشر العقيدة الكاثوليكية أو البروتستانتية .

كما أن فى هذه الأعمال الاجتماعية مجالاً للتعرف على أحوال الناس ، ودراسة مشكلاتهم ، والاتصال اليومى معهم ، وهذا لأصحاب الدعوات .

٣ - ليس كل أعضاء الحركة الإسلامية قادرين على نشر الدعوة باللسان أو القلم . فإن مواهب الناس تختلف ، وقدراتهم تتنوع ، ولا عجب أن تجد كثيرين قادرين على العمل الاجتماعى ، غير قادرين على العمل الفكرى ، فمن الخير أن يُشغَل هؤلاء بما يناسب استعدادهم وخبراتهم ، بدل أن يُتَركوا فى فراغ ، فيملوا أو يفتروا ، أو ينقطعوا .

٤ - إن هناك هدفاً بعيداً هو الهدف الأساسى ، وهو إقامة المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى ، وهذا الذى ينبغى أن ينال القسط الأول من الاهتمام والجهود . ولكن بجواره أهداف قريبة يمكن تحقيقها بجهود أقل ، دون أن تؤثر على

الأهداف الأساسية . وقد ضربتُ لذلك مثلاً ببستان يغرس صاحبه فيه الشجر والنخيل ، وهذا هو الهدف الأساسى منه . ولكن حيث كانت بعض الأشجار تظل عدة سنين حتى تثمر . فإن البستانى الناجح هو الذى يستغل الأرض فى زراعه بعض الخضروات السريعة الإنتاج ، فيستفيد ويفيد ، ما دام ذلك لا يعوق خدمة الهدف الأساسى وهو الأشجار والنخيل .

* *

● أمور يجب أن تُراعَى :

على أنه من الضرورى عند الاشتغال بالعمل الاجتماعى أن يُراعَى ما يلى :

١ - ألا تجعل الحركة هذه الأعمال والخدمات أكبر همها ، وشغلها الشاغل ، فتستغرق نشاطها ، وتستنفد جهودها وأموالها ، ولا يبقى لمهمتها الأصلية شىء إلا بقايا جهد ، أو بقايا نشاط ، أو بقايا مال . وإنما تعطيها من ذلك القدر المناسب بغير جور على الجوانب الأخرى . ومن المهم جداً أن تموّل الأعمال الاجتماعية والمؤسسات الخيرية من أموال أهل الخير وهم كثيرون فى العادة . أما مال الحركة فيدخر للحركة نفسها . إن المؤسسات الخيرية تجد الكثيرين ممن يتحمسون للإنفاق عليها . أما الحركة الإسلامية فليس لها - بعد اللّه - إلا رجالها .

٢ - إيثار المؤسسات الثقافية على المؤسسات الاجتماعية المحضة . وأعنى بالأولى مثل المدارس والجمعيات العلمية ، والأندية والمراكز الثقافية ، والمكتبات وما شابه ذلك ، لأن معركة الإسلام مع أعدائه اليوم معركة فكرية فى الدرجة الأولى . وأخطر أنواع الاستعمار اليوم هو الاستعمار الفكرى . وهو استعمار لا يحتل الأرض ، بل يحتل العقل ، ولا يستخدم المدفع ، بل يستخدم القلم ، ولا يقول للمسلمين : اعزلوا الإسلام عن الحياة ، بل يُربِّى أبناء المسلمين على أفكاره ليقولوا هم ذلك بألسنتهم وأقلامهم . ولهذا نقول : إن المدرسة أهم

من المستشفى ، والنادى الثقافى أهم من النادى الرياضى ، وجمعية لتصحيح أفهام الأحياء أهم من جمعية لتكفين أجساد الموتى !

٣ - أن يتم ذلك وفق منهج معلوم ، وخط مرسوم ، وهذا يقتضى دراسة الأوضاع والظروف البيئية والزمنية والمادية والنفسية لكل حركة . فقد ينفع العمل الاجتماعى فى بلد ، ويضر فى آخر ، وقد يصلح لحركة فى وقت معيّن ، ولا يصلح فى وقت آخر . وقد يناسب عمل معيّن لملابسات خاصة دون غيره من الأعمال . فلا يجوز إصدار فتوى جامدة واحدة لكل حركة فى كل البيئات وفى كل الأوقات ، وفى كل الأحوال !

* * *

ضرورة الحركة الإسلامية

إن تحقيق الحل الإسلامي المنشود ، الذى يتمثل فى بناء مجتمع إسلامى سليم وقيام حكم إسلامى رشيد ، واستئناف حياة إسلامية صحيحة ، لا يمكن أن يتم بالقرارات الحكومية الآلية ، ولا بالانقلابات العسكرية الثورية ، ولا بالوعظ والإرشاد وحده ، ولا بالخدمات الاجتماعية الجزئية .

إن الحل المنشود لا بد أن تسبقه « حركة إسلامية » ، حركة واعية شاملة ، حركة تمهد له ، وتدعو إليه ، وتعد له رجاله وأنصاره .

إن الدولة السنوسية سبقتها حركة دعوة وإحياء وتجديد . أو الدعوة السنوسية ، والدولة السعودية سبقتها الدعوة أو الحركة الوهابية .. وهكذا كل دولة تقوم على فكرة وعقيدة (أيديولوچية) .

وبعبارة أخرى : إن الحل الإسلامى لا بد أن يسبقه عمل إسلامى على مستواه .

والعمل الإسلامى المطلوب لا بد أن يكون عملاً جَماعياً ، قائماً على أساس من التنظيم والتخطيط ، حتى يؤتى أكله ، ويحقق أهدافه .

* *

● ضرورة العمل الجَماعى :

وإنما قلنا بضرورة العمل الجَماعى ، لأن هذا ما يفرضه الدين والواقع معاً :

(أ) فالدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون على البر والتقوى ، وهذا من أخصِّ أعمال البر والتقوى وأهمها وأشدها خطراً .

(ب) والقرآن يطالبنا فيقول : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١] ..

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

والأمة ليست مجموعة أفراد متناثرين ولا مجرد جماعة ، جاء فى تفسير المنار : « والصواب أن الأمة أخصّ من الجماعة ، فهى الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء فى بِنْية الشخص » .

(جـ) والقاعدة الشرعية تقرر : « أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ، وإقامة مجتمع إسلامى تحكمه عقيدة الإسلام وشريعته ، أمر واجب ، ولا سبيل إلى تحقيق هذا الواجب إلا بجماعة وأمة .

(د) والواقع يرينا أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وأن جهود الأفراد مهما توافر لها من إخلاص ، لا تستطيع أن تؤثر التأثير المطلوب لتحقيق الهدف المنشود ، لأنها ضعيفة الطاقة ، محدودة المدي ، وقتية التأثير . وقد يكون الأفراد كثيرين ، ولكن تعدد الاتجاهات ، واختلاف المسالك ، وفقدان الربط والتنسيق بين العاملين ، يبعثر الجهود ويضعف من تأثيرها . أما العمل الجَماعى ، فيضم الجهود بعضها إلى بعض ، وينسق بينها ، ويوجهها إلى خدمة الهدف المقصود ، ويجعل من اللبنات الضعيفة بمفردها بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً .

(هـ) وإذا نظرنا إلى القُوَى المناوئة للإسلام – على اختلاف أسمائها وأهدافها ووسائلها – وجدناهم يعملون فى صورة جماعات وتكتلات وأحزاب وجبهات ، ولا يُقبل – فى ميزان الشرع ولا العقل – أن يُقابَل الجهد الجَماعى المنظم ، بجهود فردية مبعثرة ، وإنما يُقابَل التكتل بتكتل مثله أو أقوى منه ، ويُقابَل التنظيم بالتنظيم ، كما قال أبو بكر لخالد : حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف ، والرمح بالرمح ، والنبل بالنبل .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [1] .. أى إن لم يوال

(١) الأنفال : ٧٣

بعضكم بعضاً ، وينصر بعضكم بعضاً ، كما يفعل الكفار ، تحدث الفتنة والفساد ، لاتحادهم وتفرقكم وتناصرهم وتخاذلكم .

* *

● ضرورة التنظيم :

ولا بد للعمل الإسلامى المثمر من التنظيم ، فلا يكفى أن يكون جَماعياً حتى يكون منظّماً ، بل لا يكون جَماعياً حقيقة إلا بتنظيم . والتنظيم يعنى وجود قيادة مسئولة ، وجندية مطيعة ، ونظام أساسى ينظم العلاقات بين القيادة والجنود ، ويحدد المسئوليات والواجبات ، ويبين الأهداف والوسائل ، وجميع ما تحتاج إليه الحركة فى إدارة أجهزتها . وأكتفى هنا بالحديث عن عنصرى القيادة والجندية .

● القيادة المسئولة :

والإسلام يحرص على التنظيم فى كل شىء ، حتى فى الأمور العادية المتكررة مثل السفر ، وفى الجماعة الصغيرة التى لا يزيد عددها على ثلاثة . ففى الحديث النبوى : « إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم » [١] . وهذا رمز إلى التزام التنظيم فيما هو أعظم وأكبر من الرفقة فى السفر ، وفيما هو أكثر عدداً وأرفع شأناً من ثلاثة من المسافرين .



---

(١) رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود مرفوعاً باسناد حسن ، كما فى تخريج الإحياء للحافظ العراقى . وأخرج البزار والحاكم عن عمر : أنه قال : « إذا كنتم ثلاثة فى سفر ، فأمِّروا عليكم أحدكم . ذا أمير أمَّره رسول الله ﷺ » . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره العراقى .

● متى تكون القيادة شرعية :

ولا تكون القيادة شرعية حقاً إلا إذا جاءت نتيجة الاختيار الحر والبيعة الصحيحة ، لا بالضغط ولا بالمناورات .

والأصل فى القيادة أن تكون فردية ، فهذا هو الموافق لظاهر النصوص والسوابق الإسلامية ، وهو الذى يجعل للقيادة سرعة الحركة ، والقدرة على تصريف الأمور .

ولكن لا مانع فى بعض الظروف من وجود قيادة جَماعية ، خروجاً من خلاف واقع ، أو تفادياً لنزاع يُتوقع ، أو ترقباً لقائد قوى ، أو نحو ذلك من الاعتبارات ، التى قد توجبها الضرورات ، فتقدّر بقدرها ، ولا داعى للانفعالات والتشنجات ضد القيادة الجَماعية ، إذا اقتضتها المصلحة فى بعض الأحيان . فقد أجاز الفقه الإسلامى إقرار إمامة غير المجتهد ، بل إمامة الفاسق ، وإمامة المتغلب إذا كان من وراء الإقرار مصلحة أكبر ، وخيف من جرّاء الرفض مفسدة أعظم . وحيث تتحقق المصلحة فثَمّ شرع الله .

والقيادة الشرعية هى التى تتخد الشورى قاعدة لها فيما ليس فيه نص ثابت صريح ملزم لا معارض له ، وفيما له طبيعة الأمر العام الذى يهم جميع الناس أو جمهورهم ، وهو الذى جاء فيه قوله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (١) .. وفى سورة آل عمران : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (٢) ..

وهى التى تنزل عن رأيها إلى رأى الأكثرية من أنصارها ورجالها ، وإن خالف فى ذلك مَن خالف من الفقهاء قديماً ومن الدعاة حديثاً ، فالرأى الأرجح الذى يطمئن إليه القلب : أن الشورى ملزمة لأسباب واعتبارات أظهرها :

---

(١) الشورى : ٣٨ (٢) آل عمران : ١٥٩

١ - إن هذا يتفق مع ما قرره فقهاء الأمة من تسمية أعضاء شورى المسلمين « أهل الحل والعقد » فإذا كان رأيهم غير ملزم ، ويمكن أن يُضْرَب به عرض الحائط ، فماذا يحلون ويعقدون ؟!

وقد فُسِّر « أولوا الأمر » فى قوله تعالى : ﴿ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [١] .. بهؤلاء ، فهم الذين يختارون الحاكم أو الأمير ، وهم الذين يراقبونه ، وهم الذين يعزلونه .. إلخ .

٢ - ما فعله النبى ﷺ فى غزوة أُحد من الخروج إلى المشركين ، نزولاً على رأى الأغلبية المتحمسة ، وما فعله عمر فى قضية الستة أصحاب الشورى من التزام رأى الأكثرية العددية ، واعتبار عبد الله بن عمر مرجِّحاً ، إذا افترقوا إلى ثلاثة وثلاثة ، إلخ ، وإقرار الصحابة لذلك ، كل ذلك يدل على أن الشورى ملزمة ، وأن رأى الأغلبية معتبر .

٣ - ما ذكره ابن كثير فى تفسير نقلاً عن ابن مردويه عن علىّ مرفوعاً فى تفسير العزم فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [٢] .. قال : « العزم مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم » .

٤ - إن الاستشارة من غير التزام برأى المشيرين ، ولو كانوا جمهور الأمة أو أهل الحل والعقد فيها ، يجعل الشورى شبه « مسرحية » يضحك الحاكم المتسلط بها على الناس ثم ينفذ ما فى رأسه هو !

٥ - إن تاريخ الإسلام فى الماضى البعيد والحاضر القريب ، ينطق بأن الاستبداد بالرأى هو الذى قوّض دعائم القوة والخير فى حياة المسلمين ، وجرأ الطغاة على أن يعبثوا بمقدرات الأمة كما يشاءون ، دون أن يخشوا شيئاً ، أو تُوَجه إليهم كلمة ، لأنهم غير ملزمين بمشورة أحد أو رأيه !

---

(١) انظر تفسير الرازى والنيسابورى والمنار للآية ٥٩ من سورة النساء .

(٢) آل عمران : ١٥٩

٦ - إن الإنسان بطبيعته ظلوم جهول ، ورأى الفرد لا يؤمن انحرافه ، لغلبة الهوى فيظلم ، أو غلبة الجهل فيضل ، ولهذا كان رأى الاثنين أقرب إلى الصواب ، وإلى العدل والعلم من رأى الواحد ، وإن كان الخطأ من الجميع محتملاً .

٧ - إن الأغلبية التى تشير بالرأى تتحمل مسئوليته ، وتتقبل نتائجه أياً كانت ، وهذا ما يجعل الأمة شريكة الحاكم ، فى الصواب والخطأ ، والخير والشر ، ويغرس فيها معانى القوة والكرامة والإحساس بالذات ، ويدربها على أن تقول « لا » بملء فِيْها ، وتلزم بها .

٨ - إن الالتزام بشورى الأغلبية وإن كان فيه خلاف ، ينبغى أن يكون موضع اتفاق اليوم إذا تراضت عليه جماعة ما ، وتشارطوا على الأخذ بهذا الرأى ، فهنا يرتفع الخلاف ، ويصبح واجباً على الجميع أن ينفذوه ، لأنه نوع من الوفاء بالعهود التى أمر الله برعايتها .. وفى الحديث : « المسلمون عند شروطهم » .

* *

● الجندية المطيعة :

والجندية التى نعنيها هى التى تنفذ ما تؤمر به ، ملتزمة طاعة القيادة فى اليُسر والعُسر ، والمنشط والمكره متنازلة عن رأيها الفردى لرأى الجماعة . ما لم يكن معصية بيقين ، فلا طاعة حينئذ لمخلوق فى معصية الخالق .

وإنما قلنا « معصية بيقين » لأن هناك أموراً مختلفاً فيها بين الحِلّ والحُرمة ، وفيها أكثر من رأى فلا يجوز للفرد أن يتصلب فيها ، ويتمسك برأيه الشخصى إذا ألزمته الجماعة بغيره .

هَبْ أن الحركة طلبت إلى شاب من أبنائها ألا يعفى لحيته لأنه فى موقع ترى من المصلحة للدعوة التى يحملها ألا يظهر بهذا المظهر المميز الذى يجلب عليه شراً ، أو يعوقه عن الإنتاج للحركة ، أو يُسلّط عليه أضواء قد تضر به

وبدعوته . أو غير ذلك . وفقه الحركة فى ذلك أن هناك من العلماء مَن قال بكراهة حلق اللحية ، ومنهم – وهم الأكثر – مَن قال بحُرمته .. فإذا أخذت برأى مَن يقول بالكراهة فقط ، فإن الكراهة تزول بأدنى حاجة . فكيف إذا كانت هذه الحاجة مصلحة الدعوة والجماعة ؟

وقد يكون الأمر حراماً فى ظاهره ، ولكن يضطر الإنسان إليه ، تفادياً للوقوع فى محرّم أكبر ، وارتكاباً لأخف الضررين ، وأهون الشرين .

اضطرت يوماً إحدى الجماعات الإسلامية المحافظة أن توصى بانتخاب امرأة مرشحة لرئاسة الجمهورية ، مع ما فى ذلك من مخالفة لحديث : « لن يفلح قوم ولّو أمرهم امرأة » . ولكنها لجأت إلى ذلك لتُسقط فى الانتخاب طاغية من الرجال ، تخشى شره على البلد ، وعلى الإسلام والمسلمين . وانتخاب المرأة للرياسة العامة حرام ، وانتخاب الطاغية المتجبر لها حرام أيضاً . ولكن المرأة الضعيفة أقل ضرراً ، وأهون شراً من الرجل الطاغية ، وأدنى ما فى الأمر أن التخلص منها أسهل وأيسر ، والتخلص من الطاغية من العُسر والصعوبة بمكان . ولكن الذين يأخذون الأمور بدون تعمق وتأمل أنكروا على الجماعة الإسلامية موقفها ، وشنّعوا بذلك عليها . مستغلين عواطف الدهماء من المسلمين الذين لا يقدرون على الموازنة بين المصالح والمفاسد .

* *

● ضرورة التخطيط :

ومعنى التخطيط : ألا تدع الحركة نفسها للظروف والمصادفات تُسَيِّرها سيراً عشوائياً اعتباطياً ، تعمل ما لا تريده ، وتريد ما لا تعمله ، وتُدفع دفعاً إلى السير فى غير طريقها ، وإنما يجب أن تسير فى خط واضح المعالم ، محدد المراحل ، بيِّن الأهداف ، معلوم الوسائل .

وليس هذا من التهجم على الغيب ، أو التألى على الله ، أو المعارضة للقدَر ، كما قد يفكر بعض عوام المتدينين ، فإن الإسلام يدعو الإنسان إلى أن يأخذ من يومه لغده ، ومن شبابه لهرمه ، ومن صحته لسقمه ، ومن فراغه لشغله . وهذا كله نظرة إلى المستقبل .

وقد قصَّ علينا القرآن قصة يوسف عليه السلام ، وفيها تخطيط اقتصادى تموينى لمدة خمس عشرة سنة ، قام عليه النبى الكريم يوسف تفكيراً وتنفيذاً ، ولا يضيرنا أن مصدر هذه الخطة من إلهام الله ليوسف وتعليمه إياه من تأويل الأحاديث والرؤى ، فهذا لا تأثير له فى الحكم المستنبَط من القصة ، وهو شرعية التخطيط للمستقبل ، الذى ذكره القرآن فى معرض التمدح والامتنان .

والمتأمل فى سيرة النبى ﷺ يرى أن مراحلها وخطواتها لم تمض ارتجالاً ، ولم تتم اعتباطاً ، بل تمت بعد تفكير وتدبير يسدده الوحى عند الاقتضاء .

فإذا نظرنا إلى هجرة أصحابه إلى الحبشة أو هجرتهم وهجرته إلى المدينة وجدنا خطة واضحة وراء ذلك ، لا يصعب على الدارس استبانتها . وإلا فلماذا أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة خاصة ؟ لماذا لم يختر لهم بلداً قريباً أو أرضاً عربية ؟ ولماذا أذن للبعض بالهجرة دون البعض ؟ ولماذا لم يلحق بهم مهاجراً إلى الحبشة ؟ إن الجواب عن هذا كله يدل على أن الأمر لم يكن مرتجلاً ، بل وراءه هدف وخطة .

والتخطيط يعنى التفكير الهادىء ، والدراسة المستوعبة لكل عمل يريد الإنسان أن يقدم عليه حتى يمضى فيه على هدى وبينة ، ويمشى على صراط مستقيم .

ولا نجد ديناً دعا إلى التفكير كالإسلام ، الذى اعتُبِر التفكير فيه فريضة وعبادة .

ودعا إلى دراسة كل أمر ذى بال يقدم عليه المسلم ، ومن هنا جاء الأمر بالشورى والحث عليها ، ووصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم . والفرد المسلم

مطالَب بأن يستشير فى أموره الخاصة حتى لا يندم ، فكيف بالأمور الكبيرة ، والشئون العامة ؟

وطالما سمعنا الشكوى تلو الشكوى من الخطط الجهنمية المحكمة التى تحاك للإسلام وأُمته ودعاته . وطالما اعتذر أهل الإسلام ورجاله عندما تصيبهم المحن والفتن ، أو تأخذ بخناقهم الأزمات والشدائد ، بأن هذا من مخططات أعداء الإسلام ، فالصهيونية تخطط ، والشيوعية تخطط ، والصليبية تخطط ، والاستعمار بمختلف ألوانه يخطط ، حتى الوثنية تخطط ، والجميع يخططون لضربنا نحن ، وتعويق حركتنا حتى لا نسير ، وإذا سرنا كان سيرنا فى غير الطريق الموصل إلى الهدف ، وإذا سرنا فى الطريق ملئوه بالحفر والحجارة والمعوقات ، حتى تتحطم قوانا قبل الوصول إلى ما نريد .

ولكن إلى متى نظل نحن الأمة التى يخطط عدوها لضربها فينجح ؟ لماذا لا نخطط نحن لأنفسنا ؟ لماذا لا نُفسد على عدونا خطته ؟ أليس لنا عقول كما لهم ؟ أليست لدينا طاقات وإمكانات قد لا تتوافر كلها لديهم ؟! أليس لنا عقيدة تمدنا بالهداية ، وتاريخ يمدنا بالقوة ، وحضارة تشعرنا بأننا أهل لأن نسود ونقود ؟! بلى واللهِ .

إن الذى ينقصنا هو جدية التفكير ، وجدية العمل ، وصدق الاتجاه ، وتجميع المواهب والقدرات لتنظر بأناة ، وتفكر بهدوء ، وتوازن بحكمة ، منتفعة بتجارب التاريخ ، ومستقرئة لنماذج الواقع ، غير متعصبة لقديم ، ولا مفتونة بجديد . وحينئذ سننتهى لا محالة إلى خير كثير ، وتخطيط سليم ، على قدر جهد بَشر غير معصومين .

*

• عناصر التخطيط المرجو :

والتخطيط الذى نريده للحركة الإسلامية يقتضى تحديد عدة أمور :

١ - تحديد الأهداف التى تسعى الحركة إلى تحقيقها ، مرتبة حسب الأولوية ، مع وجوب التمييز بين الأهداف الأساسية والأهداف الثانوية ، وبين الأهداف القريبة ، والأهداف البعيدة ، وبين الأهداف المرحلية والأهداف الثابتة .

٢ - تحديد الوسائل إلى هذه الأهداف ، سواء أكانت وسائل ثقافية وفكرية ، أم وسائل عملية وتربوية ، أم وسائل سياسية ، أم وسائل عسكرية ، أم غير ذلك من الوسائل .

وقد تأخذ بهذه الوسائل كلها ، وقد تأخذ ببعضها دون بعض ، وقد تأخذ ببعضها فى مرحلة دون أخرى .

ويجب - بصفة عامة - أن يراعى فى وضع الوسائل للغايات والأهداف ما يلى :

(أ) أن تكون الوسائل مشروعة فى نظر الإسلام . فالإسلام لا يرى الوصول إلى الحق بطريق الباطل ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ونظرية « الغاية تبرر الوسيلة » مرفوضة شرعاً .

(ب) أن تكون ملائمة لطاقة الحركة ، وظروف المجتمع ، فمن الوسائل ما لا يُقدر عليه ، ومنه ما يُحمد فى بيئة دون أخرى .

(جـ) أن تكون مرنة ، قابلة للتطوير والتغيير ، عند تغير الظروف الزمنية أو البيئية ، فليست الوسائل أبدية .

(د) مراعاة التدرج فيما يحتاج إلى تدرج ، اقتداء بمنهج التشريع الإسلامى فى فرض الفرائض وتحريم المحرّمات .

(هـ) أن تكون واقعية بحيث تضع المعوقات والموانع فى الحسبان .

٣ - تحديد المراحل : مرحلة التعريف والتبليغ .. مرحلة التكوين واستخلاص

العناصر .. مرحلة الصراع والامتحان .. مرحلة النضج والتمحيص .. مرحلة الترقب والوصول ..

وليست هذه المراحل مرتبة ترتيباً آلياً ، كل واحدة تلى الأخرى حتماً ، فقد يبدأ التعريف والتكوين فى وقت واحد ، وقد يتقدم الثانى عن الأول ، وقد يبكر الصراع عن موعده ، وقد يتأخر . فالعوامل المتحكمة فى سير الأحداث كثيرة ، منها ما يحسبه الناس وما لا يحسبونه . والذين تنبأوا بحتميات معينة - مثل « كارل ماركس » - أخطأوا الحساب ، وكذّبهم التاريخ .

٤ - تحديد المواقف : موقف الحركة من الأديان الأخرى .. من العقائد اللادينية .. من الأحزاب السياسية .. من الجماعات الدينية .. من المذاهب الفقهية .. من الحكومات الوطنية .. من استخدام القوة .. من القوى العالمية .. من الحركات القومية .. من الانقلابات العسكرية .. من الانتخابات النيابية .. إلخ .. على أن يتسم هذا التحديد بوضوح الرؤية ، وسعة الأفق ، والبُعد عن المؤثرات العارضة ، والتفرقة بين المواقف « الاستراتيجية الثابتة » والمواقف « التكتيكية » المرنة .. ولا بد أن يتم ذلك كله بعد دراسة فاحصة ومقارنة على أعلى المستويات ، وأدق الاختصاصات فى الحركة ، ولا بأس أن تستعين بكل ذى خبرة فى ذلك .



● ما لا يدخل فى التخطيط :

ولا يدخل فى التخطيط ما يراه بعض الناس من تبنى أحكام تفصيلية فى كل قضية من قضايا الفقه والتشريع ، فى كل المجالات : السياسية ، والاقتصادية ، والمالية ، والإدارية المدنية والدولية ، فإن فى هذا تحجير ما وسَّع الله ، وإلزام الأمة بما لا يلزمها ، وتحكماً فى تقدير أمور لم تحدث بعد ، ولا ندرى حين تقع ، ماذا يكون حجمها وأثرها ووقعها وملابساتها .

كما أن كثير من هذه المسائل تحتاج إلى « اجتهاد جَماعى » من أهل الاختصاص الجامعين لشروط الاجتهاد ، أما رأى يصدر عن فرد أو اثنين أو ثلاثة لا يُدرى مَن هم ، ثم تُلْزَم به الأمة ، فشىء لا يُقبل ، ولهذا رأينا كثيراً من هذه الآراء المتبناة غاية فى الغرابة ، وضيق الأفق فى النظرة إلى الشرع وإلى الحياة .

وفى مقابل هؤلاء رأى مضاد لهم على طول الخط ، يرى أن من العبث مجرد عرض أسس النظام الإسلامى ، أو مجرد الإسهام فيما يسمى « تطوير الفقه الإسلامى » . وحُجّة هذا الرأى أن الناس يجب أن يؤمنوا أولاً بالإسلام ، وبحاكمية الله . فإن فعلوا كان من اليسير تقديم نظام الإسلام ، وتشريع الإسلام ، عندما يقوم مجتمع الإسلام .

وفى هذا الرأى من الغلو مثل ما فى مقابله ، ودعوة الناس إلى الإسلام قد تكون بعرض عقيدته ، وقد تكون بعرض نظامه للحياة ، وبيان ما فى العقيدة أو النظام من مزايا وحسنات ، تجمع للناس خيرى الآخرة والأولى .

فجماهير الناس فى بلادنا مؤمنة بعقيدة الإسلام ، ولكن بعض المثقفين منهم بلبلت أفكارهم فى صلاحية نظامه للحياة المعاصرة ، والمجتمع المتطور ، فمن الرفق بهؤلاء أن نُقدِّم لهم النظام مبينين محاسنه ، حتى نطرد الشك باليقين .

والخير عندى هو الوَسَط : أن يقوم علماء الحركة الإسلامية بصفاتهم الشخصية بعرض أسس النظام الإسلامى ، بل بتوضيح خطوطه التفصيلية ما استطاعوا ، وإعداد دراسات علمية مستفيضة فى كل جانب ، ففى ذلك خدمة للحاضر ، وتحضير للمستقبل ، والأمر يحتاج إلى مجال أوسع لمناقشته . وفى هذه الإشارة ما يكفى الآن .

❋

• التخطيط والقَدَر :

وأود أن أنبه هنا إلى أمر ، هو أن التخطيط السليم لا يقتضى - بالضرورة - الوصول إلى الهدف .

والتأخر فى الوصول إلى الهدف لا يعنى خطأ الحركة ، أو عدم سلامة التخطيط ، أو استقامة الخط ، فإن المعوقات كثيرة ومتنوعة ، وليس زمامها بيد الإنسان حتى يذللها لإرادته . وإنما هو بيد القَدَر الأعلى . ورحم الله شوقى حين قال :

قدَّرتُ أشياء وقدّر غيرها   قَدَرٌ يخط مصاير الإنسان !

إن على الإنسان أن يعمل ، وليس عليه أن ينجح . وقديماً أدرك الناس ذلك فقال شاعرهم :

علىَّ السعى فيما فيه نفعى   وليس علىَّ إدراك النجاح !

وليس من الصواب قياس خيرية الأعمال وشرعيتها أو حقية المناهج وبطلانها ، بنتائجها وثمراتها ، فالعمل خير إذا جاء بنتائج حسنة ، وشر إذا لم يجىء بذلك ، والمنهج حق إذا أثمر النجاح وباطل إذا لم يحققه . كما هو مذهب « الذرائع » أو « البرجماتية » .

المطلوب من الإنسان أن يبذر الحَبّ ويرجو الثمار من الرب . ليست هذه صوفية ، ولكنها واقعية .

وقد يختار الإنسان الحَبّ الجيد ، فيبذره فى التُربة الجيدة ، ويتولاه بالسقى والتسميد والرعاية المستطاعة ، حتى ينبت وينمو ويترعرع ، فما يكاد يبدو نوره وزهره حتى تعصف به الرياح فتحرقه ، أو تنزل به الآفات السماوية فتهلكه . فماذ عسى أن يوجه إلى هذا الزارع من ملام ، وليس بيده تصريف الرياح ، ولا إبعاد الآفات ؟!

ولقد لقيتُ أناساً فى الأردن منذ اثنتين وعشرين عاماً يقولون : إن الحركة التى لا تنتصر فى ثلاثة وعشرين عاماً - وبعضهم قال فى ثلاثة عشر عاماً - لا بد أن يكون سيرها غلطاً ، وطريقها خطأ .

وإنما قدّروا هذه المدة لأنها الزمن الذى عاشته الدعوة المحمدية حتى تم لها النصر والفتح وأقامت دولة الله فى الأرض .

وأذكر مما قلت لهم يومئذ : ما قولكم فى سيدنا نوح عليه السلام ؟

قالوا : رسول من الله ، ومن أولى العزم من الرسل .

قلت : وكم مكث يدعو قومه إلى دعوته ؟

قالوا : ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما ذكر القرآن .

قلت : هل نجح فى دعوته إذا كانت الدعوة تقاس بالنتائج ؟

قالوا : وما آمن معه إلا قليل .

قلت : لقد ذكر القرآن على لسانه قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .. يعنى أنهم بلغ بهم الإعراض عنه أنهم لا يريدون أن يسمعوا صوته ، ولا أن يروا شخصه !

ورغم تطاول القرون ، وظهور أجيال بعد أجيال ، جاء اللاحق كالسابق فى الكفر والفجور ، حتى قال نوح لربه : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٢) ..

هذا مع حُسن دعوته واستمراره عليها ، وتلوينه لأساليبها وأوقاتها ، كما قال

---

(١) نوح : ٥ - ٧ (٢) نوح : ٢٧

القرآن عنه : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

تُرَى هل كان نوح يسير فى دعوته على صواب أم على خطأ ؟

إن الذى يحكم على الدعوات بنتائجها يُخَطِّئ شيخ المرسلين نوحاً عليه السلام ، مع أنه بلَّغ فأحسن ، وجادل فأفحم ، حتى قال له المشركون يوماً بعد أن غُلِبوا وانقطعوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) ..

* *

● مهمة الحركة الإسلامية :

لقد أصبح من الضرورى إذن أن تقوم فى كل بلد إسلامى « حركة إسلامية » واعية شاملة ، تحمل عبء الدعوة إلى تطبيق النظام الإسلامى ، وإحياء المجتمع الإسلامى ، وتكوين الجيل المحمدي ، الذى يمهد السبيل للعودة إلى حكم القرآن ودولة الإسلام .

ولا شك أن حركة كهذه لا بد أن تكون مهمتها ثقيلة وخطيرة ، ولا يقوم بها ، ويصبر عليها إلا أُولو العزم من الرجال الذين باعوا أنفسهم لله ، ووهبوا حياتهم لنصرة دينه ، غير مبالين بما يصيبهم من نَصَب أو بلاء فى سبيل الله .

إن مهمة الإنسان فى الحياة مهمة كبيرة لمن يقدِّرها حق قدرها ، لأنها مهمة الخلافة فى الأرض والعبادة لله ، والعمارة للحياة . وهى مسئولية ضخمة صَوَّر القرآن ضخامتها وثقلها حين قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ ﴾ (٣) ..

---

(١) نوح : ٨ - ١٢ (٢) هود : ٣٢ (٣) الأحزاب : ٧٢

ومهمة الإنسان المسلم أعظم وأضخم من مهمة أى إنسان آخر ، فقد ورث المسلم تركات الأنبياء والرسل جميعاً ، واختص الله أمة الإسلام بالرسالة الخاتمة ، والشريعة العامة الخالدة ، وكلّفهم - مع تنفيذها والعمل بها - تبليغها ونشرها والدفاع عنها ، وهداية العالم إليها . لتتحقق بها رحمة الله للعالمين . وإنها لتبعة عظيمة ، ومسئولية ثقيلة ، ولا غرو أن خاطب الله صاحب هذه الرسالة بقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (١) ..

ومهمة المسلم الحريص على دينه ، الغيور على أمته ، فى هذا الزمن - زمن الفتن وغلبة الشهوات على الأنفس ، والشبهات على العقول ، والماديات على الحياة - أصبحت أشد ضخامة ، وأعظم ثقلاً . فقد بات القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وأصبح الدعاة إلى الإسلام الحق غرباء وهم فى أوطانهم ، وأصبح الدعاة إلى الإلحاد والإباحية والمذاهب المستوردة ، يجهرون بدعواتهم غير هيّابين ، ولا وجلين ، لأنهم مسنودون من جهات متعددة ، ومن قُوَى مختلفة ، ظاهرة وخفية ، فى الداخل والخارج ! ولهذا ورد فى الحديث : إن للعامل فى مثل هذا الزمن أجر خمسين من العاملين قبله (٢) . وذلك لأنهم كانوا يجدون على الخير أعواناً ، ولا يجد على الخير أعواناً .

وكل هذا يجعل مهمة أية حركة إسلامية فى عصرنا - الذى تداعت فيه الأمم على الإسلام تداعى الأكلة إلى قصعتها (٣) - غاية فى العظم والخطورة . ويوجب عليها العمل الدائب ليل نهار ، والجهاد الدائم فى كل ميدان ، وسد

---

(١) المزمل : ٥

(٢) كما يدل على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى عن أبى داود والترمذى وابن ماجه . وفيه : « فإن من ورائكم أياماً ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم » وحسّنه الترمذى .

(٣) إشارة إلى حديث رواه أبو داود عن ثوبان مرفوعاً .

الثغرات المفتوحة هنا وهناك ، واليقظة للأعداء المتربصين فى الخارج ، والتنبه للقُوَى العميلة فى الداخل ، حتى تستطيع تحقيق أهدافها ، وإحباط مؤامرات خصومها .

* *

● متى تنجح الحركة الإسلامية :

وإنما تنجح الحركة الإسلامية فى تحقيق الحل الإسلامى ، وإقامة المجتمع الإسلامى ، واستئناف حياة إسلامية . إذا توافر لها أمور ثلاثة :

١ - جيل مسلم :

الأمر الأول : جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكويناً إسلامياً صحيحاً متكاملاً . يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامى المنتظر .

وإذا كان دعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكى لا يبنيه إلا الاشتراكيون ، فدعاة الإسلام أولى أن يقولوا : إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلا الإسلاميون .

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى فى المدينة ، إلا بعد تكوين الجيل الإسلامى الأول فى مكة ، وعلى مناكب هؤلاء ومَن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة المسلمة .

ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يوماً : كيف يتصور قيام حكم إسلامى راشد ؟

فأجاب : بأحد طريقين : إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين ، وإما أن ينتقل الحكم إلى أيدى المؤمنين .

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلب الحاكمين بالفعل ، لاختصرت الطريق اختصاراً ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ ، لا يمت إلى الواقع بصلة ، فإن مَن شبَّ على شيء شاب عليه ، ومَن شاب على شئ مات عليه . وهؤلاء الحكام قد شبوا وشاخوا على العلمانية ، وتتلمذوا صغاراً وكباراً على الفكر الغربى بشقيه . فهيهات هيهات أن يولوا وجوههم شطر غيره ، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذى ورثوه عن آبائهم ، والذى ارتضى الله لهم ، وارتضوه - نظرياً - لأنفسهم .

فلم يبقَ - إذن - إلا الشق الثانى ، وهو : أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين : أيدى الجيل المسلم ، الذى آمن بالإسلام عقيدة وعبادة وخُلُقاً ورابطة ونظام حياة .

يُشترط فى هذا الجيل أن يتميز بعدة صفات :

الأولى : الإيمان العميق بالرسالة ، وسمو أهدافها ، وسلامة طريقها ، وانتصارها . وهذا أساس العمل كله .

الثانية : أخلاق الإيمان من التضحية والإيثار ، والصبر والشجاعة والبذل ، والإخلاص والصدق ، بحيث لا يغريه وعد ، ولا يثنيه وعيد ، ولا يقعد به شح هالع ، ولا جُبْن خالع . وهذا يحتاج إلى تربية مدروسة ، طويلة المدى ، عميقة الجذور ، يقوم عليها رجال « ربانيون » .

الثالثة : الوعى الشامل : وعى الرسالة ، ووعى الذات ، ووعى الموقف . وبهذا يعرف فكرته ورسالته ، ويعرف نفسه وموقعه ، ويعرف عدوه وصديقه . وهذا يتطلب مدداً دائماً من التثقيف المركز المتكامل ، ما بين شرعى وحركى وسياسى .. إلخ ، بحيث تكون دعوته « على بصيرة » كما أمر الله تعالى .

الرابعة : الترابط الوثيق على هذه الدعوة ، ترابطاً يعلو على كل الروابط العنصرية والإقليمية والطبقية والأسرية

الخامسة : الاستمرار فى حمل الدعوة ، والعمل الدؤوب على نشرها وكسب الأنصار والجنود لها ، بغير كلل ولا ملل ولا يأس ولا توقف ، مهما ساءت

الظروف . ورحم الله يوسف الصدِّيق الذى لم يمنعه السجن عن نشر دعوته بين السجناء .

السادسة : الانتشار فى عامة القطاعات والمجالات : الشعبية والرسمية ، والمدنية والعسكرية .

السابعة : أن يضم هذا الجيل عدداً كافياً من المفكرين والقياديين من ذوى النبوغ والكفاية ، وأصحاب المواهب والقدرات العالية فى كافة التخصصات والمجالات : العلمية والأدبية والنظرية والعملية ، يكونون أهلاً لثقة الشعب ، والنهوض بعبء بناء المجتمع الجديد .

٢ - قاعدة جماهيرية إسلامية :

والأمر الثانى الذى يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة : وجود قاعدة جماهيرية لها من كافة طبقات الشعب . وذلك عن طريق تكوين رأى عام إسلامى يناصر الفكرة الإسلامية ، يحب دعاتها ، ويكره أعداءها ، ويحرص على انتصارها .

فلا يكفى أبداً أن تربى الحركة جيلاً مسلماً مخلصاً . لا يحس به الشعب ، ولا يعرفه ولا يتحمس له ، لأنه فى عزلة عنه ، يكلمه من بعيد ، وينظر إليه من فوق ، كأن هذا الشعب لا يتكون من ابن عمه وأخيه ، ومن جيرانه وذويه ، وفصيلته التى تؤويه ، حسبه أن يعيش فى خلوته الروحية يعبد ربه ، أو فى خلوته الفكرية يقرأ كتابه ، تاركاً الناس يواجهون مشاكلهم وحدهم . مع أن الآخرين من أصحاب العقائد والمذاهب لن يتركوهم . بل سيحاولون أن يكسبوهم إلى جانبهم . ومع أن المفروض أن يكونوا مع الإسلام ودعاته .

لا بد إذن من العناية بمشكلات الشعب ، وأن ننزل نحن إليه ، لا ننتظر صعوده إلينا . ولا بد من كسبه إلى جانب الحركة الإسلامية .

وهذا يتطلب تصحيح الأفهام المغلوطة التى راجت لدى المتعلمين العصريين من مثل : فصل الدين عن الدولة وعزله عن الحياة ، والخلط بين مفاهيم التحرر

والتحلل ، والإيمان بالعلم مقابل الإيمان بالدين ، وتصور الدين معوقاً للعمل للحياة والاستمتاع بالطيبات ، وإشاعة الماركسيين أن الدين مخدر الشعوب .... إلى غير ذلك من الأفكار والمفاهيم التي تقف حجر عثرة فى طريق الدعاة إلى حكم الإسلام .

ومما يساعد الحركة الإسلامية على تكوين هذه القاعدة الجماهيرية المتغلغلة فى قُوَى الشعب المختلفة ، أن شعوبنا لا زالت - بحمد الله - مع الإسلام ، حتى الذى ينحرف عن الإسلام بسلوكه ومعاملته ، تجده مع الإسلام بعاطفته وقلبه ، ما زالت كلمة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » تلمس فى أعماق المسلم وتراً حساساً ، وتهز فؤاده هزاً عميقاً .

وما زالت آيات القرآن الكريم هى التى يرتعش لها كيان المسلم كله ، كلما خاطبه بها داعية مخلص .

٣ - التغلب على المعوقات :

الأمر الثالث الذى يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية : هو التغلب على المعوقات والموانع التى تقف حائلاً بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل . إذ لا يكفى لقيام أمر ما أن تتحقق موجباته ، بل لا بد أن تنتفى معوقاته أيضاً ، أو كما يقول أهل الأصول والفقه : وجود المقتضى وانتفاء المانع .

ولا ريب أن هناك معوقات شتَّى تعترض طريق الحركة الإسلامية ، لا بد من مراعاتها ودراستها ومحاولة التغلب عليها .



● معوقات من جهة الشعب :

هناك معوقات شعبية نفسية تعزل مجموعة من الجماهير المسلمة عن الحركة الإسلامية ينبغى أن نضعها فى الاعتبار .

من أهم هذه المعوقات :

١ - الجهل بالإسلام ، وبالدعوات المنافية للإسلام ، وبحقيقة الحركة الإسلامية .

٢ - اليأس من انتصار الحركة الإسلامية ، والاعتقاد بأنها حركة لا مستقبل لها .

٣ - الخوف من الاضطهاد المتكرر ، والضربات الوحشية المتلاحقة للأعضاء والمناصرين ، حتى المساندين من بعيد .

وعمل الحركة هنا هو مقاومة الجهل بالعلم ونشر الوعى الصحيح .

ومقاومة اليأس ببث الأمل ، وزرع الرجاء ، مع التنبيه على ضرورة العمل ووجوب السعى والمحاولة أيًّا كانت النتائج .

ومقاومة الخوف بتقوية الإيمان ، الذى يُهوِّن كل تضحية فى سبيل اللّه ..

*

● معوقات مادية من جهة القوى المناوئة :

وهناك معوقات مادية تتمثل فى القوى المناوئة للعودة إلى حكم الإسلام ، والتى تعمل بكل قوة ، وبأية وسيلة ، لإجهاض أية محاولة جادة وصادقة لتحقيق هذه العودة المفروضة على المسلمين بحكم إيمانهم . من هذه المعوقات :

(أ) وجود نفوذ أجنبى قوى ، وخصوصاً إذا كان يتمثل فى وجود عسكرى . فهذا لا يسمح قط بانتصار الحركة الإسلامية ، مهما كلّفه ذلك من تضحيات . ولهذا كان تحرير البلد من السيطرة الأجنبية شرطاً لازماً لتحقيق الحل الإسلامى .

(ب) وجود حكم عسكرى علمانى متمكن . فهو أيضاً لا يسمح للحركة الإسلامية بالوجود ، فضلاً عن أن يسمح لها بالانتصار . ولهذا كان التحرر من طغيان الحكم العسكرى المتسلط ضرورة إسلامية ووطنية ، وشرطاً لنجاح الحركة الإسلامية .

(جـ) وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة ، وخصوصاً أننا نعلم أن القوى العالمية المتصارعة فيما بينها إلى حد الاقتتال ، على أتم الاستعداد لأن تتصالح وتتصافح ، وتتساند وتتعاضد ، إذا كان العدو هو الإسلام ، وكان الخطر من جهة الإسلام . وصدق ما قاله فقهاؤنا : الكفر كله ملّة واحدة ، وصدق اللّه قبل ذلك حين قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [(1)] .. ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [(2)] .

*

• معوقات من داخل الحركة نفسها :

وهناك معوقات أخرى لعلها أشد خطراً من تلك المعوقات التى أشرنا إليها ، ونعنى بها : المعوقات التى تبرز من داخل الحركة نفسها . ومنها :

(أ) اختلاف الكلمة :

فإن من أهم مميزات الجماعة المسلمة قوة الرابطة بين أبنائها ، لأنها تقوم على وحدة العقيدة ، ووحدة المفاهيم ، ووحدة الهدف ، ووحدة التنظيم ، بجانب المعنى الروحى الذى ينبع من الإيمان ، ويجعل كل أخ عند أخيه بمنزلة نفسه . فإذا انعدمت هذه الميزة فقد فتحت على نفسها باب وهن وضعف لا يسده شىء .

فتصبح الحركة الواحدة المنسجمة فى الظاهر ، مجموعة حركات متباينة فى الواقع ، نتيجة لاختلاف المفاهيم ، أو اختلاف الولاءات ، أو اختلاف المطامع ، أو غير ذلك ، مما يُصدِّع بنيان الوحدة الفكرية والشعورية ، ثم السلوكية والتنظيمية فى الحركة ، وهذا هو سبيل الفشل ، وبداية الانهيار ، ومفتاح الطريق للعدو ليتسلل ويضرب من الداخل وهو آمن . وهذا ما حذَّر منه اللّه ورسوله : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [(3)] ..

---

(١) الأنفال : ٧٣ (٢) الجاثية : ١٩ (٣) الأنفال : ٤٦

وقد كان مؤسس الحركة الإسلامية الحديثة الشهيد حسن البنا كثير التحذير لأتباعه من الاختلاف والتفرق . ومما كان يقوله لأتباعه :

« أنا لا أخشى عليكم من أعدائكم ، بل أخشى عليكم من أنفسكم .. لا أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا الروس ولا غيرهم .. وإنما أخشى عليكم أمرين :

١ - أن تتخلوا عن الله تعالى ، فيتخلى الله عنكم .

٢ - أو أن تتفرقوا فيما بينكم ، فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة » .

(ب) حب الدنيا :

وهو فى الدعوات الربانية رأس كل خطيئة ، وأصل كل مفسدة ، فإن الأصل فى قيام الحركة أنها عبادة لله ، وأداء لفريضة الجهاد والدعوة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله من شوائب الشرك والوثنية : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [(١)] .. والوثنية ليست عبادة صنم من الحجر أو غيره فحسب ، بل عابد الدينار أو الدرهم عابد وثن ، وعابد متاع الدنيا وزينتها عابد وثن .

ومن خلال حب الدنيا تتفتح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس ينفذون منها إلى قلوب الدعاة ، فيسيل لعابهم إلى المناصب ، وتتطلع نفوسهم إلى المكاسب ، وهذا مكمن الداء ، وسر الوهن الذى يضعف الأفراد والأمم وهو ما نبّه عليه النبى ﷺ حين حذّر من الوهن فسئل : ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » [(٢)] .

(جـ) حب الذات :

وهو فرع عن حب الدنيا ، أو جزء منه . ونعنى به : أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور ، وألا يعمل إلا فى الصدارة والصفوف الأولى ، وأن

---

(١) البينة : ٥

(٢) رواه أبو داود .

يجرى وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء ، وإذا أتيح له مكان بارز يوماً ، استقتل للبقاء فيه ، وإزاحة كل منافس من طريقه ، وتحطيم كل شخصية يخشى أن تزاحمه . ولهذا قيل : حب الظهور كم قصم الظهور ، وهذه هى آفة الآفات فى كثير من البارزين من رجال الدعوات الربانية حتى الصُوَّام القُوَّام منهم : أن يذكروا ذواتهم وينسوا ربهم ، مع إعلانهم المتكرر بأن الله هو الغاية وأن رضوانه هو المنتهى . ومع علمهم بأن مقامهم عند الله لا يُنال بالشهرة ولا بالمنصب فـ « رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه » . وإنما تنتصر الرسالات بالجنود المجهولين الذين جاء فيهم الحديث الشريف : « إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا » ، والحديث الصحيح الآخر : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » يعنى أنه مغمور خامل الذكر ، لا يُشار إليه بالأصابع ، ولا يقيم المجتمع له وزناً .

إن حب الذات حينما يتمكن ويسيطر على النفس يصبح عبادة للذات ، أو عبادة للهوى ، والهوى شر إله عُبِدَ فى الأرض .

(د) العزلة عن قوى الشعب :

ونعنى به أن « تتقوقع » الحركة ، وتنغلق على نفسها ، تقيم بينها وبين الناس حجاباً أو حُجباً ، فبدل أن تكون حركة للمسلمين جميعاً ، تغدو حركة فئة محدودة من الفئات . أشبه ما تكون بفرقة دينية ، لها مذهبها ووجهتها الخاصة ، فى حين أنها تعبر عن الإسلام العام ، إسلام القرآن والسُنَّة ، وعن أمة الإسلام فى كل دولة ، وقد تعين الحركة على نفسها وزيادة عزلتها بأمور ، منها :

١ - نزعة الاستعلاء على الجماهير المسلمة ، ومخاطبتها من عَلٍّ ، باعتبارها ضالة هالكة مع ما جاء فى الحديث الصحيح : « إذا رأيتَ الرجل يقول : هلك الناس ، فهو أهلكُهم » - بضم الكاف - أى أقربهم هلاكاً ، أو أشدهم هلاكاً ، وفى رواية : « أهلكَهم » - بفتح الكاف - أى كان سبباً فى هلاكهم .

٢ – ومن ذلك اعتبار الشعوب قطعاناً تُساق بالعصا ، لا أناسيّ تُساس بالعقل . لأنهم يصفقون لكل حاكم ! فهذا ليس صحيحاً على إطلاقه .

٣ – الشعور باليأس من استجابتها وتأييدها ، مع أن الخير كامن فى طبيعة شعوبنا ، والتدين أصيل فى فِطرتها .

٤ – رميها بالفسوق أو اتهامها بالكفر ، مع تحذير النبى ﷺ من ذلك . فإن الأصل هو حمل حال المسلم على الصلاح ، وتحسين الظن به ما وُجِد إلى ذلك سبيل .. أى سبيل .

٥ – مطالبة العامة من الناس بما يطالَب به الخواص من حملة الدعوة ، ومحاسبتهم على ذلك مع ما يجب مراعاته من الفرق بين أولئك وهؤلاء . فصاحب الدعوة يُطلب منه ما لا يُطلب من سائر الناس ، من اجتناب الصغائر ، بل اتقاء الشبهات ، والبُعد عن المكروهات . والحرص على السنن والآداب ومظاهر المروءة ، لأنه موضع قدوة ونظر من الناس . أما جمهور الناس فينبغى التسامح معهم فى كثير من ذلك ، حتى يكفينا منهم أن يجتنبوا الكبائر ، ويؤدوا الفرائض .

حتى بعض مرتكبى الكبائر قد يكون ذا عاطفة دينية حية ، فهو يحب الإسلام وإن لم يعمل به ، وينتصر لدعاته وإن لم ينضم إليهم . فهذا يُستفاد منه ويتألف قلبه إذا رُجِيَ من ورائه خير . وقد قال النبى ﷺ لمن لعن رجلاً من الصحابة تكرر شربه للخمر : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » !

إن عزل الحركة الإسلامية عن الشعب واستعلاءها عليه خطأ وخطر معاً . إذ يعنى هذا أن جماهير الشعب التى يجب أن تساند الحركة وتناصرها – لأنها تعبر عن آمالها ، وعقائدها ، وتدافع عن دينها ودنياها معاً – تغدو فى موضع الخصم للحركة ، والمناوىء لها ، وهذا خذلان عظيم .

(هـ) الجمود :

وأعنى بالجمود : تحجر الحركة على أسلوب معيَّن فى الدعوة ، أو طريقة معيَّنة فى العمل ، أو شكل معيَّن فى التنظيم ، لا ترضى عنه بدلاً ، ولا تبغى عنه حولاً . وإن ظهر ضعف أثره ، أو ثبت فشله ، أو حالت الحوائل القاهرة دون الانتفاع به .

ومثل ذلك الجمود على لون واحد من التكفير ، لا تحيد عنه ، ولا تقبل غيره، بل ترفض مجرد المناقشة فيه ، أو حوله ، وكل حوار من هذا النوع يُقاوَم ويوصف بالهرطقة أو الخروج عن الصف ، أو إثارة الفتنة ، أو غير ذلك من الألفاظ التى تشيع فى جو الجمود .

ومعنى هذا هو تحريم كل لون من ألوان الاجتهاد ، وإغلاق بابه ، وإيجاب « التقليد » و « التمذهب » فى الحركة كالذين أوجبوا التقليد والتمذهب فى الفقه والجمود على الأقوال المنصوص عليها ، والأحكام المحفوظة ، وربما كانت هذه الأقوال والأحكام مناسبة لزمنها وبيئتها ، غير مناسبة لزمن آخر ، وبيئة أخرى .

إن الجمود أبرز دلائل الموت ، والحركة من أظهر علامات الحياة . هذا واضح فى الكائنات الحية عموماً ، وفى الإنسان خصوصاً .

والجماعة الحية كالفرد الحى ، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلا بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث ، فإذا سُدَّ عليها طريق شقت لنفسها طريقاً آخر أو طُرقاً ، وإذا أُغلق فى وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر أو أبواباً .

قد تُغلق دور الجماعة الرسمية ولكن لن تُغلق أمامها أبواب المساجد ، ولو مُنعت الحديث العام فى المسجد ، فلن يستطيع أحد منعها من الحديث الفردى إلى الناس .

وقد تُصادَر صحيفة الحركة ، أو تُمنع أصلاً من إصدارها ، ولكن رجالها يستطيعون الكتابة فى صحف الآخرين . ولو مُنِع أفرادها من الكتابة فى

الصحف ، فلن يمنعوا تأليف الكتب والرسائل ، ولو مُنِعوا ذلك لكان عليهم أن يفكروا فى غيره وغيره .

وهكذا إذا توقف العمل بأسلوب وجب البحث عن أسلوب غيره ، وإذا تعسَّر العمل فى مجال وجب فتح مجال غيره ، ولو بالهجرة إلى مكان آخر .

وإذا اقتضت الظروف تجميد نشاط معيّن أو تقليصه ، لأن ضرره أكبر من نفعه ، وخسائره أكثر من مكاسبه ، أو لأن جوانب أخرى من النشاط أكثر نفعاً ، أو أحوج إلى التركيز ، فلا بأس بذلك ، ولا حَرَج فيه .

وإذا اقتضت الظروف كذلك التخلى عن عنوان معيّن أو اسم خاص ، فلا مانع منه ، إذا كان من ورائه مصلحة الدعوة ، وخدمة أهدافها .

إن النبى ﷺ قَبِلَ فى معاهدة الحديبية أن يمحو : « بسم اللّه الرحمن الرحيم » ليُكتب فى موضعها : « باسمك اللّهم » ويمحو : « محمد رسول اللّه » ليُكتب بدلها « محمد بن عبد اللّه » لأن محو هذه العبارات على ورقة لا يمحو البسملة من مصاحف المسلمين ، ولا من صدور الحفّاظ ، ولا ألسنة القرّاء ، وكذلك رسالة محمد ، سيظل يشهد بها الألوف والملايين فى الأذان والإقامة والصلاة .

إن المرونة فى الوسائل والأساليب والشكليات دليل الحيوية ، وخصوبة التفكير ، وسعة الأفق ، وسماحة النفس ، وهى التى تغيظ الكفار ، وتحير الخصوم ، وقديماً قال الشاعر :

إلبس لكل حال لبوسها ... إما نعيمها وإما بؤسها !

أما الشىء الذى نَصِرُّ عليه ، فهو « الثبات » على مبادىء الإسلام الأساسية وقيمه العليا ، وأهدافه الكبرى للحياة وللإنسان ، وإن سمىّ بعض الناس هذا « جموداً » فنِعْم الجمود هو ، ولا يضرنا الأسماء متى وضحت المسميات .

إن الاستمساك بالحق ، والثبات عليه ، والإصرار على نصرته ، ورفض التهاون فيه أو التنازل عنه أو المساومة عليه ، ليس جموداً ولا تعصباً ، بل هو

مقتضى الإيمان والإسلام ، وإنما الجمود والتعصّب حقاً هو التعصّب للأشكال لا للحقائق ، وللأشخاص لا للمبادىء ، وللأسماء لا للمسميات . الجمود القاتل هو التحجر الذى ذكرناه ، ووقف الاجتهاد فى تطوير المناهج ، وتجديد الأساليب ، وابقاء كل قديم على قدَمه ، لا لشىء إلا لأنه قديم ، وإن تغيّرت الأوضاع ، وتبدلت الظروف ، وتطورت الأحوال . مع أن المناهج والوسائل يجب أن تلين للزمن ، وتستجيب لمقتضيات التطور ، ما دام ذلك فى إطار النصوص المحكمة والقواعد العامة للإسلام .

إن العالَم يتغير ، والحياة تتطور ، وليس كل ما كان ملائماً بالأمس يلائم اليوم ، فقد كان الحصان أسرع وسائل المواصلات بالأمس ، فهل يجوز الاعتماد عليه اليوم فى عصر الصاروخ ومراكب الفضاء ؟!

* *

● ضعف التنظيم والتخطيط :

ونعنى به : ضعف الصلة بين القيادة والجنود ، فلا تعرف القيادة فى القمة ماذا يعتمل فى أنفس الجمهور فى القاعدة ، ولا تعرف القاعدة ماذا عند القيادة من أفكار وأخبار ومواقف ، إما لضعف الإرسال فى القيادة ، أو لعجز الاستقبال فى القاعدة .

وقد تكون الصلة قائمة ، وقد تصل الأفكار والمعلومات أولاً بأول ، ولكن الثقة غير متوافرة ، وضعف الثقة يخل بمبدأ الالتزام بالسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، ولا تنجح حركة ، ما لم يستمر أفرادها على الالتزام بهذا المبدأ ، مستعدين لتنفيذ الأمر ولو كان مخالفاً لرأيهم فى سبيل مصلحة الجماعة الكبرى .

ومثل ذلك ضعف التخطيط للمستقبل ، وغلبة الارتجال ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، على طريقة « الجبريين » الذين يرون الإنسان مُسيَّراً لا مُخيَّراً ، وما هو إلا كريشة فى مهب الريح ، تقلبها كيف تشاء ، أو طريقة « الآنيين »

الذين يستمتعون بالحاضر ، دون اعتبار بالماضى ، ولا تأهب للمستقبل ، على حد ما قال الشاعر :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها !

* *

● فقدان الروح العلمية :

وللروح العلمية سمات أبرزها :

١ - النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال والأعمال ، بغَضّ النظر عن الأشخاص ، كما قال علىّ بن أبى طالب : « لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » .

٢ - احترام الاختصاصات كما قال القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ (١) .. ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٢) .. ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٣) ، فللدين أهله ، وللاقتصاد أهله ، وللعسكرية أهلها ، ولكل فن رجاله وخاصة فى عصرنا ، عصر التخصص الدقيق . أما الذى يعرف فى الدين والسياسة ، والعلوم والفنون ، والشئون الاقتصادية والعسكرية ، ويفتى فى كل شىء ، فهو فى الحقيقة لا يعرف شيئاً .

٣ - القدرة على نقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والاستفادة منه ، وتقويم تجارب الماضى تقويماً عادلاً ، بعيداً عن النظرة « المنقبية » التى تنظر إلى الماضى على أنه كله مناقب وأمجاد ! والنظرة التشاؤمية التى تعتبره كله أخطاء ومثالب !

٤ - استخدام أحدث الأساليب ، وأقدرها على تحقيق الغاية ، والاستفادة من تجارب الغير ، حتى من الخصوم ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أنّى وجدها فهو أحق

---

(١) الأنبياء : ٧ (٢) الفرقان : ٥٩ (٣) فاطر : ١٤

بها ، والانتفاع بالعلم الحديث والتكنولوچيا العصرية وما تقدمه من تسهيلات وإمكانات هائلة .

٥ - إخضاع كل شىء - فيما عدا المسلّمات الدينية والعقلية - للفحص والاختبار ، والرضا بالنتائج كانت للإنسان أو عليه .

٦ - عدم التعجل فى إصدار الأحكام والقرارات ، وتبنى المواقف ، إلا بعد دراسة متأنية ، مبنية على الاستقراء والإحصاء ، وبعد حوار بنّاء ، تظهر معه المزايا ، وتنكشف المآخذ والعيوب .

٧ - تقدير وجهات النظر الأخرى ، واحترام آراء المخالفين فى القضايا ذات الوجوه المتعددة ، فى الفقه وغيره ، ما دام لكل دليله ووجهته ، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع . ومن المقرر عند علمائنا : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية . إذ لا فضل لمجتهد على آخر . ولا يمنع هذا من الحوار البنّاء ، والتحقيق العلمى النزيه فى ظل التسامح والحب .

* *

● الحركة الإسلامية بالأمس :

لقد قامت الحركة الإسلامية الحديثة فى العالَم العربى منذ بضعة وأربعين عاماً . وقد جمعت كل العناصر اللازمة للحركة الناجحة ، من التجميع والتنظيم والتخطيط ، ولم تكن فى نشأتها عفوية ولا عاطفية ، كما ظن بعض الأخوة المخلصين . فإن الذى يطلع على نظمها الأساسية ، ويقرأ رسائلها ونشراتها ويصغى إلى المؤسسين من أعضائها ، يؤمن بأنها كانت على قدر كبير من حُسن التخطيط والتنظيم ، وعبقرية البناء و « التصميم » وأنها بهرت القريب والبعيد بذلك ، وأنها كانت تعرف أهدافها ، وتعرف طريقها . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولا كل ما يخطط له يقدر على تنفيذه ، وحسب المؤمن أن يفكر ويجتهد وينوى ويعمل ، أما النتائج فحسابها إلى الله ، ولكل امرىء ما نوى ، ولكل مجتهد أجره .

ولقد أدّت الحركة الإسلامية خدمات جلى ، وخلقت صحوة فى العالَم الإسلامى كله ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، وربّت عشرات الألوف من الشباب الواعين المخلصين الذين وصفوا بأنهم « رهبان الليل وفرسان النهار » وصحّحت مفاهيم طالما شاعت بين المسلمين ، وشوّهت جمال الإسلام ، وقدّمت للمكتبة الإسلامية ثروة طائلة فى العقيدة والتشريع والأخلاق ، وفى كل جوانب الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية .

وكان بجوار مداد العلماء ، دماء الشهداء التى روت بها أرض النبوات « فلسطين » التى تبنت قضيتها ، يوم لم يكن يعى أكثر العرب شيئاً عن حقيقة قضية فلسطين ، فهناك تعلّم هذا الشباب « صناعة الموت » كيف يموت فى سبيل الله ، وكيف يميت أعداء الله . ودماء أخرى روت ضفاف القناة فى مقاومة الاحتلال الأجنبى ، ودماء زكية غيرها ذهبت فى مقاومة الطغيان [١] ، يوم حنى الأكثرون رؤوسهم له خوفاً ، وسار كثيرون فى ركابه طمعاً !

ولولا أن الحركة أثبتت وجودها بالفعل قبل القول ، ما تألّب الأعداء عليها وأحاطوا بها من كل جانب ، وحركوا عملاءهم هنا وهناك ، لينزلوا بها ضربات دامية ، ومحناً قاسية ، سيقشعر العالم لهولها يوم يكتبها التاريخ ، وسيكتبها عن قريب – إن شاء الله [٢] .

---

(١) مثل دماء الشهداء : عبد القادر عودة ، ومحمد فرغلى ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وسيد قطب ، وعبد الفتاح إسماعيل ، ويوسف هواش ، وغيرهم ممن نصبت لهم المشانق بعد محاكمات سيكشف التاريخ عن مآسيها عن قريب ، ومثل دماء بضع وعشرين قتلوا برصاص حراسهم فى « ليمان طرة » فى وضح النهار ، وعشرات وعشرات آخرين قتلوا تحت السياط ودفنوا سراً فى ظلمات الليل . ولا أدرى لماذا لم تثر قضاياهم بصورة واضحة ، ضمن قضايا التعذيب حتى اليوم ؟!!

(٢) ما ذكرناه هنا مجرد إشارات ورموز لما قدمته الحركة الإسلامية الحديثة والتفصيل يحتاج إلى كتاب ، بل كتب . وللأسف لم يكتب تاريخ الحركة الإسلامية إلى اليوم كتابة علمية منظمة ، وهذا مما يؤخذ على رجالها ، ويمكن الرجوع لشيء من هذا التاريخ فى مثل : مذكرات الدعوة والداعية للشهيد حسن البنا .. الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين .. والمقاومة السرية فى قناة السويس للأستاذ كامل الشريف .. الإخوان والمجتمع المصرى للأستاذ شوقى زكى .. الإسلام فكرة وحركة وانقلاب للأستاذ فتحى يكن .. الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة للدكتور إسحاق الحسينى .

وليس معنى هذا أن الحركة سليمة من العيوب ، خالية من المآخذ ، كلا .. فلا شك أن كثيراً من المآخذ والمعوقات التى جعلناها معوقات من داخل الحركة . قد أصابها شيء منها بقدر ما ، يختلف من معوق لآخر ، ولا ريب أن الحركة تحاول التغلب على المعوقات وتلافى أسباب الضعف والانكماش ، وتجاهد للأخذ بأسباب القوة والنمو ، حريصة على أن يكون يومها خيراً من أمسها ، وأن يكون غدها خيراً من يومها ، ومَن سار على الدرب وصل ، إذا صلحت النيّة ، وصدقت العزيمة .

* *

● الحركة الإسلامية غداً .. ملامحها وقسماتها :

أكتفى هنا بأن أضع خطوطاً عريضة ، هى بمثابة الملامح والقسمات المعبرة عن وجه الحركة الإسلامية المنشودة ، المرجوة لغد الأمة الإسلامية ، كما أتصورها ، وهى تأكيد وتفريع للمعانى التى ذكرتها فى هذا الفصل :

١ - أن تعمل وتحافظ وتحرص على تقوية الرابطة بين أبنائها ، فكرياً بتنمية المفاهيم المشتركة ، وروحياً بتعميق معنى الأخوة فى الله ، وأخلاقياً بتثبيت فضائل التسامح وخفض الجناح ، وترك المراء ، والتماس الأعذار ، وتقدير وجهات نظر الآخرين وأشباهها . وإدارياً بوحدة التنظيم ووحدة القيادة .

٢ - أن تغلّب العمل للحاضر ، والتخطيط للمستقبل ، على التغنى بأمجاد الماضى السارة ، أو اجترار آلامه المحزنة ، فهذا وذاك عمل سلبى لا يؤتى ثمرة ، ولا يجىء بنتيجة .

كن ابن مَن شئتَ واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النَسَبِ

إن الفتى مَن يقول : ها أنذا ... ليس الفتى مَن يقول : كان أبى

٣ - أن تهتم بالتربية والتكوين ، على قدر اهتمامها بنشر الفكرة ، فلا يكفى أن تضم إليها أعداداً هائلة ، لا تقدر على توجيههم وحُسن تربيتهم ،

ولهذا يجب عليها أن تهتم بتربية الطليعة المؤمنة الواعية التى يبزغ منها القادة والموجهون والمربون .

ومعنى هذا أن تعنى بالكيف قبل الكم ، وباللباب لا بالقشور ، فرُبَّ قِلّة واعية مؤمنة خير من كثرة كغثاء السيل ، فليس المهم هو العدد إذن ، بل انتقاء العناصر الجيدة ، والمعادن الأصيلة ، وفى الحديث : « الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة » .

٤ - أن تربى أبناءها على أن العمل للإسلام هو فى ذاته واجب دينى وعبادة وقُربة إلى اللّه ، أثمر فى الدنيا نصراً ونجاحاً أم لم يثمر ، وأن المطلوب من المسلم هو السعى والجهاد لا النجاح والانتصار . وأن اللّه لن يسأل الناس يوم القيامة لماذا لم تنتصروا ؟ بل : لماذا لم تعملوا ؟

على أن انتشال الفرد المسلم من براثن الجاهلية الحديثة هو فى نفسه غاية يسعى إليها ، وكسب يحرص عليه ، فلا يهونن أحد من شأنه ، ولا يقولن فى يأس : وماذا وراء ذلك ؟!

٥ - أن تُعلّم أبناءَها أن الصدع بما أمر اللّه والجهر بالدعوة فى وجوه المخالفين والمعاندين ، والثبات على العقيدة والفكرة ، والصبر على طول الطريق ، وشدة وعثائه ، وكثرة قطاعه - من أعظم الجهاد فى سبيل اللّه ، وهو الذى نزل فيه أول سورة العنكبوت :

﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ (١) .. ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .. وآخر سورة العنكبوت : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .. وهو الذى أمرَ به الرسول فى سورة

---

(١) العنكبوت : ١ - ٢ (٢) العنكبوت : ٦ (٣) العنكبوت : ٦٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرقان المكية : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ [١] جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [٢] .. سماه الله جهاداً كبيراً ، حتى لا يهوّن أحدٌ من قدره فى يوم من الأيام .

٦ - أن تحاول ملء الفراغ عند أفرادها ، بما ينفعهم وينفع بالتالى حركتهم معهم ، وأن تشغل كل فئة بما يناسبها وكل فرد بما يلائمه ، ولتحذر من طول الفراغ فإنه ممل وقاتل ، ولا يؤدى إلا إلى اليأس والانقطاع ، أو الميل والانحراف . إن الفراغ كالصحة ، كلاهما نعمة يجب أن تُقابَل بالشكر ، وإن غفل جمهور الناس عنهما ، وفى حديث البخارى : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » وشكر هذه النعمة أن يُستغل الفراغ فى علم نافع أو عمل صالح ، يرضى عنه الله ، وينتفع به الناس ، وإلا استحال الفراغ إلى نقمة ، وخصوصاً عند الشباب بما لديهم من فائض طاقة وحيوية ، وفى هذا قال أبو العتاهية فى أرجوزته :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسدة

٧ - أن تضع كل فرد فى موضعه وفقاً لموهبته وخبرته ، حتى يحسن أداء دوره فيه ، ولا تحقر من دور امرىء ما ، مهما ضؤل حجمه أو صغر شأنه ، فإنما لكل امرىء ما نوى ، والله لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب . وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان لخالد بن الوليد مكانه ، ولحسان مكانه ، ولأبى هريرة مكانه ، الأول ينصر الإسلام بسيفه ، والثانى بشعره ، والثالث بعلمه ، وكلٌ مجاهد فى سبيل الله .

٨ - ألا تضخّم جانباً على حساب جانب أو جوانب أخرى ، بل توازن بينهما بالمعروف ، وتعطى كل جانب حقه ، بلا إسراف ولا تقتير ، فلا تهمل التربية الفكرية من أجل التربية الروحية ، ولا الروحية من أجل الفكرية ، ولا تغفل التوعية السياسية ، بسبب الإعداد البدنى أو الجهادى ، ولا العكس ، ولا تقصر

---

(١) أى بالقرآن .   (٢) الفرقان : ٥٢

في التفقيه الشرعى من أجل التثقيف الحركى ، ولا العكس . وهكذا فى كل النواحى .

٩ - أن يعلو فيها صوت العقل على صوت العاطفة ، وحُجَّة الفقيه على جلجلة الخطيب ، ومنطق المفكرين على مشاعر المتحمسين ، وأن يتقدم فيها مَن هو أنضج فكراً ، لا مَن هو أطول لساناً .

وأن تزن أعمالها وتصرفاتها كلها وفقاً لأحكام الشرع ومصلحة الفكرة ، لا استجابة لشعور وقتى ، ولا إرضاء لحماسة العامة ، أو أهواء الخاصة . فكل موقف تتبناه الحركة ، وكل عمل تقوم به ، وكل قرار تتخذه ، لا بد أن يكون مستنداً إلى أسس شرعية ، من نصوص الكتاب والسُنَّة ، وما أرشدا إليه من أدلة معتبرة ، كالقياس والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ، ومراعاة العُرف ، بما لها من شروط وقيود .

١٠ - أن تُقلع عن التشديد والتزمت ، وتتبنى جانب التيسير على الناس فى التشريع والأحكام والآداب الاجتماعية ، وخاصة فيما عمّت به البلوى عملاً بحديث : « يَسِّروا ولا تُعسِّروا ، وَبشِّروا ولا تُنفِّروا » ، وبسُنَّة النبى ﷺ : « أنه ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » .

١١ - أن تعمل على تحديد « المفاهيم » وضبط مدلول الكلمات السيَّالة ، فلا تدع أنصارها ولا خصومها يضعون لها تفسيرات شتَّى عند أنفسهم ، ما بين مُوسِّع ومُضيِّق ، ثم ينسبونها إليها ، مثل مفهوم « الجاهلية » ومفهوم « القومية » أو « الوطنية » أو « الحرية » أو « الحاكمية » وغيرها .. إن ترك هذه المفاهيم وأمثالها دون توضيح وتحديد ليس وراءه إلا البلبلة والحيرة والتذبذب بين شتَّى الاتجاهات المتناقضة ، ما بين غال مسرف ومفرِّط مقصر .

١٢ - أن تتخذ « الرفق » لها شعاراً سواء فى دعوة المحايدين ، أم فى مناقشة الخصوم ، أم فى معاملة الأنصار ، متخذة من الرسول الأعظم أسوة

حسنة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) .. ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .. وما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ، ولا دخل العنف فى شىء إلا شانه ، والله يحب الرفق فى الأمر كله ، مع عدم إخلال ذلك بالحزم الواجب ، والشدة فى موضع الشدة .

١٣ – أن تتجنب الثنائية فى القيادة والعمل ، فلا تسمح بوجود قائد سرى ، وآخر علنى ، ونظام فى النور ، وآخر تحت الأرض ، وقادة رسميين ظاهرين فى « الفترينة » وآخرين أخفياء يعملون فى « الورشة » ! وإنما جماعة واحدة ، وقيادة واحدة ، وعمل مشترك ، يتحمل الجميع مسئوليته .

١٤ – أن تخلع المنظار الأسود حين تنظر إلى الأفراد والمجتمع من حولها ، فلا تسارع إلى اتهامهم بالكفر ، وإخراجهم من الإسلام ، بأمور قابلة للتأويل ، محتملة للجدال ، والأصل : تقديم حُسن الظن ، وحمل حال المسلم على الصلاح ، وإبقاؤه على أصل الإسلام ما وُجِد إلى ذلك سبيل . وأكثر الذين يُتَّهمون بالكفر هم فى الحقيقة جهّال يجب أن يتعلموا ، لا مرتدّون يجب أن يُقتلوا ، وقد عصمت دماءَهم وأموالهم « شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله » وحسابهم بعد ذلك على الله .

أما الذين شرحوا بالكفر صدراً ، وأعلنوه جهرة ، فيجب أن يوضعوا حيث وضعوا أنفسهم ، و ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٣) ..

١٥ – ألا تستعجل الطريق إلى أهدافها ، وتحاول قطف الثمرة قبل نضجها ، فالعجلة من الشيطان ، وهى لا تؤدى إلى خير . وعليها أن تعتصم بالصبر

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) النحل : ١٢٥ (٣) الطور : ٢١

واليقين ، فهما جناحا الإمامة فى الدين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .. وفى الحديث : « الأناة من الرحمن ، والعجلة من الشيطان » .

ومن ذلك : ألا تتعجل الاصطدام بالسُلطات ، لا لمجرد حب السلامة ، وطلب العافية ، ولكن لتوفير طاقات أبنائها ، وتجنيبهم الشدائد ما أمكنها ، إلا ما فُرِض عليها فتتحمله وهى صابرة محتسبة ، وفى الحديث : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، ولكن إذا لقيتموه فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . وكان عمر رضى الله عنه لا يحب المجازفة بالمسلمين فى حرب يخشى عواقبها ، حتى قال يوماً : « لَمُسْلِمٌ واحد أحب إلىّ من الروم وما حَوَت » !

١٦ - أن تجانب الغلو فى كل أمورها ، فقد جاء فى الحديث : « إياكم والغلو فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو » .

فلا تغلو فى الحب إذا أحبَّتْ ، ولا فى الكُرْه إذا كرهت . ولا تضفى على مَن تحب قداسة الملائكة ، ولا تلقى على مَن تكره نجاسة الشياطين . لا تعرف للأول سيئة ، ولا تذكر للثانى حسنة ، فهذا ضد العدل الذى أمر به الإسلام مع العدو والقريب .

ومثل ذلك المدح والذم ، والإقبال والإعراض ، والنظر إلى النفس ، وإلى الغير .

ومن ذلك : ألا تبالغ فى تقدير طاقاتها ، تضخيماً وتهويلاً ، فتغتر وتطغى ، أو تصغيراً وتهويناً ، فتيأس وتفتر . ورحم الله امرءاً عرف حدّه ، فوقف عنده .

---

(١) السجدة : ٢٤

١٧ - أن تتعصب للمبادىء لا للأشخاص ، وللحقائق لا للأشكال ، وللفكرة لا للجماعة ، وللمسميات لا الأسماء .

١٨ - أن تقوِّم تجاربها ومواقفها ، وتستفيد من أخطائها ، ومن تجارب كل الحركات الإسلامية المعاصرة أو السابقة ، ولا حَرَج على العامل أن يخطىء ما دام خطؤه بعد تحرٍّ واجتهاد ، إنما الحَرَج أن يتمادى فى الخطأ ويصرّ عليه ، ولا يستمع إلى نصيحة أو تنبيه ، ومعنى هذا : أن يكون عندها القُدرة على نقد ذاتها ، وإعادة النظر فى خططها ، وترتيب أهدافها ، وتطوير وسائلها وتحسينها ، أو تغييرها إذا اقتضى الأمر . ولا تكتفى بالتقليد وإبقاء القديم على قِدَمه ، وإغلاق باب الاجتهاد على مَن يقدرون على التفكير والتجديد . فليس وراءَ هذا إلا الجمود . وليس وراءَ الجمود إلا الموت .

١٩ - أن ترحب بكل نقد بنَّاء مخلص ، ولو جاءَ من خصم لها ، فقد تصحح به خطأ ، أو تسد به فجوة ، أو توقف به غلواً ، أو تمنع به انحرافاً . ورضى اللّه عن الإمام الشافعى الذى نسبوا إليه قوله :

عِداتى لهم فضل علىّ ومِنَّةٌ فلا باعد الرحمن عنى الأعاديا

فهم بحثوا عن زلّتى فاجتنبتُها وهم نافسونى ، فارتكبتُ المعاليا

٢٠ - أن تتجه إلى الإيجابية والبناء ، بدل السلبية والهدم - شعارها : نبنى ولا نهدم ، نجمع ولا نفرق ، نقوىّ ولا نضعف . وقد قيل : خير من أن تلعن الظلام ألف مرة ، أضىء شمعة واحدة .

٢١ - أن تغسل صدرها من الضغينة والحقد ، ولو على خصومها ، وأن تعامل الناس بالسماح والحب ، حتى يفهم الناس أن أبناءَها أصحاب رسالات لا طلاَّب ثارات .

٢٢ - أن تتبنى موقف التسامح والودّ مع المخالفين فى الرأى ، وتتعاون مع كل عامل للإسلام غيور عليه ، ومتخذة شعارها قاعدة المنار الذهبية : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

٢٣ - ألا تستهلكها المعارك المؤقتة ، والمسائل الجانبية ، ودوامة السياسة اليومية والخلافات الحزبية التى لا تنتهى ، بل توفر جهدها ووقتها وطاقتها للمعارك المصيرية ، والقضايا الكبيرة .

٢٤ - أن تقدّر لكل ذى جهد جهده ، وتشكر لكل ذى جهاد فضله ، من فرد أو جماعة ، ممن سبقوها أو عاصروها ، ولو لم يكونوا أنصاراً لها ، فإن من خصال الإيمان الإنصاف من النفس ، والعدل ولو مع العدو : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [١] .. ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ [٢] ..

هذه - كما قلت - ملامح وقسمات للحركة الإسلامية المنشودة ، ذكرتها على وجه الإشارة والإجمال ، حتى ييسر الله لى التوضيح والتفصيل فيما بعد أو يتولاه مَن هو أقدر منى على ذلك من دعاة الحركة ومفكريها . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

(١) الأنعام : ١٥٢

(٢) المائدة : ٨

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

معالم الحل الإسلامى
(٣٩ - ٧٢)

شروط الحل الإسلامى
(٧٣ - ١٠١)

الصفحة

مكاسبنا من وراء الحل الإسلامى

(١٠٢ - ١٥٤)

السبيل إلى تحقيق الحل الإسلامى

(١٥٥ - ١٩٢)

الصفحة

ضرورة الحركة الإسلامية
(١٩٣ - ٢٣١)

الصفحة

* * *

رقم الإيداع : ٩٢٨٥ / ٩٢

I.S.B.N : 977 - 225 - 024 -/



هذا الكتاب

* « **الحل الإسلامى فريضة وضرورة** » .. هو الكتاب الثانى - من سلسلة « **حتمية الحل الإسلامى** » .. والتى بدأها المؤلف بالكتاب الأول « **الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا** » ..

* وإذا كان المؤلف فى الكتاب الأول قد كشف عن حقيقة هذه الحلول المستوردة .. وجردها تماماً من كل خداعها وزيفها وشعاراتها البراقة .. فإنه فى هذا الكتاب الثانى الذى بين أيدينا ، قدم الحل الإسلامى كفريضة وضرورة .. لأنه الحل الحتمى الذى لا بديل عنه .

ثم تابع المؤلف أبحاثه فى سلسلة « حتمية الحل الإسلامى » فخرج الكتاب الثالث - « بينات الحل الإسلامى .. وشبهات العلمانيين والمتغربين » - كتاب مستقل - ليواصل تدعيم الخطوط الرئيسية فى الحل الإسلامى .

* ما هى معالم الحل الإسلامى المنشود وخطوطه العريضة فى مختلف مجالات الحياة .. ؟

* ما هى الشروط التى يجب توافرها فى الحل الإسلامى الصحيح .. ؟

* ما هى مكاسبنا من وراء الحل الإسلامى .. ؟ ثم ما هى السبيل إلى حل إسلامى .. ؟

* هذه التساؤلات وغيرها ، يجيب عنها المؤلف - بصراحة - وبأسلوب سهل وفكر عميق ، وأفق واسع ..

* ثم يقدم « **المؤلف** » دراسة جادة عن الحركة الإسلامية بالأمس .. ما قدمته لمجتمعها وللمسلمين جميعاً .. منتهياً إلى الحركة الإسلامية المرجوة للغد ، موضحاً أبرز ملامحها وقسماتها المعبرة عن وجهها ..

* إن « **المؤلف** » الدكتور يوسف القرضاوى - الغنى عن التعريف فى حلقات القضية « **حتمية الحل الإسلامى** » .. أن يؤدى خدمة جـ الإسلامى الصحيح .. وللشباب المسلم المتعطش إلى مثل هذا الفكر الأصيل ..

* ويسر « **مكتبة وهبة** » أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليكون ه الطريق أمام الأمة الإسلامية فى كل مكان .. وبالله التوفيق .